



الكناية في القرآن الكريم  
موضوعاتها ودلالاتها البلاغية







# الكناية في القرآن الكريم

موضوعاتها ودلالاتها البلاغية

د. أحمد فتحي رمضان الحياتي

أستاذ البلاغة المساعد في قسم اللغة العربية  
كلية الآداب / جامعة الموصل

الطبعة الأولى

٢٠١٤ م - ١٤٣٥ هـ



الكناية في القرآن الكريم  
موضوعاتها ودلالاتها البلاغية



## الأسراء

إبراهيم والديّ..

إحساناً.. وخفض جناح

وإبراهيم زوجتي.. وأولادي: سارة وعلي ومروة

وإبراهيم أخوتي وأخواتي

وإبراهيم خال أولادي اللطيف الكريم أبوكم.

جميعاً أهدي طمئنة جهدي



## الفهرس

المقدمة..

المهاد النظري (الكناية في الدراسات البلاغية):..

- الكناية لغة

- مفهوم الكناية ودلالاتها الاصطلاحية

- الكناية بين الحقيقة والمجاز.

- الفرق بين الكناية والتعريض..

- معيار الجودة في الكناية عند البلاغين

الفصل الأول: الكناية الجنسية:

- الرّفث واللباس والمباشرة

- الإفضاء

- التّعشّي.

- الإعتزال والتقرّب والإتيان.

- اللمس والمسّ.

- الهجر في المضاجع.

- الدخول.

- التمتع

- السرّ.

- تحت عبّدين

- الطّمث والفرش المرفوعة..

الفصل الثاني: الكناية اللونية:

- الكناية باللون المباشر:

\* الكناية باللون الأبيض والأسود

\* الكناية باللون الأزرق

\*الكناية باللون الأخضر والأصفر..

الكناية باللون غير المباشر.

\*الكناية بالإسفار والغبرة والفترة

\*ناضرة وباسرة..

الفصل الثالث: الكناية النفسية:

- عضن الأنامل.

- عضن البيدين

- تقليب الكففين.

- السقوط في اليد..

- رد الأيدي في الأفواه

- جعل الأصابع في الأذان واستعشاء الثياب.

- النبذ وراء الظهر.

- الانقلاب على الأعقاب..

- تنكيس الرؤوس..

- تسوية الأرض بالكافرين

- خضوع الأعناق..

- بلوغ القلوب الحناجر

- شخوص الأبصار والإهطاع وإفناع الرؤوس..

- خشوع الأبصار..

- الزلُّق بالأبصار..

- الإزدراء بالأعين..

- قرّة العين..

الفصل الرابع: الكناية الخَلْطِيَّة:

- أكل لحم الأخ الميت.

- حمالة الحطب.

- غل اليد إلى العنق وبسطها كلَّ البسط.

- قبض اليد..
- النقيير
- منع الماعون.
- تصغير الخد..
- لمي الرأس..
- التسطي.
- ثني العطف
- إنغاض الرأس.
- الإعراض والنأي بالجانب
- المشي على الأرض هوناً..
- تثبيت الأقدام..
- القتال في قرى محصنة أو من وراء جُدُر
- الإصعاد واللي
- غصُّ الأبصار والضرب بالأرجل
- مد العين
- التجاهي عن المضاجع
- الفصل الخامس: الكناية الساخرة:..
- الوسم على الخرطوم
- السقِّع بالناصية
- دُقِّ إنك أنت العزيز الكريم.
- الضرب على وجوه الكافرين وأدبارهم
- تولى الأديار..
- خرُّق الأرض وبلوغ الجبال طولاً
- الصَّدْف.
- شرّ النواب
- لو يجدون ملجأ أو مغارات أو متخلاً لولوا إليه وهم بجمعون..

- نوران الأعين.

- الخو الف.

- أكلُ الطعام.

- الأخذُ بالنواصي..

الفصل السادس: الكناية المعرفية..

- لا كِنَّةَ والوَقْرُ والحجاب.

- غُلف.

- الخنم.

- الطنن.

- الأقفال.

- الأغلل.

- الغطاء..

- لم يخرّوا عليها صنماً وغمينا..

- البلد الطيب يخرج نيته بائن ربّه والذي حَبِثَ لا يخرج إلا تكذاً

- الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظلّ والحرور، والأحياء والأموات.

الفصل السابع: الكناية التعريضية..

- إنما يتذكر أولوا الألباب.

- فسنلوهم إن كانوا ينطقون..

- نبأ الخصم.

- ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض.

- المثل بامرأة نوح وامرأة لوط..

- يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوءً وما كانت أمك بغياً

- أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً

- ما هذا إلا بشر مثلكم

- أولوا الأيدي والأبصار..

- والذين إذا ذكروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صنماً وغمينا

- وما هي من الظالمين ببعيد.
  - وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهوا لما أصابهم
  - وإنا أو أيناكم لعلى هدى أو في ضلال مبين.
  - ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون.
  - لا تسألون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون.
  - لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لראيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.
  - وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة.
- الفصل الثامن: كنايات عن يوم القياس:

- الواقعة..
  - القارعة..
  - الحاقة
  - الصاخة.
  - الطامة الكبرى
  - الغاشية..
  - الأرفة..
  - الراجفة والرانفة.
  - الكشف عن الساق
  - جعل الولدان شيبا
  - أصحاب اليمين
  - أصحاب الشمال..
  - إتيان الكتاب من وراء الظهر..
- الفصل التاسع: كنايات في موضوعات مفارقة:
- كنايات عن الشدة والكرب:
  - \*التفاف الساق بالساق.
  - \*لتر كبن طيقاً عن طيق..
  - \*ضاق بهم ذرعاً.

- كُنَايَاتٌ عَنِ مَصَارِعِ الْغَابِرِينَ:

\*فَغَسَّيْهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَسَّيْهِمْ.

\*قَطَعَ الدَّابِرَ

\*المَتَّسِي فِي الْمَسَاكِنِ..

\*إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ثَوَّ الْأَوْتَادِ.

\*نَقَصَ الْأَرْضَ مِنْ أَطْرَافِهَا.

- كُنَايَاتٌ عَنِ الْعَذَابِ:

\*مَنْ فَوْقَهُمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ.

\*مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ

- كُنَايَاتٌ عَنِ الرَّحْمَةِ:

\*فَتَحَ الْبِرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

\*الْأَكْلَ مِنْ فَوْقٍ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْجُلِ..

\*وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوِاحِ وَدَسَرَ

- كُنَايَاتٌ أُخْرَى..

\*التَّنْتَشَنَةَ فِي الْحَلِيَّةِ وَفِي الْخِصَامِ غَيْرَ مَبِينِ

\*تَطْهِيرِ الثِّيَابِ

\*التَّبَهُتَانَ الْمُفْتَرَى بَيْنَ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ

الخاتمة

تُبَيِّنُ الْمَصَادِرَ وَالْمَرَاجِعَ

## المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد البلغاء وإمام الفصحاء محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهدبهم إلى يوم الدين.  
وبعد:

فإن هذا: محاولة جادة تنطلق من القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر لدراسة ظاهرة أسلوبية من ظواهر أساليبه المعجزة، وهي ظاهرة الكناية بوصفها فناً من فنون القول التي يحفل بها القرآن الكريم

واختياري هذا الموضوع عائد أساساً إلى سببين، أولهما: حبي الكبير لكتاب الله منذ الصغر.. وثانيهما: إيماني بأن التخصص في علم البلاغة العربية يجب أن يتعمق في رحاب القرآن، فهو معجزة البلاغة العربية ومقياسها الأمثل الذي يُحتذى به على مدار الزمن. من أجل ذلك انعقدت الذية على أن تكون دراستي فيما يتعلق بالقرآن، وواقع الاختيار على موضوع (الكناية) تحديداً لأهميته في الدرس البلاغي والأدبي من جهة، ولعدم دراسة هذا الفن النبتي دراسة على وجه الاستقلال شاملة متقضية من جهة أخرى.  
وقد اتبعت في كتابي منهجين:

الأول: منهج تاريخي تجلّى في المهاد النظري الذي صدرت به الكتاب، استعرضت فيه الكناية لغةً واصطلاحاً ونشأةً وتطوراً وقيمةً وبلاغةً، وكان هذا المنهج كفيلاً ببيان مفهوم الكناية وتطوره عبر المراحل التاريخية المتعاقبة.

والثاني: منهج تحليلي قامت عليه فصول الأطروحة رأيتة جديداً وكفيلاً ببيان الملامح الفنية التي توافرت عليها الكناية القرآنية، وقد وظّفتها القرآن وسيلة حيوية فاعلة في توصيل أغراضه ومقاصده التي هدف إليها.

وموضوع الكناية ليس سهلاً يسيراً، فهو يكاد أن يكون من أكثر الأساليب البلاغية دقةً وخفاءً، وقد اختلف البلاغيون القداسي في تحديده وبيان ما يدخل ضمنه من الظواهر والأساليب.. بيد أن مفهوم الكناية تبلور على يدي قدامة بن جعفر باسم "الأرداف" وأخذه عنه البلاغيون الذين جاءوا بعده، ونقل عبد القاهر الجرجاني تعريف قدامة للأرداف وسمّاه كناية، وكذلك فعل البلاغيون بعد الجرجاني.. ويتسع مفهوم الكناية عند ابن الأثير حيثما

رأها كل أسلوب يحتمل معنيين، أحدهما قريب، والآخر بعيد، وهو مراد المتكلم في الغالب، ويتحقق هذا المعنى البعيد عنده إما بالإرداف، وهو التعبير عن الملزوم بلازمه، وهو ما ذهب إليه قدامة بن جعفر، أو بالتمثيل، وهو التعبير عن المعنى بمثاله، أو بالمجاورة، وهو التعبير عن الشيء بتركه إلى ما جاوره، ومع هذا التوسع في مفهوم الكناية فإن ابن الأثير لم يعد التعريض منها. ثم يتسع مفهوم الكناية عند السكاكي حينما رأها تشمل: التعريض والإرداف والتمثيل والتلويح والرمز والإشارة والإيماء، فجعلها طرقاً للكناية وإن اختلفت إذ يضمها بعد عام وهو الإشارة إلى المعنى البعيد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ.

لذلك كان حقيقاً على الكتاب أن ينتهج هذا المفهوم الواسع للكناية بطرقها المتعددة في الدراسة وأن لا يقتصر على كناية الإرداف، كما استقرت تعريفاً واصطلاحاً لها عند المتأخرين كالقزويني وشرّاح تلخيصه. لأن هذا المفهوم الواسع للكناية يستوعب أنواعها ويعبر عن طبيعتها الفنية والأدبية، وأجدي في دراسة الكناية القرآنية دراسة أدبية وقد شملت هذه الأنواع.

أما مصادر الكتاب ومراجعته فهي عديدة متنوعة، ويقف في طليعة المصادر القديمة المختصة التي حظي بها الكتاب وأعدته: تفسير (الكشاف) للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) الذي استلزم به الكتاب واستأنس، فلا عجب أن يحتل مكانة متميزة فيه، فضلاً عما أفادته التفاسير الأخرى والمصادر البلاغية المختصة والمراجع الحديثة، وقد عملت هذه المصادر والمراجع على نمو الكتاب واكتماله بالصورة التي خرج بها، وقيل كل ذلك كان (القرآن الكريم) هو مصدره الوحيد التمس منه بالتلاوة المتكررة أثناء الليل والنهار الهداية إلى المعرفة والإفادة بما يُغني الكتاب.

أما بناء الكتاب فقد قام على مهاد وتسعة فصول، اختص المهاد بدراسة الكناية من خلال المعاجم والمؤلفات التي تناولت بلاغة القرآن وتفسيره، والدراسات البلاغية المختصة عبر المراحل التاريخية، ولما كان من المدعز بسط جميع الدراسات عمدت إلى مبدأ (الانتقاء) فأوردت أكثر المصادر دلالة على الموضوع وأوفاهها قدرة على استكمال متطلباته مركزاً في أثناء البسط على موضوع الكناية القرآنية ومجلباً آراء الدارسين القدامى

من خلال تحليلهم لهذا الفن، وقد امتاز عندهم - على الأغلب الأعم - بالروح الأدبية في تذوقه تذوقاً أدبياً أصيلاً.

وأعقب المهاد الكناية في القرآن الكريم، وقد انتظمت في فصول تسعة جاءت حسب المُكنى به والمُكنى عنه، فحملت عنوانات موضوعية مجترحة من طبيعة الكنايات التي تناولتها، وقد عمدت إلى الانتقاء في التحليل لكثرتها، فكان الفصل الأول بعنوان (الكناية الجنسية) يبحث في طبيعة هذه الكناية في القرآن، وقد كانت نوعين: كناية جنسية مشروعة بين الزوجين، وكناية جنسية غير مشروعة فيما وراء ذلك، وقد ركز الفصل على الكناية الجنسية المشروعة في العرض والتحليل والتطبيق لكثرتها وأهميتها في أداء الدلالة الانسانية التي قيمها القرآن في العلاقة بين الزوجين.

وكان الفصل الثاني بعنوان (الكناية اللونية) وقد كتبت نوعين: كناية باللون المباشر كاللون الأبيض والأسود والأزرق والأصفر، وكناية باللون غير المباشر وهو يتغلغل في الصورة الكنائية فيتداعى ليشير إلى دلالاته على نحو مكثف كاللون المباشر بوصفهما إشارة كنائية موحية.

وجاء الفصل الثالث بعنوان (الكناية النفسية) وقد كان ميدان التطبيق على الكنايات التي تجسد بالحركة المرئية سواء أكانت الحركة باليد أو بالعين أو بالراس أو بأي عضو من أعضاء جسم الانسان تُجسد حالات نفسية معينة وخلجات شعورية متلونة حسب السياق الذي تنشكّل فيه..

أما الفصل الرابع فهو يحمل عنوان (الكناية الخلقية) تؤدي فيه كل كناية دلالة خلقية سلبية كانت أو ايجابية كالغيبة والتميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والحين، والتكبر والتواضع والكرم، تصل إلى المتلقي عبر فن الكناية ذي الطاقة التعبيرية والتصويرية فنكشف الكناية عن مكنوناتها بما يثري الفكر والشعور وتحدث بالمتلقي استجابة في تلقية الدلالات الخلقية ترغيباً أو تنفيراً.

وتناول الفصل الخامس (الكناية الساحرة) من خلال مجمل الآيات التي احتوت كنايات ساحرة وهي - على الأعم الأغلب - تستهدف أذمة الكافر والشرك في صورة كاريكاتيرية تنشر السخرية منهم والضحك، وتحطم قواهم النفسية والمعنوية التي يوجهونها للمحاربة الاسلام وايداء المسلمين.

أما الفصل السادس الذي يحمل عنوان (الكناية المعرفية) فقد تناول الدلالة المعرفية في إطار ما يتعلق بالحواس والإدراك كالسمع والبصر والفؤاد بوصفها وسائل تلقى المعرفة التي تعدّ في المنظور القرآني أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فحدّدت هذه الكناية عالمين متضادين: عالم الكفر والاضلال وأصحابه الكافرين الذين تصوّرهم الكناية وهم يرزحون في موانع حسية تحجبهم عن المعرفة في صورة بيانية معجزة، وعالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين الذين أفادوا مما منحهم الله من حواس ووسائل إدراك وفهم على نور وبصيرة.

وانتقد الفصل السابع (الكناية التعريضية) على دراسة نوع من الكناية يعدّ طريقة متميّزة من طرقها في التعبير فاستخلصنا التعريف لهذا النوع من الكناية ثم أفضنا بالتحليل والتطبيق الكاشف عن وظيفته في مواقع الآيات الكريمة وبيان أثره التعبيري فيها.

وجاء الفصل الثامن بعنوان (كنايات عن يوم القيامة) يصوّر ذلك اليوم العظيم (يوم القيامة) من خلال كنايات متعدّدة، تجلّي كلّ كناية دلالة خاصة بها في بنائها وإيقاعها، فضلاً عن كنايات أخرى تتصل بذلك اليوم وما يحدث فيه من أهوال وأحداث مروّعة للاكون والحياة والإنسان.

واشمّل الفصل التاسع (كنايات في موضوعات متفرقة) على محاور متعدّدة هي: كنايات عن الشدة والكره، وكنايات عن مصارع الغابرين، وكنايات عن عذاب الله، وكنايات عن رحمة الله، وكنايات أخرى تنفرد كل كناية بموضوع معين يصل إلى المتلقي عبر فن الكناية بحيوية وقوة وتأثير.. وكنايات تتعلق بخلق الكون، وأخرى تتعلّق بذات الله ﷻ يُستشَف منها معاني عظمة الله وقدرته المهيمنة على الكون، وربما كان وراء هذه الصور الكنائية من الأسرار والمعاني مالا يحيط بها الإدراك والاجتهاد.

وانتهى مطاف الكتاب بخاتمة عرضت لأهم النتائج وأميزها، ولم أدر في كل مرآة حل الكتاب وسعاً لتحقيق بعض من طموح، ثم أهدت بـ جدولاً إحصائياً مفصلاً لكنايات القرآن الكريم مرتباً حسب السور القرآنية، وملحقاً إحصائياً آخر للكناية التعريضية، معتمداً في الأغلب التفسير والمصادر البلاغية المختصة، واجتهدت في تعيين طائفة من الكنايات القرآنية ممّا لم تُذكر في الدراسات القرآنية والبلاغية مبيّناً نوعها ودلالاتها بمقتضى سياق الآية، ومتمحرياً الدقة والاستقصاء ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، والله حسبي وهو نعم الوكيل.



أحمد فتحي رمضان

## المهاد

### الكناية في الدراسات البلاغية

#### الكناية لغة:

كنى في (المعجم العربي) تدل على (عدول عن لفظ إلى آخر نال عليه). قال الخليل (ت ١٧٠ هـ): " كنى فلان يكنى عن اسم كذا، إذا تكلم بغيره مما يُستدلُّ به عليه، نحو: الجماع.. والغائط والرفث ونحوه " (١)، فهو يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه. كما اشترط هذه الدلالة ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): " يُقال: كذبتُ عن كذا.. إذا تكلمت بغيره مما يُستدلُّ عليه " (٢).

إلا أن الجوهرى (ت ٣٩٣ هـ) قال: " الكناية: أن تتكلم بشيء وتريد به غيره " (٣). وبذلك فهو لم يشترط دلالة المكنى به على المكنى عنه صراحةً، ويبدو أن الجوهرى لم يذكر الدلالة، لكونها لازمة للكناية، وأن المكنى لا يعمد إلى مالا دلالة له على المكنى عنه، ولهذا فإن ابن منظور (ت ٧١١ هـ) يأخذ بالقولين (الذي يشترط الدلالة والذي لا يشترطها) وكان القولين واحد فيقول: " والكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وكنى عن الأمر بغيره يُكنى كنايةً. يعني: إذا تكلم بغيره مما يستدلُّ به عليه، نحو: الرفث والغائط ونحوه " (٤).

وفي ضوء هذا تُفسر الكناية بأي من هذين القولين. وهذا ما ذهب إليه الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ)، إلا أنه يقدم ما اشترطت فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه الدلالة على ما لم تشترط فيه فقال: " كنا به عن كذا يُكنى، ويكذو كنايةً: تكلم بما يُستدلُّ به عليه أو أن تتكلم بشيء وتريد غيره " (٥).

ونرى أن اشتراط الدلالة على المكنى عنه وتقييد الكناية به أولى من عدم اشتراطها وإطلاق القول فيها، إذ إن اشتراط الدلالة يميز الكناية من غيرها من الأساليب

١ كتاب العين: ٥ / ٤١١ (كنى).

٢) مقاييس اللغة: ٥ / ١٣٩ (كنو).

٣) الصحاح: ٦ / ٢٤٧٧ (كنى).

٤) لسان العرب: ١٥ / ٢٣٣ (كنى).

٥) القاموس المحيط: ٤ / ٣٨٦ (كنى).

قمع الاطلاق يفهم من الكناية مجرد العنول عن لفظ إلى غيره، قد تخلط الكناية بغيرها كالتوري المجاز (١)

وقد جعل قسم من اللغويين الكناية تورية، قال ابن فارس معقبا على قول الشاعر:  
وَأَنِّي لَأَكْتُوْ عَن قُتُوْرٍ بَغِيْرَهَا وَأَعْرَبُ أَحْيَانًا بِهَا فَأَصْرُحُ  
ألا تراه جعل الكناية مقابلة للمصراحة؟ ولذلك تسمى الكنية كنية، كناية تورية عن اسمه (٢) وانتهى إلى أن: "الكاف والنون والحرف المعتل يدل على تورية عن اسم بغيره" (٣) وقال ابن منظور - أيضا -: "الكنى: جمع كنية من قولك: كذبت عن الأمر، وكثوت عنه: إذا ورّيت عنه بغيره" (٤).

وهكذا فسّر بعض اللغويين الكناية التي قالوا فيها: بأنها العنول عن لفظ إلى آخر دال عليه بالتورية التي أجمعوا على أنها من الستر والاختفاء (٥).  
ولعل هذا الخلط عائد إلى اشتراك الكناية والتورية في معنى (الستر والإخفاء) لغة فكلهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه.

ومعلوم أن العنول عن ذكر اللفظ، لا يعني بالضرورة إخفاءه وستره، كما لا يعني إبرازه وإظهاره، وإنما هو مجرد تركه، ومن هنا "فاللفظ في الكناية ليس بالواضح وضح المذكور صراحة، ولا هو بالخفي الذي أخفي عن عمد وقصد، فهو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رقيق، يشف عما تحته، فلا هو مستور، ولا هو عار، أما المورّي عنه فمكسو بكساء ساتر يستره ويخفيه، ولهذا يعمد إلى التورية عند إرادة الاختفاء والإيهام والتضليل، بخلاف الكنى، إذ هي دالة على أصحابها دلالة الأسماء على مسمياتها. ولولا هذه الدلالة لما عدل الناس عن الأسماء إليها" (٦) وهذا ما أشار إليه ابن منظور في تعقيبه على قول القائل: "رأيت علجا يوم القادسية وقد تكنى وتحنّى أي تستر، من كنى عنه إذا ورّى، أو من الكنية،

(١) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص ١٢٠.  
(٢) مقاييس اللغة: ٥ / ١٣٩ (كنو).  
(٣) المصدر نفسه: ٥ / ١٣٩ (كنو).  
(٤) لسان العرب: ١٥ / ٢٣٤ (كني).  
(٥) ينظر مثلاً: لسان العرب: ١٥ / ٣٨٩ (ورى).  
(٦) الكناية، ص ١٢١.

كفاه ذكر كنيته عند الحرب ليُعرف " (١) فقد أصاب في قوله: " كأنه ذكر كنيته ليُعرف "، وجانب الصواب في قوله: " .. أي تستر، من كنى عنه إذا ورى "، إذ لماذا يستتر وهو علم من أعلام القادسية، وبطل من أبطالها؟ وممن يستتر؟ وليوث الحرب، وأبطال المعارك وأعلامها يمجرون بأسمائهم وكناهم والقابهم عندما يكرون على أعدائهم، ليُشيعوا الرعب في نفوسهم (٢).

والبيت الذي استدل به ابن فارس لم يرد فيه الشاعر التورية والإيهام والتضليل، ولو أراد ذلك لما ذكر اسمها صراحةً في صدر بيته، ولما قال في عجزه " وأعرب أحياناً بها فأصاح "، لأن الكناية دالة على ما عدل عنه، لا لتخفي وتوهم وتضلل. وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الكناية - لغةً - هي عدول عن لفظ (إلى آخر دال عليه).

والعدول في هذا المفهوم اللغوي للكناية لا يعني ستره وإخفائه وتضليله كما هو في (التورية) (٣) ولا يعني - أيضاً - إبرازه وإظهاره وكشفه فينقلب التعبير إلى تعبير مباشر يقرر معناه بطريقة مباشرة. وإنما يعني أن المكنى عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي المضلل الذي لا تكاد تتبينته إلا بالتأمل وإمعان النظر. هو أشبه ما يكون بالمكسو بثوب رفيع شفاف يوحي بالمعنى ولا يباشر به، يلمح إليه ولا يقرره.

(١) لسان العرب: ١٥ / ٢٣٣ (كنى).

(٢) ينظر: الكناية، ص ١٢٢.

(٣) يمكن أن نلاحظ بعض الفروق بين أسلوب (الكناية والتورية) في المعنى الاصطلاحي لهما على الرغم من اشتراكهما لغةً في الستر والإخفاء، فكلاهما يستر المعنى ويخفيه وراء لفظ غير لفظه - أهمها:

١ - أن الكناية تقع في المفردة والتركيب على حين أن (التورية) لا تقع إلا في المفردة.  
٢ - تهدف التورية إلى تضليل المورث عنه وإخفائه، إذ هي تركز إلى المغالطة والإيهام في حين أن الكناية دالة على المكنى عنه لا توهم ولا تضلل بل هي توحى بالمعنى المكنى عنه من وراء سجعها، وقال ابن الأثير الحلبي في جوهر الكنز: " ولا فرق بين التورية والكناية، إذ التورية ذكر لفظ له معنيان، والكناية كذلك. وما قل أحد من العلماء بالفرق، إلا أن التورية أفردت وصار الناس يلهجون بذكرها في محاوراتهم، ونظمهم، ونثرهم، ويستحسنون لفظها، فصارت كنها غير الكناية " ص ١١٦. فهو ينظر إلى المعنى اللغوي لهما دون المعنى الاصطلاحي كما هو واضح.

٣ - إن التورية ترد على الوجه الحقيقي، بينما ترد الكناية على الوجه المجازي.  
وينظر: نشاط الصفدي في النقد والبلاغة، د. مناهل فخر الدين فليح، ص ٣٥ وما بعدها.

## مفهوم الكناية ودلالاتها الاصطلاحية :

يحد الباحث في فن الكناية أقوالاً كثيرة متناثرة في مصادر متنوعة أسهم فيها جمع غير من العلماء من مفسرين ولغويين ونحويين وأدباء وبلاغيين، أسهموا جميعاً في تطوير الدلالة للكناية حتى استقرت بدلالاتها الاصطلاحية عند البلاغيين المتأخرين.

وفي ظليعة هؤلاء العلماء المفسرون لكتاب الله، فقد احتوى القرآن الكريم كنيات كثيرة، تضمّنت منها أحكاماً شرعية، فكان لزاماً على المفسر أن يوضح معانيها والمراد منها.

ويُعَدُّ ابن عباس (رضي الله عنهما) (ت ٦٨ هـ) من أوائل المفسرين، فقد أشار إلى عدد من كنيات القرآن، وبين المكنى عنه في كل منها وعلته، فقال في قوله - تعالى -: ﴿ **أَوَلَمْ تَسْمِعُوا النِّسَاءَ** ﴾ <sup>(١)</sup> المسنّ واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يعف ويكفي ما شاء بما شاء <sup>(٢)</sup>، وفي قوله - تعالى -: ﴿ **أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاةِ الرَّفَثِ إِنْ سَأَلْتُمْ** ﴾ <sup>(٣)</sup> الرفث الجماع، ولكن الله كريم يكفي <sup>(٤)</sup>.

وفي قوله - تعالى -: ﴿ **فَأَلْفَنَ بَنِي رُومَ** ﴾ <sup>(٥)</sup> المباشرة: الجماع ولكن الله يكفي ما شاء بما شاء <sup>(٦)</sup>، وفي قوله - تعالى -: ﴿ **فَلَا رَفَثَ ...** ﴾ <sup>(٧)</sup> الرفث هنا غير الرفث الذي ذكر في ﴿ **أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاةِ الرَّفَثِ إِنْ سَأَلْتُمْ ...** ﴾ فهو من التعريض بذكر الجماع، وهو من العرابية في كلام العرب، أي أدنى الرفث <sup>(٨)</sup>.

وكما هو واضح فإن استعمال الكناية عند ابن عباس يتقيد ستر المعنى الذي نلجأ إليه باستعمال الفاظ مهذبة دالة على المعنى المراد بدلاً من الألفاظ الموضوعية لذلك المعنى.

(١) من الآية ٤٣ من سورة النساء ، وسورة المائدة ، من الآية: ٦  
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري: ٦٥ / ٥. وينظر: الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي:

٨ / ٢

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ١٨٧.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٤ / ٢.

(٥) سورة البقرة ، من الآية: ١٨٧.

(٦) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٨ / ٢.

(٧) سورة البقرة ، من الآية: ١٩٧.

(٨) جامع البيان في تفسير القرآن: ١٥٤ / ٢.

وقد نهج أكثر المفسرين بعده نهجه في التفسير والبيان مثل: (مجاهد: ت ١٠٣ هـ)، و (قتادة: ت ١١٧ هـ)، وغيرهما (١).

أما اللغويون والنحاة فإن مفهوم الكناية عندهم يعني كلّ عدول عن صريح اللفظ إلى ما دلّ عليه من الضمائر والكُنَى وأسماء الأشياء والأعداد.

فأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) يطلق الكناية على الضمير لحلوله محل الاسم الصريح، ودلالته عليه، فقال: " لا تُضَافُ ﴿تَبَشِّرُونَ﴾ إِلَّا بَنُونَ الْكِنَايَةِ كَقَوْلِكَ (تبشرونني) " (٢).

ويذكر الخليل الكناية ودلالاتها والدافع التهذيبي الذي يدفع إليها في الكلام في قوله المارّ ذكره (٣).

ويذكر سيبويه (ت ١٨٠ هـ) تكنية العرب بفلان وفلانة - من غير ما ألف ولام - عن أسماء المتحدث عنهم من الأدميين، وبالألف واللام في تكديتهم عن غير الأدميين فقال: " هذا فلانُ بنُ فلان، لأنه كناية عن الأسماء التي هي علاماتٌ غالبية، فأجريت مجراها فإذا كذبت عن غير الأدميين قلت: الفلان والفلانة، جعلوه كناية عن الناقة التي تسمى بكذا، والفرس الذي يسمى بكذا، ليفرقوا بين الأدميين والبهائم " (٤).

ومثّل (كم) في الكناية عن العدد بفلان وفلانة في الكناية عن الأسماء فقال: " وذلك قولك: له كذا وكذا درهماً، وهو مبهم في الأشياء بمنزلة (كم) وهو كناية للعدد، بمنزلة (فلان) إذا كنيت به في الأسماء " (٥).

وهكذا أطلق سيبويه الكناية على علامة المضمّر من أسماء الأدميين وغير الأدميين والأعداد. وهذا المفهوم للكناية هو بالمعنى النحوي لا البلاغي، وهو ما نجده عند الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، وقد أشار الفراء إلى عدد من كنايات القرآن، ونقل في بعضها ما قاله ابن عباس، فقال في قوله - تعالى - : ﴿وَلَكِنَّ لَأَنْتَوَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾ (٦) يقول: لا يصفن أحدكم

(١) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: المواضع السابقة نفسها، و ١ / ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٢٤، ٢٢٧ وغيرها.

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة: ١٣ / ١.

(٣) ينظر: ص ٧ من:.

(٤) الكتاب: ٣ / ٥٠٧.

(٥) نفسه: ٢ / ١٧٠.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٥.

نفسه في عدتها بالرغبة في الذكاح والاكثار منه عن ابن عباس أنه قال: السرُّ - في هذا الموضوع - النكاح

أَلَا زَعَمْتَ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنْتِنَا كِبَرَتْ وَالْأَيُّ شَهَدَ السِّرُّ أَمْثَالِي  
قال الفراء: "ويرى أنه مما كنى الله عنه، قال - تعالى - ﴿ **أَوْجَاهَ أَحَدٍ وَنَكُمْ مِّنَ الْفَاطِي** <sup>(١)</sup> ﴾ " <sup>(٢)</sup>

وقال في قوله - تعالى - ﴿ **سَمِعْتُمْ وَأَبْصُرْتُمْ وَسَلُودْتُمْ** <sup>(٣)</sup> ﴾ الجاد - ها هنا - والله أعلم وهو ما كنى عنه، كما قال - تعالى - ﴿ **وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا** ﴾ يريد: الذكاح، وكما قال: ﴿ **أَوْجَاهَ أَحَدٍ وَنَكُمْ مِّنَ الْفَاطِي** ﴾ والغائط الصحراء <sup>(٤)</sup>

وقال في قوله - تعالى - ﴿ **يَأْتِيكُمْ بِوُجْهِ** <sup>(٥)</sup> ﴾ كناية عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة. وإذا كذبت عن الأفاعيل وإن كثرت وحذت الكناية، كقولك للرجل: أقبل لك وإدبارك يؤذني. وقد يقال: إن الهاء التي في ﴿ **بِوُجْهِ** ﴾ كناية عن الهدى، وهو كالوجه الأول <sup>(٦)</sup>

إن ضمير الغائب المفرد (الهاء) ناب عن ذهاب السمع والبصر والختم على الأفئدة، أو عن الهدى وأن يحل الضمير محل الاسم هو الكناية عند الفراء، وهذا ما نفهمه في شرحه لقوله - تعالى - ﴿ **فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا** <sup>(٧)</sup> ﴾ وقال: وإن شئت جعلت ﴿ **هِيَ** ﴾ للأبصار، كنييت عنها ثم أظهرت الأبصار لتفسرها، كما قال الشاعر:  
لعمري أبيتها لا تقول ظعنيتي أولا فر عني مالك بن أبي كعب  
فتذكر الطعينة وقد كنى عنها في (عسر) <sup>(٨)</sup>

(١) سورة النساء ، من الآية ٤٣ ، وينظر : سورة المائدة ، الآية : ٦ .

(٢) معاني القرآن: ١ / ١٥٣ ، وينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٧ / ١٠٠ .

(٣) سورة فصلت ، من الآية ٢٠ .

(٤) معاني القرآن: ٣ / ١٦ .

(٥) سورة الأنعام ، من الآية: ٤٦ .

(٦) معاني القرآن: ١ / ٣٣٥ .

(٧) سورة الأنبياء ، من الآية: ٩٧ .

(٨) معاني القرآن: ٢ / ٢١٢ .

ومقتضى كلامه أن ﴿هـ﴾ تدخل محل ﴿أبْصُرْ﴾ مضمرة في الآية، وجاءت الأبصار الثانية لتفسر هذا المضمرة، كما هو الأمر في بيت مالك بن أبي كعب الذي أضمرت فيه الطعينة الأولى وتاب عنها الضمير "ها" وجاءت الطعينة الثانية لتشرح هذا المضمرة وتبينه.

ويوضح أكثر أن الكناية عند الفراء هي ما ينوب عن المضمرة أو علامته على حد قول أهل النحو، حين يشرح الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْتَالًا فِيهِمُ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ (١)، قال: "فكنى عن هي، وهي للإيمان ولم تذكر. وذلك أن الغل لا يكون إلا باليمين، والعنق، جامعاً لليمين، والعنق: فيكفي ذكر أحدهما من صاحبه" (٢). أي أن الإيمان مضمرة في الآية وحلت ﴿هـ﴾ محلها، فتأبت أو كنت عنها.

وشأن أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) شأن الفراء في أن المعنى النحوي للكناية لم يمدعه من أن يشير إشارة عابرة - أيضاً - إلى الكناية بمعناها البلاغي، وهي إشارة تفيد الستر ولا شيء غيره، بمفهومه اللغوي الصرف. قال أبو عبيدة: "ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه، ويترك خبره قوله - تعالى -: ﴿فَقَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لِمَا كَانُوا يَحْضُرُونَ﴾ (٣) حول الخبر إلى الكناية التي في آخر الأعناق" (٤).

الكناية في ضوء هذا المعنى هي ما ينوب عن المضمرة - أي إضمار (الكفار) وظهور الضمير (هم): ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾، والتقدير: (أعناق الكفار)، ولما كان الضمير سترأ لكلمة الكفار أطلق عليه أبو عبيدة لفظ الكناية.

ويقول: "ومن مجاز ما جاء من الكنايات في موضع الأسماء بدلاً منهن قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا﴾ (٥) فمعنى ﴿مَا﴾ معنى الاسم، مجازة: إن صنيعهم كيد ساحر" (٦).

- (١) سورة يس، من الآية: ٨.
- (٢) معاني القرآن: ٢ / ٣٧٢.
- (٣) سورة الشعراء، الآية: ٤.
- (٤) مجاز القرآن: ١ / ١٢.
- (٥) سورة طه، من الآية: ٦٤.
- (٦) مجاز القرآن: ١ / ١٥.

إنّ (ما) كناية عن الصنيع، حسب مفهوم الكناية عنده، أي هي التي نابت في الآية عنه وحذت محلّه، وقد أضمر فصارت علامة له. والأشياء نفسه في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ (١) - إذ ﴿يَا أَيُّهَا﴾ كناية عن المفعول ذكرت عوضاً عنه وقامت مقامه (٢). ويكشف أبو عبيدة عن المكنى عنه في دراسته لطائفة من الآيات مثل قوله - تعالى -: ﴿أَوْجَاهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِبِ﴾ يقول: " كناية عن حاجة ذي البطن " (٣) - وفي قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ نَسْئَلِ الْمَاءَ﴾ " كناية عن الغشيان " (٤) - وقال في قوله - تعالى -: ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (٥) كل من رجع عما كان عليه، فقد رجع على عقبه " (٦) - وفي قوله - تعالى -: ﴿فَأَصْحَابُ بَيْتِ كَتَيْبَةَ عَلَى مَا أَنْفَقُوا فِيهَا﴾ (٧) أي فأصبح نادماً، والعرب تقول ذلك للنادم: أصبح فلان يقلب كتبه نادماً وتلهفاً على ذلك، وعلى ما فاته " (٨) - وقال في قوله - تعالى -: ﴿مَنْ يَأْسُ لَكُمْ﴾ (٩) - يقال لامرأة الرجل: هي فراشه، ولباسه، وإزاره، ومحلّ إزاره " (١٠) - إنّ الكناية بالمعنى النحوي هو الاستعمال الأساس عند أبي عبيدة وعند الفقهاء كذلك، أي أنها تؤدي مفهوماً نحويّاً لا بلاغياً بوصفها وسيلة تعبير تصويرية، أو تركيبيّاً يشكل مجموعة إشارات لغوية تدل على مدركات نندقل بواسطتها إلى المعنى المطلوب إذ إنّ مفهوم الكناية عندهما يفيد أنها إحدى وسائل لغة القرآن الفنية.

إنّ المعنى البلاغي للكناية نجده يتضح ويتعمق عند الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) فهو قد وقف عند الكناية وقفات متعددة، تحدث فيها عن هذه الطريقة في التعبير العربي بشكله الفني، حديثاً يحدّد معناها البلاغي الذي ارتآه علماء البيان بعده. فقد ذكر أمثلة مختلفة للكناية بنوعها: القريبة والبعيدة.

(١) سورة الفاتحة، من الآية: ٥.

(٢) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ٢٤.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ١٥٥.

(٥) سورة آل عمران، من الآية: ١٤٤.

(٦) مجاز القرآن: ١ / ١٠٤.

(٧) سورة الكهف، من الآية: ٤٣.

(٨) مجاز القرآن: ١ / ٤٠٤.

(٩) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(١٠) مجاز القرآن: ١ / ٦٧.

وقد أفرد الجاحظ للكناية باباً في كتابه (الحيوان) سمّاه (باب من الفطن وفهم الرطانات والكنيات) (١). ومما أورده في هذا الباب قوله: "أخبرني شيخ من بني العنبر قال: أسر بنو شيبان رجلاً من بني العنبر، قال: دعوني حتى أرسل إلى أهلي ليفدوني، قالوا: على ألا نكلم الرسول إلا بين أيدينا، قال: نعم، قال: فقال للرسول: انت أهلي فقل: إن الشجر قد أورك، وقل: إن النساء قد استنكت وخرزت القريتم قال له: انطلق إلى أهلي فقل لهم: عزوا جملي الأصهب، واركبوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري - وكان حارث صديقاً له - فذهب الرسول فأخبرهم، فدعوا حارثاً فقصّ عليه الرسول القصة فقال: أما قوله: "إن الشجر قد أورك" فقد تسلح القوم، وأما قوله: "إن النساء قد استنكت وخرزت القرب" فيقول: "قد أخذت الشكا وخرزت القرب للغزو، وأما قوله: "عزوا جملي الأصهب" فيقول: ارتحلوا عن الصّمان، وأما قوله: "اركبوا ناقتي الحمراء" فيقول: انزلوا الدهناء. وكان القوم قد تهيئوا لغزوهم، فخافوا أن ينذرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون، فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم" (٢).

وهذا النص يشهد باستعمال الجاحظ لمصطلح الكناية حسب معناه اللغوي، لكنه في الوقت نفسه مرتبط بمعناه البلاغي ومندرج تحت المفهوم العام لهذه الوسيلة التعبيرية، لأن الكنايات في النص:

- ١ - ستر للمعنى المراد.
  - ٢ - استعمال الألفاظ يريد بها المتكلم لازم معناها، لا معناها الذاتي المباشر.
  - ٣ - تحتمل أن تكون حقيقة من جهة أنها استعمال حقيقي للألفظ، ومجازاً من حيث تعبيرها عن معنى آخر قريب من المعنى المقصود وذي علاقة دلالية به.
- وكذلك نلاحظ أن الجاحظ وعي نوعين من الكناية هما: (القريبة والبعيدة) وقد أشار إليهما أكثر علماء البلاغة بعده حين قسّموها إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: "أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه" (٣). والبعيدة هي "أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بواسطة لوازم متسلسلة" (٤).

(١) الحيوان: ٣ / ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ١٢٤-١٢٥.

(٣) مفتاح العلوم، السكاكي، ص ١٩٠.

(٤) نفسه، ص ١٩٠-١٩١.

قال الجاحظ: " قالوا: حَيِّدًا الوَضْحُ، والوضح كناية عن البياض، والبياض كناية عن البرص، وأوضح الخليل: ما فيها من البياض " (١)، إذ يصح عدُّ هذا المثال من الكناية القريبة، إذ انتقلنا من الوضح إلى البرص، لا يقتضي مدًا عملية ذهنية بعيدة التدرج من اللازم إلى الملزوم.

وتجد وعي الجاحظ بالكناية البعيدة في أمثلة لم يتوخَّ مذهب أصحابها ستر المعنى، الذي ترقَّعوا عن التعبير عنه بشكل مباشر، وإدما تخيَّلوا وعبروا عن تخيلهم بلاغة مبدعة سهَّبة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " هذا عدوٌّ شديدٌ كلبُهُ، قليلٌ سَلْبُهُ " (٢)، فالانتقال من اللازم (المعنى المكنى به) إلى الملزوم (المعنى المكنى عنه) لا يتم في قول عمر إلا بتلطف وإعمال فكر، لأن الكلب يستدعي في ذهننا ضراوة الحيوان وشدته الناتجتين عن الداء الذي أصابه، ثم تنتقل من هذا الذي ندركه من الكلام بشكل مباشر إلى المعنى المرتب عليه الخاضع لظروف الخطاب، وهو أن عمر وصف العدو بداء الكلب أو جنونه، ومعناه أنه شديد قاسٍ، وربما لا نحتاج إلى هذا الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى المراد، عبر معنى ضمني في قوله: " قليل سلبه ". لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، سواء فيما يتعلق بالكلب أو السلب، بل يتعداه إلى كناية بعيدة أرادها عمر، وهي تهيء عن أن يتعرَّض المخاطب إلى هذا العدو أو يحاربه، لأن حربه شديدة وغنامته قليلة (٣) وقد أدرك ذلك الجاحظ قائلًا: " فذهي كما ترى عن التعرُّض لهم، بأحسن كناية " (٤).

والكناية عند الجاحظ أسلوب تقتضيه الضرورة، فهو عنده أبلغ من التصريح إذا كان التصريح لا يحسن، أو كان متعذرًا، والتصريح أبلغ إذا كانت الكناية لا تفي بالغرض، يقول في ذلك " وقال بعض أهل الهند: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة " (٥).

(١) البرصان والعرجان، ص ٩٤.

(٢) رسائل الجاحظ: ١ / ٧٦.

(٣) ينظر: الرؤية البيانية عند الجاحظ، إدريس بلمليح، ص ٢٢٥- ٢٢٦.

(٤) رسائل الجاحظ: ١ / ٧٦.

(٥) البيان والتبيين: ١ / ٨٨.

وبذلك فإن الجاحظ يسلك في دراسة أسلوب الكناية مسالك مختلفة مع تبيين قيمتها التعبيرية، ومواقع صلاحيتها وعدم صلاحيتها في الاستعمال اللغوي (١).  
أما ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فقد خصص في كتابه (تأويل مشكل القرآن) باباً سماه (الكناية والتعريض) وقد أطل الحديث فيه عنهما. والكناية عنده أنواع، ولها مواضع يقتضيها مقتضى الحال والسياق. قال: "والكناية أنواع، ولها مواضع، فمنها أن تكني عن اسم الرجل بالأبوة لتريد في الدلالة عليه إذا أنت راسلته، أو كتبت إليه، إذ كانت الأسماء قد تنفق، أو لتعظمه في المخاطبة بالكنية، لأنها تدل على الحنكة وتُخبر عن الاكتهال" (٢).  
فالكناية عنده ذات مدلول لغوي، بمعنى عدول عن لفظ إلى آخر نال عليه لآظهار المعنى بما يليق بزيادة في الدلالة وتعظيماً للمخاطب.

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة لم يقدم إلا مفهوماً لغوياً للكناية إلا أنه عرض لكثير من شواهدا وبخاصة الكنايات القرآنية وحللها تحليلاً يدل على أنه كان يعي وظيفتها وقيمتها في التعبير عن المعاني. قال في قوله - تعالى - ﴿ وَبَابُكَ قُلُوبٌ ﴾ (٣) أي طهر نفسك من الذنوب، فكنى عن الجسم بالذباب، لأنها تشتمل عليه " (٤) وقال في قوله - تعالى - ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَخَلَقْنَا مِنْ لَدُنَّا مَنْ كُنَّا قَتِيلِينَ ﴾ (٥) قال (قنادة) و (الحسن): اللهوه المرأة: وقال ابن عباس: هو الولد.

والتفسيران متقاربان، لأن امرأة الرجل لهوه، وولده لهوه، ولذلك يُقال: امرأة الرجل وولده ربحانته. وأصل اللهو: الجماع، فكُنِّي عنه باللهوه، كما كُنِّي عنه بالسر، ثم قيل للمرأة لهوه لأنها تُجامع" (٦).

وقال في قوله - تعالى - ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (٧) أي يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المُعطي بيده يمدّها ويبسطها بالعطاء، فقيل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده. ومنه قوله - تعالى - ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَا اللَّهُ مَعَاذَ اللَّهِ لَعَلَّ أَيْدِيَهُمْ وُلُوعًا وَإِنَّمَا قَالُوا ﴾ (٨) أي: مُمَسِكَةً. ومنه

(١) ينظر: البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، ص ٦٨.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٥٦.

(٣) سورة المدثر، الآية: ٤.

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤٢.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٧.

(٦) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٢-٢٦٣.

(٧) سورة التوبة، من الآية: ٦٧.

(٨) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.

قوله - تعالى -: ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ أَجِيبًا يَهُودًا ﴾ (١) أي: ندبوا من الهلاك. وأصل هذا: إن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد فحاصره فقد دنا أهله من الهلكة (٢).

وذكر (التعريض) وعده لونا من ألوان الكناية، وقال فيه: "والعرب تستعمله في كلامها كثيراً، فتبلغ إرادتها بوجه هو اللفظ وأحسن من الكشف والتصريح" (٣) وضرب له أمثلة قرآنية، فمن ذلك ما خبر الله ﷺ من نبي الخَصَم: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيَّ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَكُنْ بِمَضْجَعِكَ بَعْضُ فِئْتِنَانِنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَنْطَلِقْ أَمَدُنَا إِلَى سَوَاكِهِمُ الصِّرَاطِ ﴾ (٤) إن هذا آخى لهم يسمع ويسمعون نعمة ولي نعمة واحدة فقال أكفيناها وعزني في الخطاب (٥) إنما هو مثل ضربه الله ﷺ ونبيه علي خطيبته به. وورى عن النساء بذكر النعاج، كما كنى الشاعر عن جارية بشاة، وكنى الآخر عن النساء بالقوقل (٦).

ومن التعريض قوله - تعالى -: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴾ (٦) أراد: بل فعله الكبير، إن كانوا ينطقون فسلوهم، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي إن كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يعقل ولا ينطق (٧).

ويقدم أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) في كتابه (الكامل) دراسة عن الكناية أدرجت بالتصنيف العلمي.

يقول المبرد: "والكلام يجري على ضروب، فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يُكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلاً، فيكون أبلغ في الوصف" (٨) وقسم الكناية ثلاثة أقسام، قال: "والكناية تقع على ثلاثة أصناف، أحدها: التعمية والتغطية، كقول النابغة الجعدي:

أَكْنِي بِغَيْرِ اسْمِهَا وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ حَقَائِقَ كُلِّ مُكْتَبِمٍ (٩)  
الكناية في هذا الضرب تعني الستر وعدم التصريح (أكني بغير اسمها).

(١) سورة يونس، من الآية: ٢٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ٢٦٧.

(٣) نفسه، ص ٢٦٣.

(٤) سورة ص، الأيتان: ٢٢، ٢٣.

(٥) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٦، ٢٦٧.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٧) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٨.

(٨) الكامل: ٢ / ٢٤٠.

(٩) نفسه: ٢ / ٢٩٠.

أما الضرب الثاني، وهو الضرب الأحسن عند المبرد: "ويكون من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، قال الله - وله المثل الأعلى -: ﴿أَيْلَ لَكُمْ يَلَّةَ الصَّيَاحِ الرَّفْثِ إِنِّي فَسَّيْتُكُمْ﴾ (١) - وقال: ﴿أَوْلَمَسُّمُ الْإِنْسَاءِ﴾ والملامسة في قول أهل المدينة - سالك وأصحابه - غير كناية، إنما هو اللَّمَسُ بعينه كذلك قولهم في قضاء الحاجة: جاء فلان من الغائط، وإنما الغائط الوادي، وقال الله ﷻ في المسيح بن مريم وأمه (صلى الله عليهما): ﴿كَانَا يَا كَلْبَانَ الْفَلَكَمَاءِ﴾ (٢) وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة. وقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لِمَجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ (٣) وإنما هو كناية عن الفروج " (٤).

واستحسان المبرد لهذا الضرب من الكناية راجع إلى أنه يستر اللفظ الخسيس المعير عن معنى يدل عليه غيره، وهذا في حد ذاته يمثل محاولة من المبرد لدراسة الكناية دراسة تقوم على الموازنة بين دوافعها.

والضرب الثالث من الكناية: (التفخيم والتعظيم)، ومنه اشتقت (الكنية) وهو أن يُعْظَم الرجل من يُدعى باسمه، ووقعت في الكلام على ضربين:

"وقعت في الصَّبِيِّ على جهة التَّفَاوُلِ، بأن يكون له ولد ويُدعى بولده كناية عن اسمه، وفي الكبير أن يُنادى باسم ولده صيغةً لاسمه" (٥). وتعني الكناية ستر الاسم وإخفائه وهو يقوم على المفهوم اللغوي وهو الكنية.

وعلى الرغم من أن المبرد لم يعرف الكناية تعريفاً اصطلاحياً، إلا أنه في دراسته لها حاول فيها الموازنة بين ضروريتها المتفاوتة بين حسن وأحسن، وأول من حاول تقسيمها إلى ثلاثة أضرب، وإن كان هذا التقسيم لا يرجع إلى تقسيم الجنس إلى أنواعه، وإنما هي ضروريات لما تؤديه الكناية من فائدة في صناعة الكلام (٦).

وتدسم دراسة البلاغة بطابع التخصص عند ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) في كتابه (البديع) وتصبح الكناية عنده واحدة من محاسن الكلام والشعر فقال: "ومنها - يقصد

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٧٥.

(٣) سورة فصلت، من الآية: ٢١.

(٤) الكامل: ٢ / ٢٩١ - ٢٩٢.

(٥) نفسه: ٢ / ٢٩٢.

(٦) ينظر: علم البيان، د. بدوي طيبة، ص ٢٣٥، وينظر: الأسلوب الكفائي نشأته تطوره بلاغته، د. محمود السيد شيخون، ص ٩.

محاسن الكلام - التعريض والكناية. قال علي لعقيل، ومعه كبش له: أحد الثلاثة أدمق. فقال عقيل: أما أنا وكبشي فعقلان. وكان عروة بن الزبير إذا أسرع إليه إنسان بسوء لم يُجبه ويقول: إني لأتركك رفعاً لنفسي عنك، فجرى بينه وبين علي بن عبد الله بن عباس كلام فأسرع عروة بسوء فقال: إني لأتركك لما تترك الناس له فاشتد ذلك على عروة.

وقال بعض ولد العباس بن محمد لابنه: يا ابن الزانية، فقال: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَكْفِيهَا إِلَّا ذَانِ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ (١) ﴿٢﴾ ج " (٣) - مُضْمِنًا الآية الكريمة على سبيل التعريض.

وما ذكره ابن المعنر من أمثلة هي أدخل في التعريض منها في الكناية وإن كانت العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص، إلا أن فضله - على الرغم من أنه لم يقدم تعريفاً للكناية - يتمثل في أنه أوقف كتابه على موضوع البلاغة خلافاً لمن قبله كالجاحظ والمبرد اللذين اتسقت دراسة الكناية عندهما بسمه لغوية حيث أريد بها غالباً (الستر والخفاء) ولكنها لم تخل من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحي للكناية فيما بعد.

ووقف ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تفسيره على كثير من الكنايات القرآنية، وأشار إلى المكنى به والمكنى عنه فيها، وهو يعزز ما يذهب إليه أهل التأويل فيها. قال - تعالى - في الآية الكريمة: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاحِ الرَّفْتِ إِلَىٰ يَسَاقِبِكُمْ﴾ ، فأما الرفت فإنه كناية عن الجماع في هذا الموضوع يمثل الذي قلنا في تأويل الرفت قال أهل التأويل " (٤).

وقال في قوله - تعالى - : ﴿مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُمْ﴾ كما قال نابغة بن جعدة: إذا ما الضجيج ثنى عطفها تداعت فكانت عليه لباساً  
ويروي: (تثنت)، فكنى عن اجتماعهما متحدرين في فراش واحد باللباس، كما يُكنى

بالثياب عن جسد الإنسان (٤).

وقال في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦) يعني - تعالى ذكره - بذلك: ولا يأكل بعضكم مال بعض

(١) سورة النور ، من الآية : ٣ .

(٢) سورة النور ، من الآية : ٣ .

(٣) البديع ، ص ٦٤ .

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٩٤ / ٢ .

(٥) نفسه: ٩٤ / ٢ .

(٦) سورة البقرة ، الآية: ١٨٨ .

بالباطل، فجعل - تعالى ذكره - بذلك أكل مال أخيه بالباطل كالأكل مال نفسه بالباطل. ونظير ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (١). وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) بمعنى لا يلزم بعضهم بعضاً، ولا يقتل بعضهم بعضاً - لأن الله تعالى ذكره - جعل المؤمنين أخوة، فقتل أخيه كقتل نفسه، ولا مزه كلامه نفسه.

وكذلك تفعل العرب، تُكنى عن أنفسها بأخوانها، وعن أخوانها بأنفسها فتقول: أخي وأخوك أينا أبطش، تعني: أنا وأنت تصطرع، فننظر أينا أشد، فيكنى المتكلم عن نفسه بأخيه، لأن أخا الرجل عندها كنفسه " (٣).

وقال في الآية: ﴿ وَإِن يَمُنُّوا بِكُفْرِهِمْ لَأَنْتَ مُنْهَزِمٌ بِحَوْلِ ظَهْرِهِ إِلَىٰ جِهَةِ الطَّالِبِ، هَرَبًا إِلَىٰ مَلْجَأٍ وَمَوْلٍ يَنْتَلِيهِ مِنْهُ، خَوْفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَالطَّالِبِ فِي أَثَرِهِ، فَدَبِيرُ الْمَطْلُوبِ - حِينِيذٌ - يَكُونُ سِحَازِي وَجْهَ الطَّالِبِ الْهَازِمَةَ " (٤).

ويذكر ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨ هـ) في كتابه (العقد الفريد) عدداً من الكنايات القرآنية في الباب الذي خصصه للكناية والتعريض والذي أورد فيه أنواعاً منهما، فقال: "باب الكناية والتعريض: من أحسن الكناية اللطيفة التكنية عن المعنى الذي يقبح ظاهره وقد كنى الله - تعالى - في كتابه عن الجماع بالملامسة، وعن الحدث بالغائط فقال - تعالى -: ﴿ أَوْجَعَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ والغائط: الفحص وجسه غيطان. ﴿ وَقَالُوا مَا لَئِنِ الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ... ﴾ (٥) وإنما كنى به عن الحدث. وقال - تعالى -: ﴿ وَأَضْمَمْتُمْ يَدَكُمْ إِلَىٰ جَنَابِكُمْ فَخَرَجَ مِنْكُمْ بِيَعْتَةٍ مِّنْكُمْ ... ﴾ (٦) فكنى بالمشوء عن البرص " (٧).

وأردف ابن عبد ربّه هذا الباب بيباب: (الكناية يُورى بها عن الكذب والكفر)، وذكر له شواهد هي من التورية أو الإيهام والتضليل المتعمد المقصود وليس من الكناية، من ذلك: "ولما ولي الواثق وأقعد للناس أحمد بن أبي دؤاد للمحنة في القرآن ودعا إليه الفقهاء، أتى

(١) سورة الحجرات ، من الآية: ١١.

(٢) سورة النساء ، من الآية: ٢٩.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٤ / ١٠٦ - ١٠٧.

(٤) سورة آل عمران ، من الآية: ١١١.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن: ٤ / ٣١.

(٦) سورة الفرقان ، من الآية: ٧.

(٧) سورة طه ، من الآية: ٢٣.

(٨) العقد الفريد: ٤ / ٤٦٢ - ٤٦٣.

فيهم بالحارث بن مسكين، فذيل له: أذشهد أن القرآن مخلوق؟ قال: أشهد أن التوراة والانجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومد أصابعه الأربع، فعرض بها وكنى عن خلق القرآن، وحلص مهجته من القتل وعجز أحمد بن نصر - فقيه بغداد - عن الكناية فلهاها فقيل و"صَلْب" (١).

وأمثلة هذا الباب كأمثلة الباب - أيضاً - الذي جاء به بعنوان: الكناية عن الكذب في طريق المدح " فهي من التورية والإيهام وليس من الكناية، من ذلك الذي أورده: " ودخل على عيسى بن موسى وعنده ابن شيرمة، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ - وكان رُمي عنده بريية - فقال: إن له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلّى سبيله. فلما انصرف ابن شيرمة، قال له أصحابه: أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرفت أن له بيتاً يأوى إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرفه: أذناه ومنكباه " (٢)، وأردف هذا كله بيباب: " الكناية والتعريض في طريق الدعابة "، قال فيه: " سئل ابن سيرين عن رجل، فقال: توفي البارحة، فلما رأى جَزَع السائل، قال: ﴿ اللَّهُ تَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَابِعِهَا ﴾ (٣) وإنما أردت بالوفاة: النوم " (٤).

وبذلك خلط ابن عبد ربّه بين الكناية والتورية. ولم يدخل في باب الكناية إلا ما ذكره من آيات قرآنية كريمة.

ثم نجد أسلوب الكناية يتطور من مفهومه اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحي عند قدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) في كتابه (نقد الشعر)، وهو أول من عرفها باسم (الأرداف) ولم يسمها كناية، وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى. قال: " ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع " (٥).

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٤٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٣) سورة الزمر، من الآية: ٤٢.

(٤) العقد الفريد: ٧ / ٤٦٧.

(٥) نقد الشعر، ص ١٥٧.

وهذا التعريف للأرداف هو تعريف (الكناية) عند الدارسين بعده كأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) (١) وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) (٢) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) (٣) وغيرهم (٤) والشواهد التي سلفها للأرداف هي من شواهد الكناية عند البلاغيين.

ثم يحاول قدامة أن يجلي هذا التعريف للأرداف بأبيات شعرية يبين فيها المعنى الذي ينطوي تحت هذا الفن، من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدةً سهوى القرط إمّا لنوف لأبوها وإمّا عبدُ شمس وهاشم  
يقول: " وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد، وهو يعد سهوى القرط " (٥).

ويقول في بيت امرئ القيس:

ويضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضل  
وإنما أراد أن يذكر ترفه هذه المرأة وأن لها من يكفيها فقال: " نؤوم الضحى " وأن فتيت المسك يفتى إلى الضحى فوق فراشها، وكذلك سائر البيت أي هي لا تنطق لتخدم ولكنها في بيتها متفضلة " (٦).

وتكاد الدراسة التي قام بها قدامة بشواهدنا نجدها في دراسة الكناية عند من جاء بعده.

وقد أشار قدامة إلى الوسانطين المكنى به والمكنى عنه وأثرها في وضوح المعنى وغموضه، قال: " ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذكر الردف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف أخرى، كأنها وسائط وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر الانغلاق وتعذر العلم بمعناه " (٧).

- (١) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٠.
- (٢) سر القصاحة ، ص ٢٢١.
- (٣) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٥.
- (٤) العمدة: ١ / ٣١٣ - ٣١٤ مثلاً.
- (٥) نقد الشعر ، ص ١٥٧ - ١٥٨.
- (٦) نفسه ، ص ١٥٨.
- (٧) نقد الشعر ، ص ١٥٩.

وفي ضوء هذه الوسائط التي أشار إليها قدامة يؤسس البلاغيون المتأخرون - خاصة - معياراً لجودة الكناية ورداءتها، ومصطلحات توصف بها الكناية بحسب تلك الوسائط كالتلويح والرمز والإيماء والإشارة (١).

وبذلك يُعدّ قدامة أول من أعطى التعريف الاصطلاحي لفن الكناية، مَجاوِزاً بذلك الدراسات السابقة عليه والتي كادت لا تتجاوز المفهوم اللغوي للكناية.

أما أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فنجدّه يفرّق بين المفهوم اللغوي للكناية ومفهومها الاصطلاحي، إلا أنها موزعة بين عدة مصطلحات هي: (الكناية، والتعريض، والأرداف، والمماثلة) (٢).

ويعرّف الكناية والتعريض - وكانهما شيء واحد عنده - بقوله: "وهو أن يُكنى عن الشيء ويعرّض به ولا يصرّح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء، كما فعل الغنّيري إذ بعث إلى قومه بصرة شوّك وصرة رمل وحنظلة يريد: جاءكم بنو حنظلة في عدد كثير كثره الرمل والشوك" (٣).

مفهوم الكناية هنا مفهوم لغوي، ويعني: السرّ والخفاء. ومن الشواهد القرآنية التي أوردها لها، قوله - تعالى -: ﴿أَرْجَاةٌ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِبِ﴾ قال: "فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع" وقوله - تعالى -: ﴿وَفَرُّشٍ مَرْمُوعَةٍ﴾ (٤) قال "كناية عن النساء" (٥).

في حين نجد التعريف الاصطلاحي للكناية في تعريفه للأرداف كما عرّفه قدامة من قبل، قال أبو هلال: "أن يُريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو رُفْهُ وتابَع له، فيجعل عبارة عن المعنى الذي أراده" (٦).

ومن الشواهد القرآنية التي أوردها، قوله - تعالى -: ﴿فِيهِمْ قَصِيرَةٌ الْكَرْفِ﴾ (٧) قال: "وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التواضع والأرداف، وذلك أن

(١) ينظر: مفاتيح العلوم، ص ١٩٤، وستكلم عليها بالتفصيل في موضعها.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين، ص ٣٥٠ - ٣٧٠.

(٣) نفسه، ص ٣٦٨. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب: ٣ / ١٥٧.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٣٤.

(٥) كتاب الصناعتين، ص ٣٦٨.

(٦) كتاب الصناعتين، ص ٣٥٠. وينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧، للمقارنة.

(٧) سورة الرحمن، من الآية: ٥٦. وينظر: سورة الصافات، الآية: ٤٨، وسورة ص، الآية: ٥٢.

المرأة إذا عَفَّتْ طَرَفَهَا عَلَى زَوْجِهَا، فَكَانَ قَصُورَ الطَّرْفِ رِذْفًا لِلْعَقَافِ، وَالْعَقَافُ رِذْفٌ وَتَابِعٌ لِقَصُورِ الطَّرْفِ " (١).

كذلك نجد صوراً من الكناية عند العسكري في فصل (المماثلة) وقد عرّفها بقوله: " المماثلة: أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظ يكون موضوعاً بمعنى آخر، إلا أنه ينبيه إذا أورده عن المعنى الذي أراده، كقولهم: " فلانٌ نقيّ الثوب "، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع نقاب الثوب البراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً " (٢).

وأورد للمماثلة شواهد من القرآن الكريم منها قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٣) قال: " فمدّل البيذيل الممتنع من البيذل بالمغلول، لسعنى يجسمها، وهو أن البيذيل لا يمدُّ يده بالعطية فشبهه بالمغلول " (٤)، وقوله - تعالى - : ﴿ كَأَنِّي تَقَصَّصْتُ مَرْثِيهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا ﴾ (٥)، قال: " فمدّل العمل ثم إحباطه بالنقض بعد الفتل " (٦). وقوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ (٧) وأورد قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا لَآيٌ لِّمَنْ قَسَعَ وَيَسْعُونَ تَجْمَةً وَلِي تَجْمَةٍ وَجِدَةٍ ﴾ (٨) وهو ليس من باب المماثلة، وإنما هو كناية عن موصوف (النساء)، أي: كذى بالنعاج عن النساء ولم يَدَّضِحْ في هذه الكناية التمثيل. فهو قد خلط بينهما كما خلط الكناية بالتعريض إلى حدٍّ لم يذّبين القارئ ما يراه العسكري كناية وما يراه تعريضاً (٩).

وهذا الخلط في المصطلحات نجده عند ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) أيضاً في دراسته للكناية وقد جعلها في باب المجاز وباب الأشارة.

في باب المجاز يقول: " وكذلك الكناية في مثل قوله **بِحَبَابِ** أخباراً عن عيسى ومريم - عليهما السلام - : ﴿ كَأَنَا يَا كَلْبَانَ أَلْعَلَمَاءُ ﴾ (١٠). كناية عما يكون عنه من حاجة

(١) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٠.

(٢) نفسه ، ص ٣٥٣. وقارن بقدماءة في نقد الشعر ، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) سورة الاسراء ، من الآية: ٢٩.

(٤) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٤.

(٥) سورة النحل ، من الآية: ٩٢.

(٦) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥٤.

(٧) سورة النحل ، من الآية: ٩٤.

(٨) سورة ص ، من الآية: ٢٣.

(٩) ينظر: كتاب الصناعتين ، ص ٣٦٨.

(١٠) سورة المائدة ، من الآية: ٧٥.

الانسان، وقوله - تعالى - حكاية عن آدم وحواء - صلى الله عليهما -: ﴿ قَلَمًا نَقَشْنَا ﴾ (١)  
كناية عن الجماع (٢).

ثم يذكر الكناية في باب الإشارة، والإشارة عنده تشمل عدة مصطلحات أغلبها يندرج تحت مفهوم الكناية الاصطلاحي مثل: (التفخيم والإيماء والتعريض والتلويح والكناية والتمثيل والرمز والمحة والتورية والتتبع).

والتتبع عنده الاراداف عند قدامة بن جعفر، قال ابن رشيقي: " ومن أنواع الإشارة التتبع، وقوم يسمونه التجاوز، وهو: أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوز، ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه، وأول من أشار إلى ذلك عمرو القيس يصف امرأة: ويضحى فتبت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل فقوله: " يضحى فتبت المسك " تتبع، وقوله " نؤوم الضحى " تتبع ثان، وقوله " لم تنتطق عن تفضل " تتبع ثالث، وإنما أراد أن يصفها بالترفة، والنعمة، وقلة الامتهان في الخدمة، وأنها شريفة مكفية المونة، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة " (٣).

ونجد المعنى اللغوي للكناية عنده في التورية التي يقول فيها: " وأما التورية في أشعار العرب فإدما هي كناية: بشجرة، أو شاة، أو بيضة، أو ناقة، أو مهرة، أو ما شاكل ذلك كقول الممتب بن علس:

دعا شجر الأرض داعيهم لينصرة السدر والأثاب

فكنى بالشجر عن الناس، " يقولون في الكلام المنثور: جاء فلان بالشوك والشجر، إذا جاء بجيش عظيم " (٤).

وأكثر ما أورده من شواهد للتورية هو من الكناية، من ذلك إرادته لقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْعَ وَيَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَجَدَّةٌ ﴾ قال: " كناية بالنعجة عن المرأة " (٥). ويبدو أن المعنى اللغوي للتورية والكناية الذي يشتركان فيه وهو (الستر والخفاء) هو الذي جعل ابن رشيقي وغيره يخالط: بينهما ويسمي أحدهما بالأخر (٦).

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٩.

(٢) العمدة: ١ / ٢٦٨.

(٣) نفسه: ١ / ٣١٣-٣١٤.

(٤) العمدة: ١ / ٣١١.

(٥) نفسه: ١ / ٣١٢.

(٦) ينظر، ص ٤٦ من: (الهامش).

وعقد ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) في كتابه (سر الفصاحة) دراسة للكناية امتازت بالعمق والتحليل الأدبي لها لتجلية قيمتها التعبيرية والجمالية من خلال موازنتها مع غيرها من التعابير في حدود النصوص التي تناولها.

### وهو قد درس الكناية في موضعين:

الأول: تحت اسم الكناية، وذلك في دراسته للأجناس التي يجب فيها وضع الألفاظ موضعها، قال: "ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يُكنى عنه في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة" (١).  
فالكناية عنده أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، والكناية أسلوب له مقامه وغرضه الذي يحسن فيه، والعدول عنه في المكان الذي يقتضيه يؤدي إلى فقدان الأسلوب الفصاحة والبلاغة. قال: "وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد التوارد يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل غرض فناً وأسلوباً" (٢).

ويورد ابن سنان مما يستحسن من الكنايات وما يستقبح منها، قال: "ومما يستحسن من الكنايات قول امرئ القيس:

فصيرنا إلى الحسنى ورقّ كلامن  
لأنه كنى عن المياضعة بأحسن  
ورضت فذلت صعبة أي إذلال  
ما يكون من العيلة.  
ومن هذا الفن أيضاً منت حسن الكناية قول أبي الطيب:  
تدعي ما ادعيت من ألم الشوق إليها والشوق حيث التحول  
لأنه كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية، وأضداد هذا من قبح العبارات قول أبي الطيب:

أني على شغفي بما في خمرة الأعف عما في سراويلاتها (٣)  
فالحسن عند ابن سنان في التعبير الكنائي أن يُكنى عن المعنى الذي لا يحسن في التصريح بألفاظ أخرى لا يدل ظاهرها عليه، والقبح عنده خلاف ذلك وهو التصريح باللفظ

(١) سر الفصاحة، ص ١٥٥، ١٥٦. وينظر: البيان والتبيين: ١ / ٨٨.

(٢) سر الفصاحة، ص ١٥٦.

(٣) سر الفصاحة، ص ١٥٦، ١٥٧.

المفحش كما فعل المتنبي. وهذا هو ما ذهب إليه الميرد من قيل في أن " من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره " (١).

كما نجد الكناية عند ابن سنان في نعوت البلاغة والفصاحة، وهو يتابع في هذا قدامة بن جعفر في التحليل والتعريف، قال: " ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يُؤتى بلفظ يدبغ ذلك المعنى ضرورة، فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يُسمى الازداف والتبذيع، لأنه يُؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه " (٢).

ويقدم الخفاجي أمثلة لهذا النوع من الكناية ويحللها تحليلاً يجلي فيه القيمة التعبيرية له، من ذلك تحليله لبنت عمرو بن ربيعة:

بعيدة مهوى القُرط إِمَّا نُوْفِلِ أَبُوهُمَا وَإِمَّا عِدْ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ

" فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق، فلو عبّر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال - طويلة العنق - فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له، فقال - بعيدة مهوى القُرط - فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله - طويلة العنق - لأن بعد مهوى القُرط يدل على طول أكثر من الطول الذي يدل عليه - طويلة العنق - لأن كل بعيدة مهوى القُرط طويلة العنق، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القُرط، إذا كان الطول في عنقها يسيراً، وهذا موضع يجب فهمه " (٣).

فهو يوازن بين التعبير لو جاء مصرحاً بطول العنق، والتعبير الكناني (بعيدة مهوى القُرط) لسببين قيمة التعبير الكناني والمبالغة التي يحققها مما لا نجده في التعبير الحقيقي الصريح.

ومثل هذه الموازنات تدلّ على نصح دراسته للكناية، من ذلك تحليله لبنت البحتري، قال: " ومن هذا الفن من الازداف قول أبي عبادة:

فَأَوْجَزُهُ فَأَضَلَّتْ تَصْلُحُ حَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرَّعْبُ وَالْحَيْدُ

(١) ينظر: ص ١٩ من:.

(٢) سر الفصاحة، ص ٢١٣، وقد الشعر، ص ١٥٧.

(٣) سر الفصاحة، ص ٢٢١.

لأنه أراد - القلب - فلم يعبر عنه باسمه الموضوع له، و عدل إلى الكناية عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه، وكان ذلك أحسن لأنه إذا ذكره بهذه الكنايات كان قد دل على شرفه وتميزه من جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه، وأنه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه، ولو قال - أصبته في قلبه - لم يكن في ذلك دلالة على أن القلب أشرف أعضاء الجسد، فعلى هذا السبيل يحسن الإرداف " (١)

ورغم هذا التحليل الذي يبين قيمة الكناية في التعبير عن المعنى، إلا أن الخفاجي يفصل بين الكناية والإرداف ولكل منهما موضعه الخاص به. والكناية عنده مقصورة على ما يستقبح ذكره من الألفاظ (٢) " وهذه النظرة في دراسة الكناية تعدّ غرضاً واحداً من أغراضها وليست هي مفهومها العلم، وهي نظرة لغوية تقوم على ستر ما يستقبح ذكره - من الكلام - وتضع الكناية في موضع ضيق محدود يفصل بينها وبين (الإرداف) الذي هو معناه الاصطلاحي عند البلاغيين " (٣)

وسبب ذلك راجع إلى أن الكناية عنده ذات معنى لغوي لستر ما يستقبح ذكره وأما الإرداف وهو المعنى الاصطلاحي، فهو عنده من النعوت، فعمر بن أبي ريبة ينعت صاحبه (يبعد سهوى القرط)، والبدري يصف القلب بأنه مكنن اللب والرعب والحقد، وأن في الإرداف من المبالغة في الوصف ما لا يكون في التعبير الصريح (٤)

إن دراسة الخفاجي للكناية مهّدت لمرحلة جديدة في دراستها، وذلك على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) الذي أفاد قائدة كبيرة من الدراسات السابقة له، خصوصاً ما قدمه الخفاجي في تحليلاته لأسلوب الكناية، وما قدّمه قدامة بن جعفر من قبل من حيث تحديد المفهوم الاصطلاحي للكناية وعدم الفصل بينه وبين المفهوم اللغوي.

خصص عبد القاهر الجرجاني فصلاً للفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره، قال فيه: " اعلم أنّ لهذا الضرب اتساعاً، وتفنناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شئنين: الكناية والمجاز. والمراد بالكناية ههنا: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو ناليه وردفه في

(١) سر الفصاحة، ص ٢٢٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٥٦ وما بعدها.

(٣) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين أحمد، ص ٣٥٤.

(٤) ينظر: الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص ٣٦.

الوجود، فيوسيه به إليه، ويجعله دليلاً عليه" (١). فهو يُعرّف الكناية كما عرّف قُدّامة الإرداف من قبله، إلا أن عبد القاهر يسميها الكناية.

وقد أورد عبد القاهر أمثلة لهذا النوع من الكناية وأفاض في التحليل لبيان قيمتها وبلاغتها وأثرها في تصوير المعنى المقصود. مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد"، يريدون طويل القامة، و " كثير رماذ القدر" يعنون كثير القرى، وفي المرأة: " نؤوم الضحى"، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها إذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى" (٢). ويقول في بيت الشاعر:

وما يكف في من غيب فأنجح بان الكلب مهزول الفصيل

" فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر ومما يقع في الاختيار لأجل أن أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكأن عن ذلك بجنب الكلب وهزال الفصيل، وترك أن يصرح فيقول: قد عرف أن جنابي مألوف وكنبي مؤذب لا يهر في وجوه من يغشائي من الأضياف، وإني أنحر المثالي من إيلي وأدع فصاليها هزلي" (٣).

وكما تحدث عبد القاهر عن الكناية بطريق الإرداف في إثبات الصفة، تحدث عن نوع ثانٍ من أنواع الكناية اصطلاح عليه بالكناية عن تسمية، وهو أول من تحدث عنه وحلّى أسرارها ودقته في التعبير (٤). يقول في هذا النوع من الكناية: " هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك بدت هناك حاسن تملأ الطرف، ودقائق تعجز الوصف، ورأيت هناك شعراً شاعراً، وسحراً ساحراً، وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المغلق" (٥). ثم يُفسر هذا الكلام بقوله: " وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم يرسمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكتون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٠٥. وللمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧.

(٢) نفسه، ص ١٠٥.

(٣) نفسه، ص ٢٩٧.

(٤) ينظر: الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، ص ١٥٢. وينظر: عبد القاهر الجرجاني، بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ص ١٥٨.

(٥) دلائل الإعجاز، ص ٢٩٦.

في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات.. " (١) ويورد عبد القاهر أمثلة كثيرة على هذا النوع من الكناية، من ذلك قول زياد بن الأعجم:

إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبَّةِ ضُحْرِبَتِ عَلِيِّ بْنِ الْحَشْرَجِ  
يبين عبد القاهر قيمة الكناية في البيت بتصويرها المعنى بطريقة حسية مؤثرة من خلال موازنته للبيت بما يقابله من معنى على سبيل التصريح.

ثم يقول: " وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه والإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة " (٢).

ومن هذا النوع أيضاً من الكناية (كناية عن نسبة) عنده ما ذكره في قوله: " ومما هو اثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم: المجد بين ثوبيه، والكرم في برديه، وذلك أن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه، كما توصل زياد إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلهما في القبة التي هو جالس فيها " (٣).

وكل ما ذكره عبد القاهر من شواهد سواء للكناية عن صفة أو الكناية عن نسبة دارت في كتب البلاغة بعده قاطبة ولم يكذب يخرج أحد عنها

إن قيمة الكناية في التعبير الأدبي عند عبد القاهر لا تنحصر في نطاق ضيق لا تخرج عن تغطية المعنى المستحشش كما رأينا عند ابن سنان مثلاً، وإنما هي وسيلة حيوية من التعبير لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال.

في الكناية معنى يقود إلى معنى مقصود من وراء الألفاظ والتراكيب وهو الذي سماه عبد القاهر " معنى المعنى " ومن خلاله وضح عبد القاهر قيمة الكناية وأثرها في إيصال المعاني في أشكال وصور متعددة، يقول عبد القاهر: " الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق. وعلى هذا

(١) نفسه، ص ٢٩٦.

(٢) نفسه، ص ٢٩٧.

(٣) نفسه، ص ٢٩٩.

القياس.. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثابته تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتَّمثِيل " (١)

ثمَّ قَدَّمَ عبد القاهر أمثلة للكناية والاستعارة والتَّمثِيل، موضحاً فيها " معنى المعنى " من ذلك أمثله على الكناية: " أولا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماذ القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: تؤوم الضحي، فإنك في جميع ذلك لا تبيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن بدل اللفظ على معناه الذي يوجه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من كثير رماذ القدر أنه مضيف، وإذا قد عرفت هذه الجملة، فيها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: المعنى، ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يقضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسرت لك " (٢)

إن " معنى المعنى " الذي لا يفهم من ظاهر اللفظ في أسلوب الكناية جعل البلاغيين يقسمون الكناية إلى قريبة وبعيدة، والقريبة إلى جلية وخفية، وذلك في ضوء الوسائط بين المكنى به والمكنى عنه ومدى قربها وبعدها أو ظهورها وخفائها. وقد تحدث عبد القاهر عن كل هذا بقوله: " وإذا كان ذلك كذلك علم علم الضرورة أن مصرف ذلك إلى دلالات المعاني على المعاني، وأنهم أرادوا من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالاته مستقلاً بوساطته، يفسر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ، وذلك لقلّة الكلفة فيه وسرعة وصوله إليك " (٣)

فالوسائط بين المكنى به والمكنى عنه عند عبد القاهر هي الروابط التي تربط بين المعاني الظاهرية للفظ والمعاني الخفية التي تتولد عنها، أو معنى المعنى كما يسميه عبد القاهر مما يجعل الصورة الكنائية متماسكة موحية بالمعاني بوصفها تعبيراً فنياً غير مباشر.

(١) دلالات الاعجاز، ص ٢٦٢.

(٢) نفسه، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) نفسه، ص ٢٦٦-٢٦٧.

وعلى كثرة ما أورد عبد القاهر الجرجاني من شواهد للكناية بنوعيتها التي ذكرها (كناية عن صفة، وكناية عن نسبة) كما اصطاح عليهما عند المتأخرين والتي دارت في كتبهم، إلا أنه لم يقف عند الكنایات القرآنية فيما ساق من أمثلة.

إلا أن الكناية القرآنية سنحطى بعناية كبيرة عند الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في تفسيره البلاغي للقرآن الكريم، يقول الزمخشري: "ولا يغوص على شيء من ذلك الحقائق - يقصد الحقائق التي تضمنها آيات القرآن - إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان" (١).

ولما كانت الكناية من فنون البيان فقد حظيت عنده بعناية كبيرة، وأشاد بكنایات القرآن الكريم في أكثر من موضع فقال: "... ولا ترى أحسن، ولا اللطف، ولا أحد للمفاصل من كنايات القرآن وأدابه" (٢) وقال: "وقوله: ﴿هُوَ أَدْنَىٰ مَا عَشَرُونَ أَلْفَ سَنَةٍ وَلَا تَقْرَبُوهَا حَتَّىٰ يَبْلُغُونَ فَإِذَا ظَهَرَ فَأْتَوْهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُسْتَظْهِرِينَ﴾ \* ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّكُمْ لَكُمْ فَأْتُوا حُرِّمًا أَنْ تَتَنَمَّوْا﴾ (٣)، من الكنايات اللطيفة، والتعريضات المستحسنة وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها، ويتأدبوا بها، ويتكلموا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم.. " (٤).

وهذه الكنايات القرآنية التي تهدف إلى التهذيب بتغطية المعاني المستفدشة بالألفاظ حسنة دالة على المعنى، قد وقف الزمخشري عندها كثيراً موازناً بين معانيها التي تقصدها.

قال في قوله - تعالى -: ﴿فَلَا رَفْقَ وَلَا سُوءَ﴾ (٥) فكنى به عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من شيء من ذلك (فإن قلت): لم كنى عنه ههنا بلافظ الرفق الدال على معنى الفرح، بخلاف قوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (٦) ﴿فَلَمَّا تَفَسَّنَا﴾ (٧) ﴿بَيْنَهُمْ﴾ (٨)، ﴿أَوَلَمْ نَسْئَمْ الْأُنثَىٰ﴾ (٩) ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ (١٠) ﴿فَأْتُوا حُرِّمًا﴾ (١١).

(١) الكشاف: ١٦ / ١.

(٢) نفسه: ٢٤١ / ٢.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٢، ومن الآية: ٢٢٣.

(٤) الكشاف: ٣٦٢ / ١.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٩٧.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٢١.

(٧) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٩.

(٨) سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْؤُرَهُنَّ ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ ﴾<sup>(٦)</sup> (قلت): استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، كما سماه اختياراً لأنفسهم. (فإن قلت) لم عدّ الرقت بالي<sup>(٧)</sup> (قلت): لتضمينه معنى الإفصاء لما كان الرجل والمرأة يعتقدان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه في عناقته شبه باللباس المشتمل عليه<sup>(٨)</sup> (٧).

والزمخشري قد ذكر الأنواع الثلاثة للكناية حسب المعنى المُكنى عنه، كما استقرت عند البلاغيين المتأخرين. وهذه الأنواع هي: الكناية عن صفة، والكناية عن موصوف، والكناية عن نسبة. والزمخشري وإن لم يسمها بما اصطلح عليه فيما بعد، إلا أنه عني بمفهومها ووجه جهوده نحو الكشف عن قيمتها البلاغية في التعبير القرآني. وبذلك فهو بضيف نوع (الكناية عن موصوف) التي لم يذكرها عبد القاهر الجرجاني الذي اقتصر على ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة.

فالكناية عن صفة نجدها عند الزمخشري في تفسيره لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿ وَأَحْبَطَ بِشَعْرِهِ فَأَصْبَحَ بَقِيَّةُ كَتَبِهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا ... ﴾<sup>(٨)</sup> قال: " وأحبط به عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله - تعالى -: ﴿ إِلَّا أَنْ يَخَاطَبَكُمْ ﴾<sup>(٩)</sup> ومثله قولهم: أتى عليه، إذا أهلكه، ومن أتى عليهم العدو: إذا جاءهم مستعلياً عليهم. وتقلب الكفين: كناية عن الندم والتدسر، لأن الندم يقاب كفيه ظهراً لبطن، كما كنى عن ذلك بعض الكف<sup>(١٠)</sup> والسقوط في اليد<sup>(١)</sup> ولأنه في معنى الندم عدّي تعديته بعلى، كأنه قيل: فأصبح يندم<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة النساء، من الآية: ٤٣، وسورة المائدة، من الآية: ٦.

(٢) سورة النساء، من الآية: ٢٣.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٣.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٧.

(٥) سورة النساء، من الآية: ٢٤.

(٦) سورة البقرة، من الآية: ٢٢٢.

(٧) يقصد قوله تعالى: ﴿ أَيْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ النِّسَاءِ أَلْزَفْتُ لَكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ مَنْ نِيسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ نِيسَ لَهُنَّ ... ﴾ سورة البقرة، من الآية: ١٨٧.

(٨) الكشف: ٣٢٨/١.

(٩) سورة الكهف، من الآية: ٢٤.

(١٠) سورة يوسف، من الآية: ٦٦.

(١٠) وورد في القرآن ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْآخِذُ ﴾ سورة آل عمران، من الآية: ١١٦. و ﴿ تَعَسَىٰ السَّعَاءُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

ونجد الكناية عن موصوف في تفسير لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُجْحِ وَوَمَسَّ﴾ (٣)، "أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتدوب منابها وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها" (٤).

ويقول في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيَدَيْنِنَا يَمْنَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ (٥)، كانت المرأة تلقت المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كذى باليهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً، لأن يطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين (٦).

والكناية عن النسبة نجدها عنده في تفسير لقوله - تعالى - مثلاً: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِتَحَرُّقٍ عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ (٧)، قال: "والجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه وناحيته، ثم قالوا: قرط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه، قال سابق البربري: أما تثقين الله في جنب وأما قلته كذباً حرى عليك تقطع وهذا من باب الكناية، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبتته فيه. ألا ترى إلى قوله:

إِنَّ السَّاحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبَّةِ ضُرْبَتْ عَلَىٰ ابْنِ الْحَسْرَجِ  
ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا: يريدون لأجلك.

وفي الحديث: ((من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل))، وكذلك فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل: ﴿قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ ، على معنى: قرطت في ذات الله" (٨).

ثم يزيد الكناية توضيحاً وبياناً بقوله: "فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كالأذكر سوى ما يعطي من حسن الكناية وبلاغتها، فكانه قيل: قرطت في الله، فما معنى في

(١) كما ورد في قوله تعالى: - جى ب ب ...جسورة الأعراف ، من الآية ١٤٩ .

(٢) الكشاف: ٢ / ٥٦٥ .

(٣) سورة القمر ، الآية: ١٣ .

(٤) الكشاف: ٤ / ٣٤٥ .

(٥) سورة الممتحنة ، من الآية ١٢ .

(٦) الكشاف: ٤ / ٤١٥ .

(٧) سورة الزمر ، من الآية ٥٦ .

(٨) الكشاف: ٤ / ٤٦٦ .

الله ؟ قلت: لايد من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك " (١).

إن أسلوب الكناية عند الزمخشري ذو مدلول أو سع مما نجده عند المتأخرين، وهذا شأن المتقدمين فإنهم انطلقوا نحو الدرس البلاغي من منطلق اللغة، ونحوها به نحواً أدبياً رحباً، إذ إن قضية الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومن الملزوم إلى اللازم التي أثارها البلاغيون الذين دخلوا دائرة العلمية الدقيقة من بعد الزمخشري كالسكاكي والقزويني، لم يلتفت الزمخشري إلى شيء منها، فللكناية أن تنتقل من أيهما شاعت، ففي الوقت الذي يرى السكاكي أن الكناية انتقال من اللازم إلى الملزوم يرى القزويني أن اللازم لايد من أن يكون ملزوماً في الكناية، وحينئذ يكون الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وهذا ما نجده في قول الخطيب القزويني: " وفرق السكاكي وغيره بينهما [ يعني الكناية والمجاز ] بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم، وفيه نظر لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم " (٢). فكما أن طول النجاد لازم لطول القامة هو ملزوم لها أيضاً، فيصح الانتقال في الحالتين.

يقول د. محمد أبو موسى: " وقد شغلت هذه المسألة أفلام الشراح بقدر ربما لم يكن في حاجة ماسة إليه، لأن الانتقال في الدلالات اللغوية لا يلتزم بهذه الدلالات المنطقية " (٣). والزمخشري لم يشغل بهذه المسائل المنطقية، وإنما انشغل ببلاغة الكناية في التعبير عن المعاني، يقول في قوله - تعالى -: ﴿ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ (٤). فإن قلت: ما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ قلت: إنهم إذا لم يأتوا بها وثبتين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لم يأتوا العناد ولمن يذقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فتركوا العناد، فوضع ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ موضعه لأن اتقاء النار لصيقه وضميمه ترك العناد، من حيث إنه من نتاجه، لأن من أتى النار ترك المعاندة، ونظيره أن يقول الملك

(١) نفسه: ٤ / ١٠٦.

(٢) الإيضاح: ٢ / ٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٣٧١.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٤.

لحشمه: إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي، يريد فأطيعوني واتبعوا أمري وأفعلوا ما هو نتيجة حذر السخط، وهو من باب الكناية التي هي شعبة من شعب البلاغة، وفائدته الإيجاز الذي هو من حلية القرآن، وتهويل شأن العناد بإنابة إتقاء النار منابه، وإبرازه في صورته مشيعاً ذلك بتهويل صفة النار وتفضيع أمرها " (١). فالانتقال هنا من اللازم (ترك المعاندة) إلى الملزوم (اتقاء النار) وترك المعاندة (لازم) لاتقاء النار.

وفرق الزمخشري بين الكناية والتعريض، فقال: " فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضيف.

والتعريض: " أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكم لأسلم عليكم، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم مني تقاضياً.

وكله إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد "

(٢)

إن أسلوب الكناية وجد مناخاً خصياً في تفسير الزمخشري مفهومها وتطبيقاتها، بل إن علم البيان والمعاني تطور تطوراً كبيراً، فقد كان تفسيره تطبيقاً عملياً وظرف فيه الظواهر البلاغية للكشف عن أسرار بلاغة التعبير القرآني.

يقول د. شوقي ضيف: " يمكن أن يقال إن قواعد علم البيان قد كملت عنده كما كملت قواعد علم المعاني، وكل ما هنالك أنه بقي من يستقضيها ويتبعها عنده وعند عبد القاهر وينظمها في مصنف يجمع متفرقاتها ويضم منشورها " (٣).

وفي طليعة من استقصى وتتبع ما قاله الجرجاني والزمخشري فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، وأبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، وعلى يديهما دخلت الكناية مرحلة جديدة في الدراسة هي مرحلة التبويب المنطقي والتنظيم والتعريف.

لخص الفخر الرازي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في فصول ثلاثة تحدث فيها عن الكناية (١). خصص الفصل الأول للكلام في حقيقة الكناية، والفصل الثاني في أن الكناية

(١) الكشف: ١ / ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) نفسه: ١ / ٣٧٢-٣٧٣.

(٣) البلاغة تطور وتاريخ، ص ٢٦٥.

ليست من المجاز، والفصل الثالث في ترجيح الكناية على التصريح وترجيح الاستعارة على التصريح بالتشبيه.

أوضح الفصل الأول حقيقة الكناية بقوله: "إن اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها فلا يخلو أما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي، وإما أن لا يكون كذلك. فالأول هو الكناية. والثاني هو المجاز" (١).

وأوضح في الفصل الثاني أن الكناية ليست من المجاز، فقال: "وبيانه أن الكناية عبارة عن أن تذكر وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً وإذا كان معتبراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها، فلا يكون مجازاً" (٢). ثم يوضح ما قاله بقوله: "مثاله إذا قلت: كثير الرماد فأنت تريد أن تجعل حقيقة كثرة الرماد دليلاً على كونه جواداً فأنت قد استعملت هذه الألفاظ في معانيها الأصلية ولكن غرضك في إعادة كونه كثير الرماد معنى ثانٍ يلزم الأول وهو الجود، وإذا وجب في الكناية اعتبار معانيها الأصلية لم تكن مجازاً أصلاً" (٣).

وأوضح في الفصل الثالث ما ذهب إليه عبد القاهر في تعليل بلاغة الكناية، وترجيحها على التصريح، فقال: "فاعلم أن السبب في كون الكناية أبلغ من الإفصاح هو أن الكناية ذكر الشيء بوساطة ذكر لوازمه ووجود اللازم يدل على وجود الملزوم، ومعلوم أن ذكر الشيء مع دليله أوقع في النفوس من ذكر الشيء لا مع دليله فلاجل ذلك كانت الكناية أبلغ" (٤). وهو يضعف هذا الرأي الذي نقله عن عبد القاهر لوجهين:

"الأول: أنك إذا قلت: فلان طويل النجاد فطول النجاد مشكوك فيه كما أن طول القامة مشكوك فيه، وليس أحدهما أظهر عند العقل من الآخر حتى يستدل بالأعرف على الأخرى اللهم إلا إذا جعلنا الطريق إلى معرفة طول النجاد الحس، ولكنه أيضاً كان في معرفة طول القامة، فظهر ضعف هذه العلة.

(١) نهاية الإيجاز في تروية الإعجاز، ص ١٣٥-١٣٧.

(٢) نفسه، ص ١٣٥.

(٣) نهاية الإيجاز في تروية الإعجاز، ص ١٣٦.

(٤) نفسه، ص ١٣٦.

(٥) نهاية الإيجاز في تروية الإعجاز، ص ١٣٧. وللمقارنة، ينظر: دلالات الإعجاز، ص ١١٠ -

الثاني: وهو أن الاستدلال باللازم على الملزوم طريقة باطلة، فإن الحدية لازمة للعلم، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحياة على وجوده، فيبطل ما قاله " (١) - وبذلك ينقل الرازي فن الكناية من ميدانه البلاغي إلى الحجاج المنطقي، والاحتكام إلى العقل، وإحكام اللازم والمعلوم، نون أن يشير إلى موضع المزية في التعبير الكنائي والاستعاري من التصريح به.

" إن اللزوم الذي أبرزه الرازي كان له أثره غير الحميد، في توجيه دراسة هذا اللون من ألوان التعبير وجهة منطقية، أضرت به أكثر مما أفادته، إذ شغل الدارسون بعده باللازم والملزوم، وتعدت الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ما لم يكن اللازم ملزوماً بنفسه، أو باتضمام قرينة إليه، لجواز أن يكون اللازم أعم، ولا دلالة للعام على الخاص. فضلاً عما قيل فيهما، من أنهما عقليان أو عرفيان، وعنى هذا الجدل العميق على الناحية الفنية في هذا اللون من التعبير الفني الرائع " (٢).

أما السكاكي فقد عرّف الكناية بقوله: " الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد لينقل منه إلى ما هو ملزومه، وهو طول القامة " (٣).

إن الكناية عنده مبنية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، والمطلوب بالكناية لا يخرج عن أقسام ثلاثة:

- الكناية المطلوب بها نفس الموصوف.

- الكناية المطلوب بها نفس الصفة.

- الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف.

وهذه الأقسام قد ذكرها الجرجاني والزمخشري من قبله، فالجرجاني ذكر الكناية عن صفة والكناية عن نسبة (تخصيص الصفة بالموصوف)، وأضاف الزمخشري إليهما الكناية عن موصوف، إلا أن السكاكي نظم هذه الأقسام وقسمها تقسيمات أخرى وقسمها من جهة أخرى إلى قريبة وبعيدة وحاول تقنينها وتعريفها.

(١) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٣٧.

(٢) الكناية، ص ١٨٣-١٨٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص ١٨٩.

ففي القسم الأول: في الكناية المطلوب بها نفس الموصوف، تقرب الكناية تارة وتبعد أخرى. وعرف القريبة بقوله: " هي أن يتفق في صفة من الصفات اختصاصاً بموصوف معين عارض، فتذكرها متوصلاً بها إلى ذلك الموصوف، مثل أن تقول: جاء المضيف، وتريد زيدا، لعارض اختصاصاً للمضيف يزيد " (١) وعرف البعيدة بقوله: " هي أن تتكلف اختصاصها بأن تضم إلى آخر وآخر فتلحق مجموعاً وصفاً مانعاً عن دخول كل ما عدا مقصودك فيه، مثل أن تقول في الكناية عن الإنسان، حي مستوى القائمة، عريض الأظفار " (٢).

أما القسم الثاني: في الكناية المطلوب بها نفس الصفة، الكناية فيه أيضاً تقرب تارة وتبعد تارة، وعرف القريبة بقوله: " هي أن تنتقل إلى مطلوبك من أقرب لوازمه إليه، مثل أن تقول: فلان طويل نجاهه، أو طويل التجاد، متوصلاً به إلى طول قامته، أو مثل أن تقول: فلان كثير أضيافه، أو كثير الأضياف، متوصلاً به إلى أنه مضيافون هذا النوع القريب تارة يكون واضحاً كما في المثاليين المذكورين، وتارة خفياً كما في قولهم: عريض القفا، كناية عن الأبله، وفي قولهم: عريض الوسادة عن هذه الكناية " (٣) يريد (البه) وعرف البعيدة بقوله: " فهي أن تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بوساطة لوازم متسلسلة مثل لأن تقول: كثير الرماد، فتنقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر ومن كثرة إحراق الحطب تحت القنور، ومن كثرة إحراق الحطب إلى كثرة الطيانخ، ومن كثرة الأكلة، ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيقان، ثم من كثرة الضيقان إلى أنه مضياف، فانظر بين الكناية وبين المطلوب بها كم ترى من لوازم " (٤).

أما القسم الثالث: في الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف: " فهي أيضاً تتفاوت في اللطف، فتارة تكون لطيفة، وأخرى لطفاء واللطيف قول زياد الأعجم:  
 إن الشماحة والمروءة والندى      في قبة ضربت على ابن الخشرج  
 والطف منتته قول الشنفرى      الأزدي في وصف امرأة بالعبقة:  
 يبيت بمنجاة من النوم بيئها      إذا ما بيوتت بالملامة خلّت (٥)

(١) مفتاح العلوم، ص ١٩٠.

(٢) نفسه، ص ١٩٠.

(٣) نفسه، ص ١٩٠.

(٤) نفسه، ص ١٩٠-١٩١.

(٥) مفتاح العلوم، ص ١٩٢-١٩٣.

وأشار السكاكي إلى فنون الكناية كالرمز والإشارة والتلويح والإيماء والتعريض،

قال:

" ثم أن الكناية تنقلت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحنبث يحس  
لك اللثام عن ذلك " (١)

وما ذكره السكاكي من تقسيمات للكناية وما يتعلّق بها من فنون وقّف عندها  
المتأخرون ولم يخرجوا عنها أو يضيفوا إليها، دخلت البلاغة عهداً جديداً امتاز بالشروح  
والتلخيص، وأشهر التلخيصات، كتاب (التلخيص) للخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، لخص  
فيه كتاب (المفتاح) للسكاكي.

وقد عرف القزويني الكناية فيه، بقوله: " الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز  
ارادته معه " (٢). وفي كتابه الآخر (الإيضاح) عرفها أيضاً بقوله: " لفظ أريد به لازم معناه  
مع جواز ارادة معناه حينئذٍ " (٣).

فهو يفرّق بين الكناية والمجاز من جهة ارادة المعنى الحقيقي، فالكناية يجوز فيها  
ارادة المعنى الحقيقي، أما المجاز فإنه لا يجوز فيه ارادة المعنى الحقيقي، وبذلك نفرّق  
الكناية عن المجاز.

وقسم القزويني الكناية ثلاثة أقسام، كما قسمها السكاكي وهي:

- ١ - المطلوب بها غير صفة ولا نسبة (٤)
- ٢ - المطلوب بها صفة، وتنقسم إلى قريبة وبعيدة وواضحة وخفية (٥)
- ٣ - المطلوب بها نسبة (٦).

ثم أنّ الكناية تنقلون كما هي عند السكاكي إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء،  
وإشارة.

وامتازت الكناية في (تلخيصه) بالافتضاب، والجفاف من الشواهد والأمثلة على  
خلاف ما عرضه في كتابه (الإيضاح) لفن الكناية، فقد امتازت بالتنظيم وإيراد الشواهد

(١) مفتاح العلوم، ص ١٩٠، وللاستزادة، ينظر: ابن رشيق في: العمدة، من هذه الفنون الكنائية:  
١ / ٣٠٢ وما ذكر منها بعده.  
(٢) التلخيص، ص ٣٣٧.  
(٣) الإيضاح: ٢ / ٤٥٦.  
(٤) نفسه: ٢ / ٤٥٧.  
(٥) نفسه: ٢ / ٤٥٨.  
(٦) الإيضاح: ٢ / ٤٦٢.

وشرحها، وهذا أمر وارد في التلخيصات، وكتاب (التلخيص) كما هو معروف، لخص كتاب (الإيضاح)، ومن الشواهد القرآنية التي عرض لها قوله -تعالى-: ﴿وَكَاَسَيْطَفِ آيَاتِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> قال فيها: "أي ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعرض يده عمماً، فتصير يده مسقوطةً فيها، لأن فاه قد وقع فيها"<sup>(٢)</sup>

ولم يخرج الذين أتبعوا القزويني في منهجه في الدرس البلاغي، وبخاصة فيما يتعلق بالكناية إلى غير ما ذهب إليه مما يلفت انتباه الباحث. ومن هؤلاء بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)<sup>(٣)</sup> وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١ هـ)<sup>(٤)</sup> وأبو يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ)<sup>(٥)</sup> وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ)<sup>(٦)</sup>

وإذا كان القزويني يمثل امتداداً للأسكاكي في منهج الدرس البلاغي العلمي ربما بحكم تلخيصه لمفتاحه، فإن ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ)، والعلوي (ت ٧٤٩ هـ)، يمثلان الامتداد الحق لعبد القاهر الجرجاني في منهج الدرس البلاغي الأدبي القائم على الذوق والتحليل والتعريف الموجز والاقبال من التقسيم والمصطلح العلمي. ولذلك أرجأنا الحديث عنهما إلى هذا الموضوع وجعلناهما في صعيد واحد.

فأما ابن الأثير فإنه يقدم دراسة بلاغية وافية لأسلوب الكناية، يقول د. أحمد مطلوب واصفاً دراسة ابن الأثير للكناية: "ولعل ما كتبه ابن الأثير في (الجامع الكبير) و (المثل السائر) يغني الباحث في هذا الموضوع، فقد جعل لهذا الفن روحاً، وبحث فيه حياة، فإذا بالكناية صور متحركة، وإذا بالأمثلة توحى بكل بنوع عجيب، وليت المتأخرين استفادوا مما ذكره ابن الأثير"<sup>(٧)</sup>

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٩.

(٢) الإيضاح: ٤ / ٤٦١.

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٤) المختصر على تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٥) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٣٧ وما بعدها.

(٦) أنوار الربيع في أنواع البيع: ٥ / ٣١٦-٣٠٩.

(٧) القزويني وشروح التلخيص، ص ٤٢٠.

أشار ابن الأثير إلى خلط كثير من البلاغيين بين الكناية والتعريض، وبدأ بالكناية وقال أنها حُذت: "باللفظ الدال على الشيء، على غير الوضع الحقيقي، بوصف جامع بين الكناية والمكنى عنه" (١).

وقال بنفساد هذا التعريف، لأنه يمكن أن يكون حِداً للتشبيه كذلك. ونقل ما ذهب إليه علماء أصول الفقه من أنها: "اللفظ المحتمل" (٢). وقال: أنهم يريدون به اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وخلافه. وأشار إلى فساده أيضاً، لأن كل كناية لفظ محتمل، وليس كل لفظ سحتمل كناية.

وحَدَّ الكناية الجامع لها عنده هو: "أنها كل لفظه دلّت على معنى يجوز حملة على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز" (٣). وقال أن الكناية مشتقة من الستر، يقال: كَنَيْتَ عن الشيء إذا سترته، وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يُسْتَرُ فيها المجاز بالحقيقة، فتكون دالة على الستر وعلى المستور معاً. "ألا ترى إلى قوله -تعالى-: ﴿أَوَلَمْ تَسْمِعُوا النِّسَاءَ﴾ فإنه إن حُمِلَ على الجامع كان كناية، لأنه ستر الجامع بلفظ اللامس الذي حقيقته مصافحة الجسد الجسد، وإن حُمِلَ على الملامسة التي هي مصافحة الجسد الجسد كان حقيقة، ولم يكن كناية، وكلاهما يتم به المعنى" (٤).

وابن الأثير يرى الكناية جزءاً من الاستعارة، لأنها لا تكون إلا بطي المكنى عنه، ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام، فكل كناية استعارة، وليس كل استعارة كناية. ويفرّق بينهما من وجه آخر، فيقول: "الاستعارة لفظها صريح، والصريح هو ما دلّ عليه ظاهر لفظه، والكناية ضد الصريح، لأنها عدول عن ظاهر اللفظ، وهذه ثلاثة فروق أحدها: الخصوص والعموم، والآخر الصريح، والآخر الحمل على جانب الحقيقة والمجاز" (٥).

وأورد تقسيم البلاغيين للكناية أقساماً ثلاثة فقال: "وقد ذهب قوم إلى أن الكناية تنقسم أقساماً ثلاثة: تمثيلاً، وإردافاً، ومجاورة" (٦).

(١) المثل السائر: ٣ / ٥٠.

(٢) نفسه: ٣ / ٥١.

(٣) نفسه: ٣ / ٥٢.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٣.

(٥) نفسه: ٣ / ٥٥.

(٦) المثل السائر: ٣ / ٥٨. وينظر: الجامع الكبير، ص ٢٥٧.

وفصل القول في كل قسم مبيّناً المقصود منه، ثم انتهى إلى أنه تقسيم ليس بصحيح " لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة، تفصله عن عموم الأصل " (١). وذلك لأن الكنايات عنده كلها تمثيل " فإن التمثيل عبارة عن مجموع الكناية، لأن الكناية إنما هي أن تراد الإشارة إلى معنى، فيوضع لفظ لمعنى آخر، ويكون ذلك اللفظ مثلاً للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه " (٢).

والتمثيل في الكناية يتضح في التركيب، ويقال في المفرد، قال: " ألا ترى إلى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمُتَّعٌ وَسَعُونَ نَجْمَةً وَلِيَّ نَجْمَةٌ وَوَجِدَةٌ ﴾ فإنه أراد الإشارة إلى النساء، فوضع لفظاً لمعنى آخر، وهو النعاج، ثم مثل به النساء. وهكذا يجري الحكم في جميع ما يأتي من الكنايات، لكن منها ما يتضح التمثيل فيه،.. ومنه ما يكون دون ذلك في الشبيهة " (٣). ثم قال: " فوجدت الكناية إذا وردت على طريق اللفظ المركب، كانت شديدة المناسبة واضحة الشبيهة، وإذا وردت على طريق اللفظ المفرد لم تكن بتلك الدرجة في قوة المناسبة والمشابهة " (٤).

ثم يعقد مقارنة بين الكناية المركبة والكناية المفردة لتوضيح ذلك، فيقول: " ألا ترى إلى قولهم (فلان ذقي الثوب) وقولهم (الامس) كناية عن الجماع، فإن ذقاء الثوب أشد مناسبة أو ضح شبيهاً، لأننا إذا قلنا: ذقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من الديوب أتضح المشابهة، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة، وإذا قلنا: (اللمس كالجماع) لم يكن بتلك الدرجة في قوة المشابهة. وهذا الذي ذكر في أن من الكناية تمثيلاً وهو كذا وكذا، غير صالح ولا وارد، بل الكناية كلها هي ذاك " (٥).

ويعرف ابن الأثير التعريض بقوله: " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إنني لمحتاج، وليس في يدي شيء، وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه

(١) المثل السائر: ٣ / ٥٩.

(٢) المثل السائر: ٣ / ٥٩. وللمقارنة، ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) نفسه: ٣ / ٥٩.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٩.

(٥) نفسه: ٣ / ٥٩.

تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقةً ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (١).

ويقول: " والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي وإنما سُمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يُفهم من عرضه أي من جانبه، وعرض كل شيء جانبه، والكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، وأما التعريض فبه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد البتة " (٢).

ومن الكنايات القرآنية التي أوردها قوله - تعالى - : ﴿ اٰمِيْنُ اَمَدُكُمْ اَنْ يَّاْكُلَ لَحْمٌ اَخِيْرٌ مِّمَّا فَكَّرْتُمْ عَلَيْهِ ۗ ﴾ (٣)، قال: " فبه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ما هو في الغيبة من الكراهة موصولاً بالمحبة، فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله " (٤).

ثم يوضح المناسبات في الدلالات بين المكنى به والمكنى عنه في المواضع الأربعة التي عقدتها الآية، أي يبحث عن الوصف الجامع في الدلالات، قال: " فإما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جداً، لأن الغيبة، إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغبته، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة، وأما جعله كالحم الأخ لما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والأشرف مجتمعان على استكراهها، امران يتحركها واليعد عنها، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهتها، وأما جعل اللحم ميتاً فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها. وأما جعله ما هو في الغيبة من الكراهة موصولاً بالمحبة، فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها " (٥).

(١) نفسه: ٥٦ / ٣.  
(٢) المثل السائر: ٥٧ / ٣. وينظر: حقائق الزهر والرياحن في البيان عن بلاغات التبيان، محمد أمين الخطيب العمري، ص ٣١.  
(٣) سورة الحجرات، من الآية: ١٢.  
(٤) المثل السائر: ٦٢ / ٣.  
(٥) نفسه: ٦٢ / ٣.

فهو يشترط المناسبات في الدلالات في الأسلوب الكناثي، فإذا لم يجد المناسبة والوصف الجامع بين المكنى به والمكنى عنه لم يعد التعبير كنادياً. قال: " أنه لا بد من الوصف الجامع بينهما لتلا بلحوق بالكناية ما ليس منها، ألا ترى إلى قوله - تعالى - ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِجْمَةً وَفِي كُلِّ نِجْمَةٍ وَجِدَةٌ ﴾ فكنى بذلك عن الدساء، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث من أجل ذلك لم يُلْتَفِت إلى تأويل من تأول قوله - تعالى - ﴿ رَبِّيَ أَكْبَرُ ﴾ أنه أراد بالثياب القلب على حكم الكناية، لأنه ليس بين الثياب والقلب وصف جامع، ولو كان بينهما وصف جامع لكان التأويل صحيحاً " (١) وجعل من الكنايات القرآنية قوله - تعالى -:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبَلُ لُبًّا وَنَازِلًا ﴾ (٢) وذلك لوجود المناسبة والوصف الجامع، وحمل اللفظ على جانبي الحقيقة والمجاز، فقال: " هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حملة على جانبي الحقيقة والمجاز. وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية، وإذا سئلوا عنها عتروا عنها بالمجاز، وليس الأمر كذلك، وبينهما وصف جامع، كهذه الآية وما جرى مجراها، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على سهابط الأرض وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغشاء الرابي الذي تقذفه السيول، وعلى الضلال، وليس في أقسام المجاز شيء يجوز حملة على الطرفين معاً سوى الكناية " (٣)

وقال في قوله - تعالى - ﴿ وَأَوْزَقَكُمْ أَرْضَكُمْ وَيَذَرُكُمْ وَأُمُوكُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْكُوهَا ﴾ (٤) والأرض التي لم يطأوها كناية عن مناحج النساء، وذلك من حسن الكناية ونادره " (٥) وقد تتبع ابن الأثير أساليب الكناية في القرآن والشعر والنثر المركبة منها والمقردة، وامتازت تحليلاته لها بالحيوية والعمق.

وأما العلوي (ت ٧٤٩ هـ) فهو يفيد من دراسة الكناية عند الجر جاني وعند ابن الأثير بخاصة، فبعد لها دراسة بلاغية أدبية امتازت بالعمق في صورة منظمة تعدد التقسيم والتبويب. وهو يناقش فيها كثيراً من التعاريف للكناية وبخاصة تعريف الجر جاني وتعريف ابن الأثير، ثم ينتهي بعد المناقشة إلى تعريف الكناية بقوله: " فالمختار عندنا في

(١) المثل السائر: ٣ / ٥٢.

(٢) سورة الرعد، من الآية: ١٧.

(٣) المثل السائر: ٣ / ٦٣.

(٤) سورة الأحزاب، من الآية: ٢٧.

(٥) المثل السائر: ٣ / ٦٣.

بيان ماهية الكناية، أن يُقال: هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين، حقيقةً ومجازاً من غير واسطة، لا على جهة التصريح " (١). ثم يفسر تعريفه بقوله: " ولفسر مرادنا بهذه القيود، فقولنا: اللفظ الدال يحترز به عن التعريض، فإنه ليس مدلولاً عليه بلفظ، وإنما هو مفهوم من جهة الإشارة والفحوى قولنا على معنيين، يُحترز به عما يدل على معنى واحد، وقولنا حقيقةً ومجازاً، يحترز به عن اللفظ المشترك، فإن دلالاته على ما يدل عليه من المعاني على جهة الحقيقة لا غير، وقولنا من غير واسطة، يحترز به عن التشبيه، فإنه لا بد فيه من أداة التشبيه، إما ظاهرة كقولك: زيد كالأسد، وإما مضمرة كقولك: زيد البحر، وقولنا على جهة التصريح، يحترز به عن الاستعارة، فإن دلالاتها على ما تدل عليه من جهة صريحها، إما من غير قرينة، كدلالة الأسد على الحيوان، وإما مع القرينة كدلالة الأسد على الشجاع، فكلاهما مفهوم من جهة التصريح، بخلاف الكناية فإن الجماع ليس صريحاً من قوله - تعالى -: ﴿ قَاتُوا حَتَّى تَكُونُوا كَالرِّجَالِ مَخْلُوفِينَ ﴾ (٢) وإنما هو مفهوم على جهة التبع كما دلّت عليه بحقيقتها " (٣).

والكناية عند العلوي هي من المجاز، لأن المقصود منها هو المعنى المكنى عنه، وليس المقصود هو المعنى الحقيقي للفظ، قال: " أن الكناية قد دلّت على معناها اللغوي الذي وُضعت من أجله، فيعد ذلك لا يدخلو حالها، إما أن تدل على معنى مخالف لما دلّت عليه بالوضع أم لا، فإن لم تدل فلا معنى للكناية، وإن دلّت عليه وجب القول بكونه مجازاً، لما كان مخالفاً لما دلّت عليه بالوضع " (٣).

وقسم العلوي الكناية إلى ثلاثة أقسام باعتبار ذاتها، وباعتبار حالها، وباعتبار حكمها. فالقسم الأول: باعتبار ذاتها تنقسم لديه إلى مفردة، ومركبة. فأما المفردة: " فهي ما كانت الكناية حاصلة في اللفظة الواحدة، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ مَثَلَنَا لَمَثَلُكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤) فالمراد بالنعجة في كلا الموضعين المرأة، وإنما كنى بالنعجة عن المرأة لما بينهما من الملاءمة في التذلل والضعف والرحمة وكثرة التألف، وكقوله - تعالى -:

(١) الطراز: ١ / ٣٧٣.  
(٢) الطراز: ١ / ٣٧٤.  
(٣) نفسه: ١ / ٣٧٥-٣٧٦.

﴿أَوَلَمْ نَسْمُكُنَّ الْإِنْسَاءَ﴾ فإنه كنايةً عن الجماع " (١) - وأما المركبة " فهي أكثر ورود الكناية عليها، كقولك: (الكرم في بُرْذِيهِ، والمجدد بين تَوَيْبِيهِ، والعفاف في عَطْفِيهِ)، هذا في المدح، وفي الذم: (إنه لعريضُ الوساد) " (٢)

ثم يوازن بين النوعين (المفردة والمركبة) بقوله: " فإذا وردت على طريقة التركيب كانت أشد ملاءمة، وأعظم بلاغةً، وإذا وردت على صورة الافراد لم يكن لها تلك المزية التي حصلت للمركبة، ومثاله أنك إذا قلت في الكناية المركبة: فلان ذقي الثوب، وأردت إيراده على صورة المشابهة، فإني تقول: هو في نزاهة العرض من العيوب كنزاهة الثوب من الأذناس، فإذا حصل على هذا التأليف اتضحت المشابهة ووجدت المناسبة وظهر أمر الكناية، وإذا قلت في الكناية المفردة: اللبس في الجماع لم تكن في تلك الدرجة من المناسبة وقوة المشابهة " (٣)

والقسم الثاني: باعتبار حالها تنقسم إلى قريبة وبعيدة. والقريبة هي: " ما يكون الانتقال إلى المطلوب بقرب اللوازم.. ومثالها: (بعيدة مهوى القُرْط) فإنه كناية عن طول عنقها، وهذا حاصل على القرب من غير اعتبار واسطة " (٤) وأما البعيدة: فهي " ما يكون الانتقال إلى مطلوبها من لازم أبعد منه، مثالها، (فلان كثير الرماد) فهذه تكثر فيها الوسائط، لأنك تنتقل من كثرة الرماد إلى كثرة الجمر، ثم إلى كثرة الإحراق تحت القدر، ثم إلى كثرة الطيائح، ثم إلى كثرة الأكلين، ثم إلى كثرة الأضياف، ثم إلى كونه مضيافاً " (٥)

أما القسم الثالث: باعتبار حكمها فإذا تنقسم إلى حسنة وقبيحة. فالحسنة كقول أعرابية تصف زوجها: (إنه إبلٌ قليلات المسارح، كذيرات المبارك، إذا سمعن صوت المزهر أيقنَّ أَنَّهُنَّ هو لك) (٦) والقبيحة ما تخلو من الفائدة المرادة من الكناية، وهو عيب عند أهل البلاغة، من ذلك قول أبي الطيب المتنبّي:

إني على شغفي بما في خُمُرِها لأعفُ عمًا في سراويلاتها (٧)

(١) نفسه: ١ / ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٢) نفسه: ١ / ٤٢٩.

(٣) الطراز: ١ / ٤٣٠. وينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٩ للمقارنة.

(٤) نفسه: ١ / ٤٣٠. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٥) نفسه: ١ / ٤٣١. وللمقارنة، ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٦) نفسه: ١ / ٤٣٢.

(٧) نفسه: ١ / ٤٣٢ - ٤٣٣.

إذ إن (خمرها وسراويلاتها) فقدت غرض الستر والأخفاء وقربت من التصريح بالمعنى.

ويورد العلوي كثيراً من أمثلة الكناية من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكلام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وكلام البلغاء، والكنائيات الشعرية، وحفل كل نوع من هذه الأنواع الخمسة بعدد وافر من الشواهد.

ومن الكنائيات القرآنية التي أوردتها قوله - تعالى -: ﴿ أَيُّهُ أَحْكَمُ أَنْ يَأْكُلَ لَعْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ، وقوله - تعالى -: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا .. ﴾. وهو لا يكاد يخرج في تفسيره لهذه الكنائيات القرآنية عما قاله ابن الأثير من قيل (١).

والعلوي يفرق بين الكناية والتعريض، والفروق بينهما تظهر من أوجه ثلاثة:  
الوجه الأول: الكناية واقعة في المجاز، بخلاف التعريض فلا يعد من المجاز.  
الوجه الثاني: الكناية تقع في المفرد والمركب، والتعريض لا يقع إلا في اللفظ المركب.

الوجه الثالث: التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز، بخلاف التعريض، فإن دلالاته من جهة القرينة والإشارة (٢).

ولم يضيف الذين جاءوا من بعده إلى فن الكناية إضافات جوهرية، بل الملاحظ عليهم النقل من عبد القاهر الجرجاني والزمخشري وابن الأثير وغيرهم من علماء البلاغة والبيان.

ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) (٣)، وبدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤هـ) (٤)، وابن حجة الحموي (ت ٨٢٧هـ) (٥)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) (٦)، وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠هـ) (٧).

(١) الطراز: ١ / ٤٠٠ - ٤٠٧. وينظر للمقارنة: المثل السنن: ٣ / ٦٢ - ٦٣.

(٢) الطراز: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨. وقارن بين الأثير، المثل السنن: ٣ / ٥٦ - ٥٧.

(٣) ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ص ١٢٦ وما بعدها.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٠ - ٣٠١.

(٥) ينظر: الخزائن، ص ٣٥٦ - ٣٦١.

(٦) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٣ / ١٤٣ - ١٤٨.

(٧) ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع: ٥ / ٣١٩ - ٣١٦.

ولاً نجانب الحقيقة إذا قلنا إن المحدثين والمعاصرين من البلاغيين<sup>(٢)</sup> لم يخالفوا ما انتهى إليه البلاغيون المتأخرون خلافاً جوهرياً في دائرة فن الكناية وإن كان لكل منهم ملاحظته وطريقة تناوله لهذا الفن البياني<sup>(٣)</sup>

### الكناية بين الحقيقة والمجاز:

أكثر علماء البيان على مذهب أن الكناية من المجاز<sup>(٤)</sup> لأن اللفظ المستعمل لا يراد منه معناه الحقيقي.

قال ابن الأثير: "وقد تقدم القول في باب الاستعارة أنها جزء من المجاز وعلى ذلك تكون نسبة جزء الجزء، وخاص الخاص<sup>(٥)</sup> ولما كانت الكناية عندهنسبتها للاستعارة نسبة جزء الجزء وخاص الخاص، فهي من المجاز، إلا أن مجازيتها تختلف عن مجازية الاستعارة وتفترق عنها بالقرينة، القرينة مع الاستعارة تمنع من إيراد المعنى الحقيقي، فالاستعارة صريحة في مجازيتها.

أما الكناية فلا مانع يمنع من إيراد المعنى الحقيقي مع المعنى المكنى عنه المجازي، والمعنى المكنى عنه في الكناية هو المستور وهو المجاز. يقول ابن الأثير: "فإن المستور هنا - يقصد الكناية - هو المجاز، لأن الحقيقة تفهم أولاً ويتسارع إليها الفهم قبل المجاز، لأن دلالة اللفظ عليها دلالة وضعية، وأما المجاز فإنه يُفهم بعد فهم الحقيقة، إذما يُفهم بالنظر والفكرة"<sup>(٦)</sup>

وذهب العلوي إلى ما ذهب إليه ابن الأثير<sup>(٧)</sup> ورأى بعضهم أنها ليست من المجاز لأنك تعتبر في ألفاظ الكناية معانيها الأصلية، ثم يفيد بمعانيها معنى ثانياً هو المقصود. نرى هذا عند فخر الدين الرازي، يقول: "الكناية عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى

(\*) ينظر مثلاً: علم البيان، د. بدوي طباطبة، ص ٢٣٤ وما بعدها. وينظر: البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. حسن البصير، ص ٣٦٧ وما بعدها. وينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، ص ٣٢٨ وما بعدها. وينظر: التصوير البياني، د. حفني محمد شرف، ص ٢٢١ وما بعدها. وينظر: جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، ص ٣٤٥ وما بعدها. وينظر: البلاغة الواضحة، علي الجارم، مصطفى أمين، ص ١٢٣ وما بعدها.

(١) ينظر: الكناية، د. محمد جابر فياض، ص ١٩٧.

(٢) الطراز: ١ / ٣٧٥.

(٣) المثل السائر: ٣ / ٥٥.

(٤) نفسه: ٣ / ٥٤.

(٥) الطراز: ١ / ٣٧٦ وما بعدها.

ثانياً هو المقصود، وإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً، وإذا كان معتبراً فما نقلت اللفظة عن موضوعها فلا يكون مجازاً " (١) أي أنّ المعنى الثاني هو " معنى المعنى " كما يسميه الجرجاني (٢) الذي يفيد اللفظ الكنائي ليس بمجاز، لأن المعنى الأصلي هو دليل يقود إليه فبينهما تلازم وارتباط، وبذلك نحن نستعمل الألفاظ في معانيها الأصلية.

ويُفهم من كلام السكاكي أن الكناية حقيقة، قال: "واعلم أن التعريض تارة يكون على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز، فإذا قلت: أدبنتي فستعرف، وأردت المخاطب وسع المخاطب انساناً آخر معتمداً على قرائن الأحوال كان من القبيل الأول، وإن لم ترد إلا غير المخاطب كان من القبيل الثاني " (٣).

فالكناية عنده ليست مجازاً، وأن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريق من طرقها، ويكون أحياناً مجازاً على خلاف الكناية، كما مثل له في قوله " أدبنتي فستعرف " إذا كان المقصود غير المعنى الحقيقي الذي يمثله (المخاطب) وإنما المقصود من هو مع المخاطب بإمالة الكلام إليه.

وقال الخطيب القزويني: " فرّق السكاكي وغيره بوجه آخر وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من الملزوم إلى اللازم " (٤).

وفرّق الخطيب بين الكناية والمجاز من جهة ارادة المعنى الحقيقي ولازمه، ولا يجوز في المجاز ذلك. لأن " المجاز ملزوم قرينة معاندة لارادة الحقيقة، وملزوم معاندة الشيء معاندة لذلك الشيء " (٥).

والذي يميل إليه: هو أنّ الكناية تعبير مجازي (٦) لأنه من أساليب التعبير غير المباشرة، وإن كان ظاهر اللفظ يوحي بمعناه الحقيقي، إلا أن هذا المعنى الحقيقي ليس هو المقصود في الكناية، وإنما المقصود معنى آخر يخفي وراء ظاهر اللفظ ويرتبط به. وما دام المراد ليس هو معنى ظاهر اللفظ، فالأولى أن تكون الكناية من المجاز، كما أن هناك

(١) نهاية الإيجاز في نراية الإعجاز ، ص ١٣٦ . وينظر: نهاية الأرب ، للنويري: ٧ / ٦٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ، ص ٢٦٣ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ١٩٤ ، وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٧ .

(٤) الإيضاح: ٣ / ٤٥٦ .

(٥) نفسه: ٢ / ٤٥٦ .

(٦) ينظر: البلاغة العربية ، المعاني والبيان والبديع ، د. أحمد مطلوب ، ص ٢٣٨ .

لواناً من الكناية يتعدّر فهم معناها الحقيقي أو إيرادها، يتّضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل.

### الفرق بين الكناية والتعريض:

لاحظنا فيما عرضناه من أسلوب الكناية عند البلاغيين جمع الكناية مع التعريض عند أغلبهم كأنهما أسلوب واحد أو أنهما لفظان مترادفان (١).

ولعل سبب هذا التقارب وجمع الأسلوبين في صعيد واحد عائد إلى أن " دلالة الكناية كدلالة التعريض في أن كلاً منهما لم يُصرّح فيه بالألفاظ الدالة على المعنى المقصود " (٢).

فالتعريض كالكناية في كونه لا يُراد به معناه الذي يدل عليه ظاهره، وإنما يُراد به معنى آخر يرتبط باللفظ الظاهر ويلازمه، إلا أن التلازم بين المعنيين في الكناية والتعريض مختلف، ففي الكناية أساسه العرف والعادة - في الأعم الأغلب - ولا يرتبط بموقف محدد أو سياق معين، على حين أن التلازم بين المعنيين في التعريض يدع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام (٣).

وفرق السكاكي بين الكناية والتعريض، وجعل التعريض جزءاً من الكناية وطريقة من طرقها (٤).

ووضع ابن الأثير الفروق الظاهرة بين الكناية والتعريض، فالتعريض عنده هو: " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم " (٥) - فقوله - تعالى - ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَصَلْتَ لَنَا بِحَالِنَا يَا زَيْدُ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَوَهُمُ إِنَّ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ (٦) تصل دلالاته إلى السامع من جهة المفهوم، لأن هدف إبراهيم عليه السلام إقامة الحجة والبرهان على قومه، بأن هؤلاء لا يضرون ولا ينفعون فهم لا ينطقون، وأبسط مظاهر توقع الذفع أو الضر أن يعي الشيء، ويتكلم ليحقق ما يُريد، والحجر لا يعي ولا يتكلم فسلب حينئذ أبسط مظاهر

(١) ينظر مثلاً: كتاب الصناعيتين، ص ٣٦٨، والعمدة: ١ / ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) علم البيان، د. بدوي طبقة، ص ٢٥٦.

(٣) ينظر: التعبير النبائي، د. شفيق السيد، ص ١٥١.

(٤) ينظر: ص من:، وينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠، ١٩٤.

(٥) المثل السائر: ٣ / ٥٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٢ و ٦٣.

الضر والنفع (١) وفي قوله - تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْتَدَّ إِلَّا بَشْرًا بَشْرًا وَمَا تَرْتَدُّ إِلَّا إِلَيْكَ وَإِلَّا إِلَيْنَا هُمْ أَرَادُوا لَنَا كَاوِيَ أَرَايَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظَرُكُمْ كَذِبِينَ ﴾ (٢)، تعريض بأن الله لو أرسل بشراً رسولاً، لاختارنا دونك لاعتبارات في مقاييسهم نقدسي أحدهم الذبوة كما يتخيلون (٣) وفي قوله - تعالى: ﴿ صَرَبَكَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٍ وَأَمْرَاتٌ لُّوطٍ كَانَ تَحْتَهُ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (٤) في هذه الآية تعريض. قال الرمخشري: " وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأبي المؤمنين المذكورين في أول السورة (عائشة وحفصة) وما فرط منهما من النظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذيرهما على أغلب وجهه وأشدّهوان لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين " (٥)

وبذلك تكون دلالة التعريض أخفى من دلالة الكناية، لأن دلالاته من جهة المفهوم، ودلالاتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وقول ابن الأثير في ذلك وفي بيان الفروق الأخرى سبق ذكره (٦).

ومفهوم التعريض عند العلوي لا يختلف عن مفهومه عند ابن الأثير (٧) والذي تنتهي إليه أن التعريض لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياقه التابع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام. ويبرز التعريض في القرآن الكريم بخاصة بوصفه " أسلوباً مشرقاً من الأساليب النبائية يحتمه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهدية، تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الانسانية من العيب والغيب والإثارة المؤذية " (٨)

(١) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٧٢. وينظر: حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات البيان، ص ٣٢. وأصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، ص ١١٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٧٢، وأصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص ١١٩.

(٤) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٥) الكشف: ٤ / ٥٨.

(٦) ينظر: ص ٤٥ من: ٤، وينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٧.

(٧) ينظر: الطراز: ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨.

(٨) أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص ١١٩.

## معيار الجودة في الكناية عند البلاغيين :

أجمع دارسو البلاغة على أن أسلوب الكناية هو أبلغ من الإفصاح، وأن التعريض أوقع من التصريح.

يقول عبد القاهر الجرجاني: " قد أجمع الجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح " (١).

ويقول الأسكاكي: " واعلم أن أرباب البلاغة وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر فيصير حال الكناية كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى ببيئته ومع الإفصاح بالذكر مدعى لا ببيئته " (٢).

وذهب السبكي أن الكناية " هي أبلغ من كل سجاز مرسل ويحتمل أن يقال أنها أبلغ من الاستعارة أيضاً " (٣).

وفي إطلاقهم بأن المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أوقع من التصريح هكذا مجرداً من سياق، بجانب الحقيقة، إذ أن أبلغية أي أسلوب يحدده السياق الذي يتشكل فيه، فالأسلوب المجازي يكون أبلغ من الحقيقي إذا جاء في سياقه الذي يتطلبه، والحقيقي يكون أبلغ من المجازي في مقامه، فليس هناك أسلوب أبلغ من أسلوب مجرداً من سياق ومقتضى حال، فالسياق هو الذي يحدد أبلغية الأسلوب.

والملاحظ أن البلاغيين القدامى قد استندوا في تحديد أبلغية الأسلوب الكنائي إلى معيار دقيق واضح، بوصفه أسلوباً فنياً غير مباشر، يؤدي لفظه الصريح بمعناه إلى معنى ثانٍ يرتبط بالمعنى الأول ويلزمه، وفي هذا إثارة للذهن وحسن وقع في النفس وشدة تأثير في المخاطب بما يتمثله من لوازم حسية تجسد له المعنى المقصود.

وللو صول من المعاني الأول إلى المعاني الثواني كما يُسميها الجرجاني (٤) يتم بوسائط، وفي ضوء هذه الوسائط من حيث قريتها أو بعدها، خلقها أو جلاؤها كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية.

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٦ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص ١٩٤-١٩٥ . وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٨ .

(٣) عروس الأقراح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص: ٤ / ٢٧٧ .

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ، ص ٢٦٣-٢٦٤ .

وأول من أشار إلى هذه الوسائط هو قدامة بن جعفر في دراسته للكناية التي سماها (الأرداف). وقد استبعد قدامة من الأرداف من دائرة الشعر، لكونه غامضاً بسبب كثرة الوسائط وعموضها إلى الحد الذي يتعذر معه فهم معناه. قال: "ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني، وذلك إذا ذكر الريف وحده، وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر، أو كانت بينه وبينه أرداف آخر، كدُها وسائط، وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض، ولم يكن داخلًا في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر وتُعذر العلم بمعناه" (١).

وأشار الجرجاني في تحليلاته لأسلوب الكناية إلى هذه الوسائط وجعل معيار الجودة فيها راجعاً إلى بيانها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وجعل ذلك شرطاً من شروط البلاغة، قال: "إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلاً على المعنى الثاني ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالته، مستقلاً بوساطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة، حتى يخيل إليك أنك فهمته من حلق الألفاظ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك، وسرعة وصوله إليك" (٢).

فبلاغة الأسلوب الكنائي تعتمد على النسج الداخلي الذي يربط بين المعنيين الأصلي والمقصود (٣) من حيث بعد الوسائط وقربها، وعموضها، ووضوحها.

ويتضح معيار الجودة في الأسلوب الكنائي عند السكاكي في صورة واضحة منظمّة، إذ يجترح مصطلحات في ضوء الوسائط، ويقسم الكناية على ضونها، فيقول: "سئى كانت الكناية عرضية على ما عرفت كان اطلاق اسم التعريض عليها مناسباً، وإذا لم تكن كذلك فنظير فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنى عنه متباعدة لتوسط لوازمها في كثير الرماد وأشباهه كان اطلاق اسم التلويح عليها مناسباً لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو: عريض القفا وعريض الوسادة كان اطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على

(١) نقد الشعر، ص ١٥٩.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص ١١٣.

سبيل الخفية، وإن كانت لا مع نوع الخفاء كان اطلاق اسم الايماء والإشارة عليها مناسباً " (١)

وهذه المصطلحات التي ذكرها السكاكي من (تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة) قد تبناها البلاغيون بعده في دراستهم الكنائية، ومن ثم حدّدوا قوتها أو ضعفها، فقد استندت إلى معيار نابع من رؤية بلاغية تحدّد بوضوح الصورة الكنائية ووظيفتها في التعبير غير المباشر عن المعنى.

وفي ضوء هذا الاستعراض التاريخي لمفهوم الكناية عند البلاغيين القدامى والمتأخرين يمكن استنتاج خلاصة وافية تحيط بتعريفها وأنواعها، ويمكن بوساطتها دراسة الكناية القرآنية بوصفها أسلوباً من أساليبه المتميزة لها خصائصها الفنية في التعبير والتصوير والتأثير.

تبيّنت الخلاصة تعريف الكناية عند البلاغيين المتأخرين بأنه: " لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ.

وفي المنظور المعاصر هي لفظ أو صورة مذكورة على سبيل المجاز بديلة عن أخرى محذوفة، وهذه الصورة تعبر عن المعنى المراد بطريق الحقيقة والمسوخ لذلك أن الأولى لازمة لتدقيق الثانية، أي هي " ضرب من العدول عن لفظ يقرّر معناه حقيقةً وصراحةً وإلتيان بلفظ آخر يؤدي هذا المعنى في شيء من التأول على أن تكون هناك علاقة لازمة بين اللفظين فيما يوديته، لذلك فإن هذه العملية اللغوية تنتج لنا صورة بديلة لازمة لما عدل عنه وترك إلى سواه " (٢).

ومثال ذلك قولهم: " طويل التجاد " و " كثير الرماد " و " نؤوم الضحى " هي صور كنائية بديلة عن الرجل طويل القامة، وعن الرجل الكريم، وعن المرأة المترفة التي لها من يخدمها، وثمة فرق بين الصورة الكنائية وبين ما عدل عنه من معانٍ حقيقةً، فالصورة الكنائية هي تصوير للمعنى لا نلاحظه في المعنى الذي عدل عنه. فقولنا: ( هذا رجل كريم ) هو تعبير مباشر من غير تصوير فني، أما إذا عدلنا عن هذا اللفظ وقلنا " كثير الرماد " رسمنا صورة حسية مُشاهدة لصفة ذلك الرجل يصل فيها المعنى إلى المتلقي

(١) مفتاح العلوم، ص ١٤٤.

(٢) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، د. كامل حسن البصير، ص ٣٢٨.

بتجسيد يخضع للمقايسة ويُفرضي من ثم إلى التوكيد وقوة التأثير، وهذا الملحظ الفني في الكناية قد عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أما الكناية فإن السبب في أن كان للادّبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن اثبتت الصفة بأدبها دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوة من أن دجى إليها فتثبثها هكذا سادجاً غفلاً، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشكّ فيه ولا يظن بالمخبر التجوّز والغلط" (١).

ومثاله أيضاً قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٢) فالآية الكريمة تنهى عن صفتين مذمومتين هما: البخل والتبذير. وقد عدل التعبير القرآني عن صفة (البخل) إلى التصوير الكنائي الفني ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾، نرى فيه البخل وقد بدا ذراعه متجمداً وكفه مقبوضة في صورة محسوسة تتملأها العين ويتحسسها الوجدان فهو مغلول اليد قد شنت إلى عنقه لا يبدر منه عمل يُنتفع به، ولا ينهى بمهمة يفيد منها الآخرون. فالصورة الكنائية بديلة عن حقيقة لازمة لصفة البخل، فهي صفة تنفّر الناس منه لما يرونه عليه عياناً ويحسونه فيه مشاهدة.

وعدل التعبير القرآني كذلك عن صفة (الاسراف) إلى الصورة الكنائية البديلة ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ فإذا المصروف الباذخ يبسط يده غاية البسط ويلج على بسطها في عناء وعنت، فهو يُصوّر للناس في هذه الصورة البديلة واقع أمره واللازم لهذا الواقع، فيفهم المتلقون أنه بهذا يضرّ نفسه بعدم الإبقاء على شيء ينفعه ويجنّي سواه (٣).

وبذلك يتجلى الفرق في التعبير عن الأفكار والمعاني بين الأسلوب الكنائي المصوّر الموحى بطريق إثارة الحواس والذهن والمخيّلة وبين التعبير الحقيقي المباشر الذي عدل عنه القرآن، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ونظر البلاغيون في طبيعة (المكنى عنه) الذي يتوارى خلف سجع الكناية فجعلوه ثلاثة أضرب وتبعاً لذلك قسموا الكناية إلى أنواع هي: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة (٤).

(١) دلالات الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

(٢) سورة الإسراء، من الآية: ٢٩.

(٣) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٠.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٦٠ وما بعدها. وينظر: الإيضاح: ٤٥٧ / ٢.

كما نظروا في السياق والوسائط التي توصلنا إلى المكنى عنه، فبنوا على ذلك خمسة أصرب هي: التعريض والتلويح والإيماء والإشارة والرمز (١). وكل ما ذكره من هذه الأصرب هي صور بديلة لازمة للمعنى المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة تأثير في المتلقي (٢).

فالتعريض هو ضرب من الكناية، ويعتمد إدراك مفهومه على السياق، لذا فإن مدلوله خفي مستتر يهتدي إليه المتلقي ويكشفه من خلال ظرف القول ومناسبته وما إليهما من قرائن لا ينبض بها البناء اللغوي مباشرة وإنما تنهأ في حدث تاريخي ومدعاة اجتماعي وعارض شخصي، ومع ذلك كله ينبغي أن تتوفر هذه القرائن لنلأ يضل المتلقي ويتيه عن المراد من التعريض (٣)، وقد ورد (التعريض) في القرآن الكريم بكثرة ملحوظة تكشف أمثله القرائنية عن طبيعته بوصفه ضرباً من ضروب الكناية.

أما التلويح فهو في اللغة أن تشير إلى غيرك من بعد (٤) وفي الاصطلاح: هو الكناية التي بينها وبين المعنى المكنى عنه مسافة متباعدة وذلك بسبب كثرة الوسائط التي تتوسط بين اللفظ الكنائي وبين المعنى المكنى عنه المقصود (٥).

وأما الإشارة والإيماء فهما لفظان مترادفان يلتقيان لغة في أن تشير إلى قريب منك إشارة واضحة (٦) وفي الاصطلاح هما الكناية التي قلت وسانطها مع وضوح المكنى عنه الذي تفصي إليه (٧).

أما الرمز فهو في اللغة أن تشير إلى قريب منك بنحوشفه أو حاجب (٨) وقيل أصل الرمز: "الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال الفراء: الرمز بالاشفتين خاصة (٩) وقال ابن منظور: "الرمز تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠. وينظر: الإيضاح: ٤٦٦ / ٢.

(٢) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٢٤.

(٣) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٢-٣٣١.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٥٨٦ / ٢ (لوح).

(٥) ينظر: الإيضاح: ٤٦٦ / ٢. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص ٣٧٥.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٢٠١ / ١ (وما) و: ٤ / ٤٣٦-٤٣٧ (شور).

(٧) مفتاح العلوم، ص ١٩٤. الإيضاح: ٤٦٧ / ٢، والبلاغة والتطبيق، ص ٣٧٧.

(٨) ينظر: أساس البلاغة، ص ١٢٧٨ (رمز)، الإيضاح: ٤٦٦ / ٢.

(٩) العمد: ٣٠٦ / ١.

بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إيانة صوت، إنما هو إشارة بالشفتين " (١). فالرمز في لغة العرب على وجه الاجمال هو الاشارة، وفي كلامهم ما يدل على أن الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة، فقد تصحب الكلام فتساعده على البيان والافصاح، لأن حسن الاشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان كما يقول الجاحظ (٢). أو تنوب الاشارة عن الكلام فتستقل هي بالدلالة، أو أن الانسان يلجأ إلى الاشارة حين العجز عن الكلام كالذي جعله الله آية لذكرنا ﷺ على ما بشره به من الولد، لما دعا الله - تعالى - أن يجعل له آية على ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ فَلَئِنَّ آيَاتِهِ إِلَّا رَمْتًا ﴾ (٣).

والجاحظ أول أديب عربي اطلال في الكلام على الاشارة، وجعل الاشارة ضرورة للخطيب، لكنه لم يبالغ فيها (٤)، وتمتاز دلالة الاشارة بما يأتي:  
- إنها سريعة قصيرة.

- غير مباشرة أي لا تفصح عن دلالتها إفصاحاً مباشراً، لأن الدلالة المباشرة تكون بطريق الألفاظ بحسب ما تدل عليه من معانيها اللغوية الوضعية.  
- أن تكون خفية، والخفاء هو نتيجة الخاصتين السابقتين، فهي لسرعتها وقصرها لا يفهما إلا الفطن الذي يكون ذهنه مهياً لها، كما أن الدلالة غير المباشرة بطبيعتها هي أقل وضوحاً من الدلالة التقريرية المباشرة (٥).

أما في الاصطلاح فقد أطلق البلاغيون المتأخرون (الرمز) على الكناية الرامزة وهي التي قلّت وسانطها إلى المكنى عنه مع خفاء (٦) وقد تناول البلاغيون أمثلة من التعابير العربية الموروثة شواهد عليها، منها قولهم: (عريض القفا) كناية عن البلادة (٧). فإن لزوم البلادة لعرض القفا لا يعرفه إلا القليل، وكذلك قولهم: عريض الوسادة، لينتقل منه

- (١) لسان العرب: ٥ / ٣٥٦ (رمز).  
(٢) البيان والتبيين: ٧٠/١. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، ص ٤١-٤٤.  
(٣) سورة آل عمران، من الآية ٤١. وينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٤٢.  
(٤) ينظر: البيان والتبيين: ١ / ٦٦٤، ٧٠، ٧٧، ٧٨.  
(٥) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٤٣.  
(٦) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٤. وينظر: الايضاح: ٢ / ٤٦٦، والبلاغة والتطبيق، ص ٣٧٦.  
(٧) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠. وينظر: الايضاح: ٢ / ٤٥٨.

إلى عرض القفا، ثم إلى اليلادة، فالواسطة بين الكناية وما ترمز إليه شيء واحد، ولكنه لازم خفي<sup>(١)</sup>، ومنها قولهم: (أملس الجلد) كناية عن الذي لم يَدَنَّ س بعار ولم تصبه مثابة حيث كان يُقال للرجل الذي لا يَلصق به دم هو أملس الجلد<sup>(٢)</sup>.

فالكناية الرامزة عند هؤلاء البلاغيين قد استوتت تعبيراً لغوياً، لا يعسر تحديدهمفهومها ومدلولها كما لو كانت بناءً لغوياً متعارفاً عليه في تداوله والعدول به عن اللفظ المباشر الصريح<sup>(٣)</sup>. وحتى الشعراء الذي استخدموها أداة في التعبير والتصوير على الرغم من خفائها فإنها قريبة إلى ذهن المتلقي فيما تُشير إليه من معان وأفكار ولا تجهد في خفائها وغموضها، ومما مثّل به البلاغيون للرمز قول أحد القدماء يصف امرأة قُتل زوجها وسُيبت:

عَقَلْتُ لَهَا مِنْ رَوْجِهَا عَذَّ الْحَصَى      مَعِجَ أَوْ مَعِجَ جُنْحَ كُلِّ أَصِيلٍ  
يريد اني لم اعطها عقلاً ولا قوِداً بزوجهها، إلا الهمم الذي يدعوها إلى عذ الحصى.  
وأصله من قول امرئ القيس:

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِداً      أَعَدَّ الْحَصَى مَا تَنْقُضِي عِبْرَاتِي<sup>(٤)</sup>  
فالشاعر في حالة نفسية من القلق والهم والحزن، وقد رمز لحالته النفسية بوضع الرداء على الرأس، وعذ الحصى، وسيلان العبرات وهي بديلة عن عبارات صريحة مثل (أنا حزين أشاعل نفسي فلا تجدي مشاغلتني فما أنفك أبكي). فما استعمله الشاعر من كنايات رامزة عللرغم من خفائها فإنها قريبة إلى المتلقي فيما ترمز إليه لا يتيه في الإغراب ولا يضل عن المقصود، وبهذا المفهوم أصبح الرمز من الكنايات الفنية بما فيها من طاقة إيحائية قد تقرر بناؤها على وفق سنن العربية وما جرى به معجمها الاجتماعي الفني<sup>(٥)</sup>.

وأجلى خصائص الكناية الرامزة الإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وبسبب هاتين الخاصيتين يلقها الخفاء والغموض. والإيجاز وغير المباشرة هما الدعامتان

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠.

(٢) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٣.

(٣) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٤.

(٤) العمدة: ٣١٥ / ١. وينظر: البلاغة والتطبيق، ص ٣٧٦.

(٥) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي، ص ٣٣٤.

الأساسيتان للرمزية في الأدب العربي<sup>(١)</sup>، فالإيجاز يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء، لأنه يترك على أطراف المعنى ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حين تبرز وتتلون وتنسج، وتتسبب إلى معانٍ أخرى، يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل<sup>(٢)</sup>. واما غير المباشرة في التعبير - الدعامة الثانية للرمزية العربية - فهي من خواص اللغة الأدبية بوجه عام. ومعنى هذه الخاصية: الخروج على أوضاع اللغة، لصلة من الشبه، أو لأية علاقة من التجوز<sup>(٣)</sup>. وقد سلك الأدب العربي إلى غير المباشرة في التعبير مسالك مختلفة أسهبا: الكناية والمجاز، يقول عبد القاهر الجرجاني في "فصل في اللفظ يطلق والمراد غير ظاهره": "اعلم أن لهذا الضرب اتساعاً وتقناً لا إلى غاية، إلا أنه على اتساعه يدور في الأمر الأعم على شئين: "الكناية والمجاز"<sup>(٤)</sup>.

والغموض الناشئ عن هذين الخاصيتين هو غموض مستحسن ما دام سببه دقة الفكرة وعمقها، ويرجع عبد القاهر الجرجاني استحسانه لهذا الغموض الفني إلى طبيعة نفسية فيقول: "من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلاً وأطف، وكانت به أضن وأشغف، وكذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظما"<sup>(٥)</sup>. أما الغموض المتفعل الذي يكون نتيجة تعقيد الأسلوب وسوء ترتيب الكلام فهو غموض مذموم عند الجرجاني، لأنه يكدّ الذهن فيما لا طائل تحته، ويقول عبد القاهر: "والمعقد من الشعر والكلام لم يذمّ لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجدلة، بل لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرفه، ويشيك إلى المعنى، ويوعر مذهيك نحوه. بل ربما قسم فكرك، وشعب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب"<sup>(٦)</sup>.

فالأصل في جمال الغموض في التعبير الأدبي عند العرب أن يكون مصدر طاقة إيحائية يترك على أطراف المعاني ظلالاً خفيفة تعمق المعنى وتلونه وتوسعه لا أن يكون

(١) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٥، ٦٨.

(٢) دفاع عن البلاغة، ص ٩٩.

(٣) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٥.

(٤) دلالات الإعجاز، ص ١٠٥.

(٥) أسرار البلاغة، ص ١١٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٥-١٢٦.

مغلقاً يقف أمامه القارئ حائراً دهشاً - فلا جمال ولا فن - (١)؛ ومن ثم يمكن أن يلتقي مفهوم الرمز في المذهب الرمزي الغربي مع مفهوم الرمز في الأدب العربي في عدد من الخصائص الفنية، فكلاهما إيحائي بجوهره لا يكفي بتصوير الأشياء المادية، بل يسعى إلى نقل تأثيرها في النفس بعد أن يلتقطها الحس. وغاية الشاعر الرمزي الوصول إلى خلق حالة نفسية معينة في جو القصيدة.

ولما كانت اللغة العادية، التي لا تتعدى الشيء المحسوس عاجزة عن نقل الحالات النفسية الغامضة، لجأ الشاعر إلى الرمز لما فيه من طاقة إيحائية في التعبير عنها (٢). فالرمز هو استحضار لتجربة شعورية، يقول الناقد كينيث بيرك: إن الرمز هو المقابل اللفظي للتجربة الإنسانية المعاشة، ولذلك فهو يتميز بالقوة والحيوية والتدفق والتعقيد، ولا يعني التعقيد صعوبة إدراكه ولكنه يعني تعدد الأبعاد والجوانب، وهذا يمكن الرمز من أن يبرز الخط الرئيسي في العمل الأدبي ويزيد من اقناعنا به (٣)، وأحياناً يكون الرمز بمثابة تنفيس للعواطف والاحساسات التي أثارها العمل الأدبي داخل القارئ، وأحياناً أخرى يقوم الرمز ذاته بإثارة العواطف والاحساسات الراكدة داخله، وهكذا تتعدد وظائف الرمز بتعدد واختلاف النصوص الواردة بها (٤) وهو في كل يقوم بوظيفة عضوية في العمل الأدبي.

أما إذا أصبح الرمز وسيلة تعقيد وعموض شديدين كما هو طابع الرمز عند الغربيين - على الأعم الأغلب -، وهو من المآخذ التي أخذها النقاد عليها (٥) فإنها تفترق بذلك عن مفهوم الرمز العربي في التعبير الأدبي عند العرب بوصفه طاقة إيحائية في التعبير والتصوير.

(١) ينظر: الرمزية في الأدب العربي، ص ٦٦.

(٢) ينظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطوان كرم، ص ١٢. وينظر: الأديب الرمزي، هنري بير، ترجمة: هنري زغيب، ص ٦٠-١١. وينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، أمية حمدان، ص ٢٨-٢٨.

(٣) المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العنيفة، دبيل راغب، ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٥) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص ٣١.

وثمة مأخذ كثيرة أخذها النقاد على الرمزين منها: إسرافهم في عدّ الشعر ضرباً من الموسيقى الخالصة<sup>(١)</sup>، ونزعهم الذاتية المسرفة في تبليغ آرائهم في الحقائق النفسية والكونية، واعتمادهم الأحلام والروى للوصول إلى أعماق النفس، فجاءت صورهم الشعرية غريبة غامضة يعسر على القارئ إدراكها<sup>(٢)</sup> وفهمها. هو ما يلاحظ في الرمزية الغربية وما يأتي على شاكلتها في الأدب العربي الحديث حيث نزع أصحابها إلى تقليد الغرب<sup>(٣)</sup>. ويمكن القول على وجه الإجمال: "أن الرمزية الغربية في جملتها مذهب انطواني يجنح إلى الأثرة ويعيش في الظلام. مذهب يدعو إلى اعتزال المجتمع ويضنّ بالأدب أن يكون هادياً ومرشداً إلى الخير والحق، وينفر من العقل والمنطق ويجنح إلى الخيال الشارد والوهم الذي لا سند له من التفكير المستقيم ويخلط بين المدركات الحسية التي أراد لها الله أن تكون متميزة، فجعل لكل مدرك حاسة وجعل الحواس خمساً لا واحدة. وهو مذهب يطلب المستحيل فلن يكون الشعر أبداً موسيقى خالصة، لأنّ الأشعر مكوّن من كلمات، والكلمات مرتبطة بمعانيها، ولا يمكن أن تتجرد من هذه المعاني لتصبح نغمات خالصة كما تبين ذلك للرمزين الغربيين أنفسهم، فاعترفوا بعجزهم عن تحقيق هذا المطلوب الجامح، كما لا يمكن كذلك أن يتصل الفنان الشاعر بعالم الجمال الأعلى عن طريق شعره وفنه، يتخذ من ذلك تعالوياً ورقياً ليصل إلى سر الوجود وهو مغمور في حماة الذنوس والرديلة، كما كان معظم أدباء الرمزية"<sup>(٤)</sup>.

أما الرمزية في القرآن الكريم فلا بدّ من الإلمام بها إمامة عاجلة لأنها متصلة بموضوعنا اتصالاً وثيقاً، فقد احتوى القرآن على صور تمثّل الرمزية العربية في أسسها ومظاهرها وفي كلا ركنيها: الإيجاز، وغير المباشرة في التعبير<sup>(٥)</sup>، فالرمزية في القرآن في جملتها جارية مجرى الرمزية العربية ذات المعاني المقررة المحددة التي تستشف من

(١) ينظر: الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، ص ٥٧. وينظر: المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العنيفة، ص ١١٦.  
(٢) ينظر: الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، ص ٢٨.  
(٣) ينظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، انطوان عطاس كرم، ص ١٨٣.  
(٤) الرمزية في الأدب العربي، ص ٥٤٢-٥٤٣.  
(٥) نفسه، ص ١٨٨.

العبارة الموجزة والصور المجازية والكنائيات وما إلى ذلك مما لا يعبر مباشرة عن المعاني (١)

والتعبير الرمزي في القرآن تجده ممتاثراً في أغلب سورته مما يحمل على إرادة الرمزية بمعناها الدقيق (٢) فهو يخذ الرمز وسيلة مهذبة من وسائل التعبير الفني، دون تجريح أو تقريع أو لوم أو تعذيف، بما يترك شعوراً عامضاً بالنفس أو أسى داخلياً في المشاعر والعواطف، وإنما يمسّ النفس مساً رفيقاً، ويداعب العواطف مداعبة هادفة (٣) من ذلك كنياته الأدبية المبنوثة في كثير من سورته، منها قوله - تعالى - في صفة المسيح ﷺ وأمه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (٤) فاي أدب أسى من هذا الأدب الذي يتمثل في الكناية بأكل الطعام عن الغائط والبول، لأنهما بسبب منه إذ لا بد للأكل منهما (٥) وقوله - تعالى - في المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ (٦) فكنى بالإفضاء عن الإصابة، وقيل عن الخلوة، والأول أصح لأن العرب إنما تكني عما يفتح ذكره، والخلوة لا يفتح ذكرها (٧) وغير ذلك من الكنائيات القرآنية التي أوالها البلاغيون والنقاد العرب عناية بالذكر وبيان المعاني التي تنطوي تحتها، كما عرضناها في هذا التمهيدي، ولا بد من القول إن ما ذكره البلاغيون والنقاد والمفسرون من الكنائيات القرآنية كان محدوداً إذ يكره - على الأغلب - اللاحق منهم ما ذكره السابق من شواهد الكناية القرآنية، لذلك ظلّت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كله (٨) استقصاء يجمعها على صعيد واحد يمهّد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبين خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

(١) الرمزية في الأدب العربي، ص ١٩٤.

(٢) أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، ص ١٢٢.

(٣) نفسه، ص ٢١.

(٤) سورة المائدة، من الآية: ٧٥.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٤.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٢١.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١١.

(٨) ينظر: الأسلوب الكناني نشأته تطوره بلاغته، محمود السيد شيخون، ص ٥٧-٥٨.



## الفصل الأول

# الكناية الجنسية



## الفصل الأول

### الكناية الجنسية

نقصد بالكناية الجنسية الكناية الدالة على العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته بالدرجة الأساس، إذ إنّ هناك نوعين من العلاقة الجنسية: العلاقة الجنسية المشروعة، وهي علاقة التزاوج بالطريق المشروع الذي أحله الله ﷻ، وهي علاقة تحقق أهدافها ومنها الحفاظ على كيان المجتمع الإنساني من الضياع والتفكك والدمار، أما النوع الثاني: العلاقة الجنسية غير المشروعة بطريق الفوضى والإنحلال والتفسخ في الخلق، فهي العلاقة التي حرّمها الله وحرّمها الشرائع والقوانين<sup>(١)</sup>

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذين النوعين من العلاقة الجنسية بالأسلوب الكناني السوي، وبخاصة عن الفعل الجنسي بين الزوج وزوجته، إذ لا يصرح بهذا الفعل في القرآن كلّهُ<sup>(٢)</sup>، وإنما يُكنى عنه بالألفاظ تدل عليه، فهو مرة يكنى عنه بـ (الملاسة والمس والغشيان والتقرّب والإقضاء والدخول والإتيان والمباشرة والرفث والتمتع والاعتزال واللباس والهجر في المضاجع والسر...) في الحياة الدنيا، ومرة يكنى عنه بـ (الطمث والفرش المرفوعة) في الجنة في الحياة الأخرى.

وإذ لا يصرح القرآن بالفعل الجنسي فإنه يعمد باستبدال الألفاظ قبيلة فاحشة بالألفاظ حسنة في التعبير عن المعنى المقصود، وبذلك يتجلى البعد التهذيبي الذي تنطوي عليه الكناية القرآنية الجنسية، فهي تتسامى وترفع عن التصريح بالألفاظ المفحشة التي تخذش الشعور وتحط من الذوق الجمالي، وبذلك تبعث الكناية القرآنية جواً نفسياً إيجابياً خاصاً عند المتلقي لها يختلف عما تبعثه الدلالة التي يؤديها التعبير المباشر.

(١) ينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك السعدي، القسم الأول، ص: ٣٤.

(٢) أما الفعل الجنسي غير المشروع كالزنا، فإن القرآن يصرح به أحياناً كما سيأتي بيانه.

وقد أشار البلاغيون القدامى إلى هذا البعد التهذيبي في دراستهم للكنائية، من ذلك ما ذهب إليه المبرد بقوله: " من الكناية - وذلك أحسنها - الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره " (١).

فالبعد التهذيبي التربوي هدف من أهداف الكناية القرآنية، ويتجلى هذا الهدف بخاصة مع الكناية الجنسية في التعبير عن العلاقة بين الزوجين، فيرتفع بهذه العلاقة إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إحياءات الكناية القرآنية الجنسية نلاحظ إحياءاً للإنسان بالصورة " الإنسانية " في المباشرة والالتقاء.

وفضلاً عن هذا البعد التهذيبي التربوي فإن الكناية القرآنية الجنسية تحقق كذلك إحياءات فنية تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه لا نلمحها في التعبير الصريح الفاحش، وذلك لأن الكناية وسيلة حيوية في التعبير، لكونها من الأساليب الإيحائية، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة، وإنما يعمل الذهن فيها والخيال في الوقوف على المعنى المقصود.

والقرآن يختار الكناية اختياراً دقيقاً في التعبير عن المعنى المراد، إذ إن " كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها " (٢) تؤدي معناها، وتحقق في سياقها أبعاداً معنوية ونفسية وجمالية.

(١) الكامل: ٢ / ١٩١ ، وينظر مثلاً: البرهان في وجوه البيان ، ابن وهب ، ص ١٣٣ . وسر الفصاحة ، ص ١٥٥ - ١٥٦ . وبتدع القرآن ، ابن أبي الأصمح المصري ، ص ٥٢ . والتبيان في البيان ، للطبيعي ، ص ٢١٤ .

(٢) تفسير المنار ، محمد عبده: ٢ / ١٧ . وينظر: من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، ص ٥٧ .

(\*) لا يعبر القرآن بلفظ (الزنا) إلا عندما يكون هناك داعٍ للتعبير بهذا اللفظ الصريح كسياق نهي يتطلب التعبير المباشر كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَا كَانَ سَبِيلاً ﴾ [سورة الإسراء ، الآية: ١٢] ، وهذا التعبير المباشر قليل إزاء التعبيرات الكنائية عن الزنا نفسه ، فهو يعبر عنه بالتعبير الكناية: ﴿ قَمَنَ ابْتِغَىٰ زَوْجَةً لَّكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية: ٧] و [سورة المعارج: الآية ٣١] ، وبالفاحشة في عدة مواضع: [سورة النساء ، الآية: ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٥] و [سورة النور ، الآية: ١٩] ، و [سورة الأحزاب ، الآية: ٣٠] و [سورة الطلاق ، الآية: ١] ، وبالغبت في موضع واحد: [سورة النساء ، الآية: ١٢] ، وبالمراودة في ستة مواضع من [سورة يوسف ، الآية: ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١] .

أما (اللواط) فلم يرد بلفظه ، بل مكنت عنه بالفاحشة ، ينظر: [سورة الأعراف ، الآية: ٨٠] ، و [سورة النمل ، الآية: ٥٤] و [سورة العنكبوت: ٢٨] ، وكنتى عنه بالمراودة في [سورة القمر ، الآية: ٣٧] . وباللاتيان في [سورة النساء ، الآية: ١٦] و [سورة الأعراف ، الآية: ٨٠] و [سورة النمل ، الآية: ٥٤] و [سورة العنكبوت ، الآية: ٢٨] . وجعل (اللواط) من جملة الأعمال الخبيثة ، فقال في حق قرية لوط: ﴿ كَانَتْ مَكَّمَلًا لِّلْقَوْمِ ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية: ٧٤]

فيتجلى بذلك البعد التهذيبي الذي يحرض عليه القرآن لتربية الأدواق والنفوس ، وفضلاً عما ذكرنا ، ينظر الآيات الآتية التي احتوت كنايةات نوات بعد تهذيبي: [سورة النساء ، الآيات: ١٩ ، ٢٠ ، ٢١]

كما أننا نلاحظ على هذا اللون من الكناية الجنسية في القرآن (التلويح والتعدد)، إذ يستخدم القرآن أكثر من سبع عشرة مادة لغوية كناية في التعبير عن المعنى المكنى عنه (الجماع) بين الزوج وزوجته، وفي كل كناية نلاحظ إحياءاً جديداً في سياقها فهي كلها تشترك في التعبير عن المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفترق فيما توحى به من إحياءات تندمج مع السياق الذي تكون فيه وتتسق، وفضلاً عن ذلك فإن هذا التعدد في الكناية الجنسية وهذه الكثرة الملحوظة - فيما نرى - تنطوي على دلالة موحية خاصة إذا ما قورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالة على الفاحشة ك (الزنا والواط) (٦) التي تقل قلة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين، وتتمثل هذه الدلالة في الحث على تضييق النطق بها والتداول بها في المجتمع، لأن تداولها يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس، لتشيع بعد ذلك في المجتمع فهو بعد اجتماعي مرتبط بالبعد التهذيبي، وهما من أهداف القرآن الذي يحارب الفاحشة أن تشيع في الواقع لأنها لا تُلبى الفطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع وتهديمه، على خلاف التعبيرات الكنائية المعبرة عن العلاقة الجنسية، بين الزوجين والموافقة للفطرة الانسانية، إذ يردف القرآن بعلاقة الزوجين والتقائهما عن المستوى الحيواني، ويقيم العلاقة الجنسية بينهما على أساس من المشاعر الانسانية الكريمة، التي تجعل من التقاء جسدين التقاء انسانين نفساً وقلباً وروحاً، توجه فيه طاقة الزوجين في هذا الالتقاء وجهة بناءة في المجتمع غايتها استئناف الحياة بإتجاب عنصر الحياة الفعال وهو الانسان.

وسنعمد إلى توزيع الكنايات الجنسية إلى موادها اللغوية المتنوعة في سياقاتها التي جاءت فيها، ثم ننظر في وظيفة الكناية في التعبير بوصفها أسلوباً إيحائياً غير مباشر يثير نوازع التأمل ويؤدي المعنى خير أداء.

[ سورة الأنعام ، الآية: / ١٢٠ ] و [ سورة النور ، الآية: ٢٦ ] و [ سورة المؤمنون ، الآية: ٧٢ ]  
و [ سورة القصص ، الآية: ٥٥ ] و [ سورة فصلت ، الآيات: ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ] .

## الرفث واللباس والمباشرة:

وردت هذه الكنايات الثلاث (الرفث واللباس والمباشرة) في سياق عبادة الصيام في قوله - تعالى -: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ مِنْ إِسَاءِكُمْ وَأَنْتُمْ بِمَا لَكُمْ مِنْهُنَّ عَلِيمٌ اللَّهُ أَنْزَلَ لَكُمْ تَحْتَابُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَنْعَمُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَكُوا وَأَشْرُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْطُ الْأَيْضُ مِنَ الْغَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشِرُوا بِهِمْ وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ فِي الْمَسْجِدِ يَتَاكُمُ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ الْبَيْتَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١﴾

يختار القرآن الكناية المفردة ﴿الرَّفَثُ﴾ في سياق عبادة الصيام، ونعني بالكناية المفردة وقوعها في اللفظة الواحدة<sup>(٢)</sup>، والرفث هي أنسب كناية في التعبير عن معناها في هذا السياق، لأن الرفث في حقيقته هو: "كلام متضمن لما يستقبح من ذكر الجماع ودواعيه"<sup>(٣)</sup> أو هو "الفحش من القول، وكلام النساء في الجماع"<sup>(٤)</sup>، فاللفظ الكنائي في حقيقته دال على معنى القبح لا نجده في لفظ كنائي جنسي آخر كالإقضاء أو الغشيان أو المباشرة أو غير ذلك مما جاء في القرآن كله من كنايات جنسية، وذلك لأن معنى القبح في كناية الرفث مقصود في سياقه، وقد علل الزمخشري استعمال هذه الكناية في سياقها بالاستهجان، وذلك لما وجد منهم قبل الإباحة كما سماه اختياراً لأنفسهم<sup>(٥)</sup>، ويبدى المعنى الحقيقي لهذا اللفظ يظلل السياق بمعناه، وإن كان المقصود منه المكنى عنده الموصوف وهو (الجماع)، ويذل على هذا المكنى عنه تعديته بحرف الجر ﴿إِنْ﴾: ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فيتبعين المعنى المقصود وهو الإقضاء (الجماع) لأن الرفث في معنى الإقضاء، يُقال: أفضيت إلى المرأة، فجاء بالي مع الرفث إيداناً وإشعاراً أنه بمعناه<sup>(٦)</sup> وبينهما - المعنى الحقيقي والمعنى المكنى عنه - من

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٥٩ / ٣، والطراز: ١ / ٤٢٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، ص ٢٩٠.

(٤) لسان العرب: ٢ / ١٥٣ (رفث)، وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن، حسين محمد مخلوف، ص ٤٤.

(٥) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٢٨، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١ / ٣٠٩ - ٢١٠، فيما وجد منهم قبل الإباحة.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٢ / ١٥٤، وتفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢ الكتاب الأول.

(\*) وهو أن تزيد دلالة على معنى من المعنى، فلا تأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل يلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع. ينظر: نقد الشعر، ص ١٥٧، وحلية المحاضرة: ١ / ١٥٥، وكتاب الصناعتين، ص ٣٥١، وتحرير التحبير، لابن أبي الأصبغ المصري، ص ٤٠٧.

التلازم والارتباط وهذا هو الازداف عند البلاغيين<sup>(١)</sup>. فالتابع هو ﴿أَرْفَتْ﴾ بمعناه الحقيقي وهو المُكْنَى به، والمتبوع هو (الجماع) وهو المُكْنَى عنه المقصود، ولما تحقق المقصود من قرب، والقرب هو الانتقال إلى المطلوب بسهولة ويسر تسمى الكناية عندنا قريبة واضحة<sup>(٢)</sup>. ولقرب كناية الرفث ووضوحها قيل بأنها حقيقة فيما تشير إليه من معناها الحقيقي وفي إطلاقها على الجماع<sup>(٣)</sup>.

ولما كانت الكناية في سياق عبادة الصيام، فقد عبرت عن جو عبادة الصيام في صورة يعجز التعبير عنه غير هذا الكناية، لأن اختيارها كان لقصد جمع المعنيين الصحيح والكنائي<sup>(٤)</sup>. لا الاقتصار على المعنى المُكْنَى عنه حسب، وبهذا الجمع بين المعنيين توحى الكناية بإحياء ينسج مع عبادة الصيام إتساقاً فنياً ملحوظاً، إذ يظل المعنى الحقيقي الصريح يظل السياق بمعناه، وهو من المفطرات للسانم، فإذا كان مُحَرِّماً في أثناء الصيام بين الزوج وزوجته نهاراً، فإنه مُباح ليلاً، وبذلك تكون الكناية موحية بما يصاحب المكْنَى عنه من قول يلزمه وشعور يرتفع بالفعل الجنسي لأنه من شؤون الالتذاز بين الزوجين بما يليق بهما بوصفهما إنسانين، وتتواشج من كناية الرفث وتتصل بها وتعمق معناها الإندسائي الكناية المفردة الأخرى ﴿يَأْسُ﴾: ﴿مَنْ يَأْسُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْسُ لَهُنَّ﴾ القاسمة في بنيتها على الاستعارة التصريحية<sup>(٥)</sup> حيث استعار (اليأس) للزوجين بجامع شدة الاتصال بينهما، فاللباس من معانيه التغطية والستر، فالمراد هو "قرب بعضهم من بعض واشتغال بعضهم على بعض كما تشتغل الملابس على الأجسام"<sup>(٦)</sup>. وبهذا المعنى الذي أشارت إليه الاستعارة تتجلى رحمة الله وعنايته برفع العنت والمشقة بتحليل الرفث اليهن في الليل، لأن الأمسك عن قربان النساء في الليل عنت ومشقة لأنه وقت الاضطجاع، على خلاف الأمسك عنهن في النهار لإمكان الاستعانة عليه في النهار بالبعد عن المرأة<sup>(٧)</sup>. ففي تحليل الرفث وقاية من تعاطي القبيح، قال الراغب: "ليس الثوب: استتر به.. وجعل اللباس لكل

(١) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٩٠.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢ الكتاب الأول.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ٢٣٤، الكتاب الأول.

(٤) الاستعارة التصريحية: هي الاستعارة التي يذكر فيها (المشبه به) الذي هو (المستعار منه) صريحاً، ويحذف (المشبه) الذي هو (المستعار له). ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٧٤.

(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي، ص ١٢. وينظر: المتكخب من كفايات الأدباء وإشارات البلغاء، للجرجاني، ص ١٠٤٧.

(٦) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٢، الكتاب الأول.

ما يغطي من الإنسان عن قبيح، فجعل الزوج لزوج له لباساً من حيث أنه يمنعها ويصدها عن تعاطي قبيح" (١) سواء أكان المقصود بالقبيح ما وجد منهم قبل الإباحة، أو غير ذلك من مذكر أو خيانه، وبذلك تلوح الملابس في الاستعارة بين الزوجين بالمعنى المكتى عنه المقصود وهو "الجماع" (٢) وبه يتحقق معنى ستر الزوج الزوجة، والزوجة الزوج، فكلاهما يستر الآخر، كما دلّ اشتراكهما بمشبه به واحد ﴿لِيَأْسَ﴾، ولينعمق ذلك الملامح الإنساني في اتصالهما، إذ يغدو الزوجان وكأنهما حالة واحدة، جسداً ونفساً وروحاً، بل هما كذلك، صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن، قال ابن عباس: "هَنْ سَكُنْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكُنْ لَهُنَّ" (٣) وهي صلة الستر والتجمل، إن الكناية جيب دلّ على تعبير كامل عن حقيقة الأصل التي يقترضاها القرآن بين الزوجين، وبهذه المعاني الإنسانية الكريمة التي أوحى بها كناية ﴿لِيَأْسَ﴾ بياشر الزوج زوجته ﴿فَأَلْفَنُ بَشِيرُوهُنَّ﴾ فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من النقاء البشريين (٤) وفيها إيحاءان ينسجمان مع السياق:

- أن المباشرة في الفعل للزوج، أي أعطائه الفاعلية من خلال الأمر (بأشراً)، فهو أولى بالفاعلية، وهو أشد حاجة بالتذكير بالمعاني الإنسانية التي أوحى بها كناية ﴿لِيَأْسَ﴾ فطرة، وأقدر على رفع هذه العلاقة الإنسانية إلى مستوى القداسة.

- الإيحاء بإباحة الفعل (المكتى عنه) الذي كان محرماً قبلاً ذلك (٥).

والكناية المباشرة تنطوي على حكمة سديدة لأنها تحقق الغاية المرجوة، كما أفاد التعبير الكناني جفّف ﴿وَأَبْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الذي يقيد في معناه القريب: طلب ما أباحه الله من مباشرة النساء في غير وقت الصيام، أما معناه المكتى عنه البعيد فهو (الولد)

(١) المفردات، ص ٦٧٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٤. وينظر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، فتحى أحمد عامر، ص ٤٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٠٩. وينظر: صفوة التفسير، محمد علي الصابوني: ١ / ١١٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٣. وينظر: المعاني الثمانية في الأسلوب القرآني، ص ٤٢٤.

(٥) كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فامسى فنام حرّم عليه الطعام والشراب والندساء حتى يفطر في الغد، فأنزل الله: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ النَّيْسَاءِ الرَّفَثِ إِنْ نَسِيتُمْ...﴾ ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ينظر: ذهاب الذنوب في أسباب النزول، لاسيوطي، بهامش تفسير الجلالين، ص ٦٧ وما بعدها. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٠٩.

(١) الثمرة المرجوة، ففي الكناية تحريض للناس على مباشرة الذساء عسى أن يكون الذمسل من ذلك، وذلك لتكثير الأمة وبقاء النوع في الأرض (٢).

ثم تنتهي الآية بالتقوى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ التذكير بالله وتقواه نلاحظه - على الأعم الأغلب - مع الكنايات الجنسية، وهو مقصود إذ يعمل على إظهار الحالة الانسانية الكريمة للزوجين وبروزها في علاقتهما الجنسية لينأى بها عن الطابع الحيواني البهيمي، ويعطيها بعداً إنسانياً فيرفع هذه العلاقة إلى مستوى القداسة المتصلة بالله وتقواه.

وتتكرر الكناية (الرفث) في سياق عبادة الحج فتُوحى بمعناها بدقة مقصودة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَقَ مِنْهُنَّ حَسْبًا فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ يَسْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرُودًا فَإِنَّكَ خَيْرٌ الرَّازِ النَّفْقَى وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَيْبِ﴾ (٣).

فالكناية (الرفث) تتسق مع جو عبادة الحج الذي يتجرد فيه العبد لله من كل أو هاق الدنيا وأدرانها، والارتدفاع على نواحيها، فهو رياضة روحية على التعلق بالله ﷻ دون سواه. ويصعد معنى التجرد الوصل بالواو الذي جمع الجدال والفسوق بالرفث على صعيد واحد بصيغة الذم التي يراد منها الذم ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا سُوءَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: "لا يرفث ولا يفسق وهو أبلغ من الذم الصريح، لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلاً، فإن ما كان مُذكراً مستقبلاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقيح وأشنع، ففي الاتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة" (٤). وإذا كانت الكناية يُراد منها المُكنى عنه (الجماع)، فإن المعنى الحقيقي لها (الفحش من القول...) يبقى مقصوداً، بان اختيارها دون غيرها كان لقصده جمع المعنيين الصريح والكنائي (٥) وهو مظهر من مظاهر دقتها وإعجازها، لأن إرادة المعنيين يتطلبه سياق عبادة الحج، وذلك تضييقاً لمساحة المحذور إلى أقصى حد، وتبقى منافذ الخير والتقوى مفتوحة على إطلاقها، يحث عليها السياق ويحجب إليها ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ يَسْلَمُهُ اللَّهُ﴾. ثم يذكر السياق بالتقوى كما ذكر بها في سياق عبادة الصيام ﴿وَأَتَقُونَ يَتَأُولَى الْأَيْبِ﴾ لأن التقوى هي الضمانة الحقيقية في

(١) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٣٨.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ١٨٣، الكتاب الأول.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٤) صفوة التفسير: ١ / ١٣١.

(٥) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢ / ٢٣٤، الكتاب الأول.



المطلوب من بعد، أي ينتقل إلى المقصود عبر وسائط متعددة<sup>(١)</sup>، وفي الكناية تتمثل هذه الوسائط بسعة المعاشرة الزوجية بينهما في كل صورها المادية منها والمعنوية كما تُوحي الكناية، إذ إن الفعل الكنائي ﴿أَفْضَى﴾ مطلق في دلالاته لم يقيدته مفعول محدد، أي لا يقف مدلوله عند حدود (الجماع) بل هو يشمل العواطف والمشاعر، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجلوب، فالكناية على إطلاقها تُوحي بكثير من الصور لتلك الحياة المشتركة بين الزوجية أثناء الليل وأطراف النهار فيتضاءل إلى جوار هذه المعاني ذلك المعنى المادي، فيجدل الزوج أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله، وفي وجدانه ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر الماضية في لحظة الفراق الأسيف<sup>(٢)</sup>.

وفي الكناية معانٍ أخرى تُوحي بها، إذ فيها إحياء التحول من حالة إلى حالة يَدُكر بها القرآن الزوجين، التحول والانتقال من فردية الزوج - الرجل والمرأة - بالإقضاء إلى قضاء الأسرة الرحيب، أي التحول بالإقضاء من عالم الفرد المغلق على ذاته إلى عالم التواصل الأسري الذي هو فضاء إنساني يتجاوز فردية الإنسان ويسمو به حيث الطمأنينة والسكن والاستقرار، وفيه يقضي ما بداخله إلى زوجه، فيلاصق أحدهما الآخر إلى حد التوحد من أجل خلق كيان واحد جديد، فيقدر ما يكون الإقضاء انطلاقة في النفس والروح والمشاعر هو توحيد بالزوج أيضاً وغايته بناء الأسرة التي تنعم بالاستقرار والطمأنينة وبذلك تجلي الكناية أهمية هذه العلاقة الزوجية التي يقطعها الزوج إذ كان الإقضاء بكل معانيه التي كَتَبَهَا ﴿يَتَيْنَقًا غَلِيظًا﴾ كما تجسّمه الاستعارة المكنية ﴿غَلِيظًا﴾<sup>(٣)</sup> تعظيماً لشأنه وأهميته، فهو: "حق الصحبة والمضاجعة؛ كأنه قيل: وأخذن به منكم ميثاقاً غليظاً: أي بإقضاء بعضكم إلى بعض، ووصفه بالغلظ لقوته وعظمه"<sup>(٤)</sup>، وليكون المعنى مؤثراً لإحداث الاستجابة النفسية المرجوة في الزوج، وهي الامتناع عن أخذ مال الزوجة المرغوب عنها.

(١) ينظر: التبيان في البيان، ص ٢١٣، وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢ / ٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) الاستعارة المكنية: هي الاستعارة التي يحذف فيها المشبه به (المستعار منه) ويرمز له بأدبيات بعض نوازمه للدلالة عليه. ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٧٩. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، ص ٣٠٥.

(٤) الكشاف: ١ / ٥١٤.

ولا يخفى ما في الكناية ﴿أَفْضَن﴾ من معنى يرتفع بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى المستوى الإنساني الكريم. وللزوجة القيمة والاعتبار، ولها حقوق الرعية حتى وهي مطلقة مرغوب عنها.

### التفشي:

ورد الفعل ﴿تَفَشَّهَا﴾ كناية عن الجماع في قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِتْنًا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَفَشَّهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَبِيبًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبِنَ مَا تَبَتْنَا صَليماً لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١)

﴿تَفَشَّهَا﴾ كناية دقيقة عن "الجماع" (٢) في موضعها، فقد عبرت بإحباءاتها عن جو السياق الذي تشكلت فيه، فهي منبثقة في معناها ومتصلة بقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِتْنًا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، فالزوجة مخلوقة من نفسه، فهي بعض منه، وبذلك يتحقق معنى السكن والمحبة والإيناس على أبلغ وجه، قال الزمخشري: "﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمئن إليها ويميل ولا ينفرد، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه انس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه" (٣)، والكناية ﴿تَفَشَّهَا﴾ تصعد هذه المعاني وتصورها، يُقال: "غشيه غشاوة وغشاء: أتاه أنبان ما قد غشيه أي ستره، والغشاوة ما يُغطي به الشيء" (٤)، فهي تفيد ادخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف الممازجة وشديد الملازمة حتى ليغدو الفعل الجنسي معها امتزاج طائفتين لا التقاء جسدين، وفي ذلك إحياء للإنسان بالصورة "الإنسانية" في الفعل، واقتراحها عن الصورة الحيوانية البهيمية، فضلاً عن ترميق الكناية فنياً مع جو السكن (٥) والخلق من نفس واحدة.

فالكناية رمزاً لها أشارت إلى المطلوب من قرب بخفاء، وسميت رمزاً للاطف والإشارة (٦) إلى المقصود.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٢) الإتيان في علوم القرآن: ٣ / ١٤٤، وينظر: المنتخب من كليات الأنبياء وإشارات البلغاء، ص ١٠.

(٣) الكشف: ١٤٥/٢.

(٤) المفردات: ٤٥١.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٣ / ٧٠١.

(٦) ينظر: التبيان في البيان، ص ٢١٣.

ومن وراء الدلالة الحسية التي صورتها الكناية بين الزوج وزوجته التي يسكن إليها

نلاحظ:

- الستر والتغطية التي صورتها الكناية بالملابسة الحسية والاختلاط بشير إلى الستر بالدلالة المعنوية كذلك، إذ المعنى المُكنى عنه (الجماع) يأتي حاجة النفس فطرة، يليها بالكناية الموحية بالمودة القائمة بين المتغشّي والمتغشّى، وأن المتغشّي (الزوجة) تتقبل فعل الغاشي بارتياح وأنس وطمأنينة.

- فعل التغشّي الكنائي فيه خفاء لطيف يندمج والتعبير عن المُكنى عنه (الجماع) الذي

يتم بخفاء وتستر، وهو من لوازم الهدوء والطمأنينة والسكن.

- في الكناية ﴿تَغَشَّيَهَا﴾ إحياء بالفعل الجنسي الأول: فض (غشاء البكارة) ويعزز ذلك ويقويه سياق الآية أن هذا التغشّي مرتبط بهدفة وغايته، فهو ليس لمجرد الشهوة ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْنَاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا...﴾ هو فعل انساني هدفه بقاء نوع الانسان والحياة.

ثم يظل السياق كناية (التغشّي) بدعاء الزوجين وتضرعهما لله ربهما، مما يضفي عليها ذلك الطابع الإنساني الهادف، وهو المعنى الملحوظ عقب كل كناية جنسية.

## الاعتزال والتقرب والأتیان:

وردت هذه الكنايات الثلاث عن (الجماع) في قوله - تعالى - ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴾ ﴿ نَسَاؤَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ تُبْشِرُوا بِأَنْفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ لَكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

الاعتزال في قوله - تعالى - ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ كناية عن الامتناع عن الجماع في فترة الحيض، جاء في التفسير: "الحيض شيء يستقذر ويؤذي من يقربه زفرة منه وكراهة له ﴿ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ ﴾ فاجتنبوهن: يعني فاجتنبوا مجامعتهن" (٢). فالكناية أطلقت وأريد بها لازم معناها، وهو الامتناع عن إتيان الفعل الجنسي في هذه الفترة، والاعتزال هو: "تجنب الشيء بالبدن كان ذلك أو بالقلب" (٣). وليس المقصود بالكناية مطلق الاعتزال، وإنما هو اعتزال بالجسد عن ممارسة الفعل الجنسي حسب، وذلك على وجه الالتزام والوجوب كما دلت صيغة الأمر الحقيقي. جاء في التفسير: "والمراد التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مواكبتهن ومجالستهن كما يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة" (٤)، وهذا المعنى المكنى عنه تعززه كناية التقرب ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ بأسلوب النهي الحقيقي، فهي كناية عن الكف عن الجماع على وجه الالتزام والوجوب، والنهي عن قربه من أبلغ من النهي عن ممارسة الفعل، فالكناية وإن كان المقصود منها النهي عن الجماع، إلا أنها تشير في معناها الحقيقي القريب إلى نواحي الفعل (التقرب) المنهي عنه وهو يمثل واسطة بين اللفظ الكناني والمعنى المكنى عنه، وفي ذلك تشنيع ومبالغة في إتيان الفعل (الجماع) في فترة الحيض، وذلك لما فيه من ضرر للزوجين نفسياً ومادياً وبخاصة الزوجة. ثم تأتي الكناية ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ بصيغة الأمر على وجه الإباحة والترغيب بممارسة المعنى المكنى عنه (الجماع) بعد الطهارة من الحيض: "فإذا تطهرن بالماء فأتوهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد" (٥). وتوحي الكناية ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٢٢-٢٢٤.

(٢) الكشاف: ١ / ٣٦١. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٢٤٦.

(٣) المفردات: ٤٩٩.

(٤) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

(٥) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

بدلالة السهولة والبسرة في ممارسة المكنى عنه بعد تطهيرهن، قال الراغب: "الاتيان محيء بسهولة" (١) وهي دلالة نفسية ملحوظة بعد تطهير الزوجة من الحيض على خلاف وهي حائض. وتعمق هذه الدلالة بتكرار كناية الاتيان في السياق ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾ متواشجة مع التشبيه البليغ ﴿يَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ حيث شبه النساء وذلك لاندسجانه مع سياق الاخصاب والنسل. قال الزمخشري: "شبههن بالمحارث تشبيهاً لما يلقى في ارحامهن من النطف التي منها النسل بالبتور، وقوله: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ تمثيل: أي فاتوهن كما تاتون اراضيكم التي تربيون أن تحرثوها من أي جهة شئتم لا تحظر عليكم جهة دون جهة. والمعنى: جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحداً وهوة موضع الحرث" (٢). قال ابن عباس: "اسق نباتك من حيث يذيت" (٣) وذلك لتحقيق الهدف الأسمى: هدف النسل لامتداد الحياة، فكما أن الأرض موضع انبات الزرع الذي به بقاء الحياة والانسان، كذلك النساء موضع انبات الذي فيه بقاء نوع الانسان والحياة.

ونلاحظ على الكنايات الثلاث ﴿فَاعْتَرِلُوا، وَلَا تَقْرُوهُنَّ، فَأَتُوهُنَّ﴾ اعطاء الفاعلية فيها للزوج فيتناسب ذلك مع السياق والحالة النفسية للزوجة في فترة الحيض. فالحيض هو ﴿أذى﴾ ، والجماع فيه يضر بالزوجة مادياً وبخاصة، ولا ترغب هي فيه نفسياً كما أثبت الطب ذلك (٤). فلا جرم أن تكون الفاعلية للزوج لا للزوجة.

ثم يأتي تذكير الزوجين بتقوى الله وملاقاته - طريقة القرآن - بعد الكنايات الجنسية، ليضفي على العلاقة الزوجية ذلك الملمح الانساني الكريم، فضلاً عن التحنير من اتيان المرأة في غير موضع الحرث الذي لا يحقق الهدف الأسمى المرجو من الالتقاء.

(١) المفردات: ٧.

(٢) الكشاف: ١ / ٣٦٧. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن ، ص ٤٠.

(٣) صفوة التفسير: ١ / ١٤٢.

(٤) ينظر: الطب النبوي ، ابن قيم الجوزية ، ص ٢٠٣. وينظر: الاسلام والتربية الجنسية ، د. وجيه زين العابدين ، ص ٥٩. وينظر: الإعجاز الطبي في القرآن ، د. السيد الجميلي ، ص ٢٣٤. وينظر: العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوبتها في الشريعة والقانون: ٢ / ٤١٠.

## اللمس والمس :

وربت الكناية عن (الجماع) بمادة (لمس) في موطنين بصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة في قوله - تعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَفْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْرًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١﴾

قوله - تعالى - : ﴿أَوْلَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية، أي: "جامعتموهن" (١)، ونجد من بين اللفظ الكنائي ﴿لَمَسْتُمُ﴾ و بين المعنى المكنى عنه (الجماع) واسطة تتمثل في المعنى الحقيقي للمس، واللمس لا يكون إلا باليد خاصة (٢)، فالذهن لا يتنقل من المعنى الأصلي للفظ إلى المعنى الكنائي له مباشرة، وإنما يتم عبر واسطة تتمثل في فعل يتوسط بينهما، وهو المعنى الحقيقي للكناية (لمس) إذ يمثل مقدمة للفعل بوصفه مسهداً للفعل الجنسي بين الزوجين، فالكناية موحدة بمراعاة هذه الحالة النفسية والوجدانية للزوجين قبل اتصالهما جنسياً لكونه فعلاً إنسانياً متميزاً.

وأحسب أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) في هذا السياق دون كناية (اللمس) هو لقصد جمع المعنيين الحقيقي والكنائي إذ بهما يتعمق المعنى الإنساني للاتصال الجنسي بين الزوجين.

كما نلاحظ أن اختيار الكناية من مادة (اللمس) وبصيغة فاعل (لامس) الدالة على المشاركة منظور فيه سياق الآية، إذ إن (لامس) أكثر انسجاماً من غيرها ك (اللمس). واعطاء الفاعلية للزوج يتناسق مع سياق الآية وما فيها من أسلوب نهي حقيقي عن التقرب إلى الصلاة في حالة السكر - قبل تحريم الخمر نهائياً - (٣)، فهو نهي بموضوعه التصق بالرجل من المرأة، وكذلك موضوع المنفر. وإن كان المخاطبون بالآية هم المؤمنون جميعاً.. إلا أن ما ذكر من صفات التصق بالرجل من المرأة.. فضلاً عن إحياء الكناية بذلك البعد الإنساني في العلاقة الزوجية بما يليق بالزوجين برعاية الجانب النفسي والروحي، إذ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣، وسورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٣٢٩، وينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٧.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٤٩.

ليس المقصود مجرد (الجماع) حسب، وإنما إظهار ذلك الطابع الانساني الذي يطبع الفعل الجنسي بين الزوجين والذي يعمل على تمييز علاقتهما الجنسية وادامتها والارتفاع بها عن المعنى الحيواني الغليظ.

كما يتجلى من الكناية وسياق الآية الذي تشكلت فيه صورة من الأدب الخطابي السامي الرفيع يعلمنا القران اياه حين يتخاطب البشر فيما بينهم في مثل هذه الشؤون، فقد سبق الكناية الجنسية، الكناية ﴿أَوْجَاهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِبِ﴾ ، والغائظ: كناية عن حاجة ذي

البطن (١)، والغائظ هو المكان الذي يتم فيه الفعل، فهو يكتفي بذكر المكان والعودة منه لأنه ملازم له كناية عما تم فيه، وتصبغاً لهذا الأدب في الخطاب لا يمتد الفعل إلى المخاطبين، وإنما ينكره زيادة في أتب الخطاب المؤثر في النفس.

أما كناية (المس) عن الجماع فقد وردت في سبعة مواطن:

- بصيغة الفعل المضارع ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾ في ثلاثة مواطن في سياق الطلاق، في قوله

— تعالى ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ لهنَّ فَرْجَةٌ وَمَنْ مَسَّكُمْ عَلَى التَّوْبِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْرَبَةِ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)

وبصيغة الفعل المضارع ﴿يَمَسِّنِي﴾ في موطنين على لسان السيدة مريم (عليها

السلام) في قوله - تعالى - ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ

اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا ضَعِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣)

- وبصيغة الفعل المضارع ﴿يَتَمَسَّأُ﴾ في موطنين في قوله - تعالى - ﴿وَالَّذِينَ

يُظَاهِرُونَ

مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَسَّأَ ذَلِكَ تَوْعظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٤)

(\*) حرم الله الخمر في الإسلام على مراحل ، ينظر السور الآتية: البقرة ، الآية: ٢١٩ ، والذساة ، الآية: ٤٣ ، والمائدة ، الآية: ٩٠ . على الترتيب في نزول الآيات بتحريمها. ينظر: لباب القول في أسباب النزول ، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(١) ينظر: مجاز القرآن: ١ / ١٥.

(٢) سورة البقرة ، الأيتان: ٢٣٦ ، ٢٣٧ . وفي سورة الأحزاب ، الآية: ٤٩.

(٣) سورة آل عمران ، الآية: ٤٧ . وفي سورة مريم ، الآية: ٢٠.

(٤) سورة المجادلة ، الآية: ٣ ، والآية: ٤ من السورة نفسها.



بالأحرز، فيحرم عليهما الجماع" (١). وقال الزمخشري: "ثم يعودون لمثله، فكفارة من عاد أن يحزر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة" (٢).

وبلغت الانتباه أن الكناية ﴿بِمَآسَا﴾ أسندت فيها الفاعلية للزوجين، والبادي أن ذلك منظور فيه الحالة النفسية للزوجين، فالسياق يحدد الكفارة بتحرير رقبة أو صيام شهرين متتابعين لمن لم يجد رقبة يحزرها أو إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصيام. ولا يخفى - على الأقل - ما في صيام الشهرين المتتابعين من مشقة وجهه وهي فترة زمنية طويلة نسبياً، فلا يستبعد أن تتحرك نفساهما لتلبية دواعي الغريزة، مما لا يستبعد بإزائه حدوث الميل والفعل الجنسي من أي منهما على حد سواء.

ويجلى ما في الكناية من تذكير للزوجة على الصعید الإجتماعي والإنساني، إذ يحزر المرأة بما كانت تواجهه من عنق وخسف - كما دلّت حالة الظهار - فهو يكرمها وينشئ لها القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات، بوصفها زوجة لها حقوق الرعاية والتكريم، فارتفع بها وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الإنساني الرفيع.

### المجر في المضاجع:

وربت الكناية ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَسَبْتَ كَفَرْتُمْ فَحَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَحْنُ فَتَنُهُمْ فَعَظُمُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِن أٰطَعْتِكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ (٣).

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ كناية، فهي تعبير أطلق وأريد به لازم معناه وهو (الامتناع عن الجماع)، قال ابن عباس: "الهجر هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويولبها ظهره" (٤). ويكون ذلك إذا نشزت الزوجة ولم يقد معها الوعظ والتذكير، والنشور:

(\*) كان الرجل في الجاهلية يعضب لأمر من امراته فيقول لها: (أنت عليّ ظهر أمي) فحرم عليه، ولا تطلق، وتبقى هكذا، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً آخر. وكان هذا طرفاً من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية". ينظر: في ظلال القرآن: ١٠ / ٨. وتفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣١٩.

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن، ص ٧٠٧.

(٢) الكشاف: ٤ / ٣٨٧. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٢١ - ٣٢٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٦٦. وينظر: الكشاف: ١ / ٥٢٤.

العصيان، وهو صورة حسية يجسد الحالة النفسية للمرأة المستعلية، لأن الذشور في أصله هو الارتفاع والاستعلاء عن المكان<sup>(١)</sup>، جاء في التفسير: "أي عصيانهن وارتفاع طبيعتهن وطغيانهن على الأزواج فعطو هن بالمواعظ الحسنه المناسبة لعقولهن فإن رجمن إلى الاعتدال، والأفاهجروهن في المضاجع: اتركوهن منفردات في المضاجع.. ولا تباشروهن بالجماع، لأن الغاية من الهجر ذلك"<sup>(٢)</sup>.

ثمة نلحظ ما في هذه الكناية من عقوبة نفسية بالغة التأثير للزوجة، لأن الهجر في المضجع يتعلق بأقوى ما تملكه المرأة الناشز من سلاح في إغراء الزوج واستمالة، فإذا ما عقبها الزوج من هذه الجهة واستطاع أن يقهر دواقعه إزاء هذا الإغراء، فقد سند إليها سهماً موجعاً قد يكون علاجاً ناجعاً في إصلاحها والرجوع عن عصيانه وطغيانه، وذلك بسبب ما يجلب الهجر من الام نفسية، ومن هذا نلحظ دقة استخدام الكناية بلفظ الهجر دون غيره كالأعتزال مثلاً، فقال: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ولم يقل "اعتزلوهن في المضاجع"، وذلك لأن الهجر يحمل دلالة الارتباط الوجداني بين الهاجر (الزوج) والمهجور (الزوجة)، وهو يوحي بأن ذمة مودة قائمة في نفسيهما على الرغم من تعالي الزوجة على زوجها، ومن ثم قد يكون الهجر في المضاجع موعظة حسنة يحقق الهدف المتوخى منه برجوع الزوجة إلى الاعتدال وهو الهدف لا إذلالها والاعتداء عليها.

## الدخول:

جاءت هذه المادة كنايةً عن (الجماع) مكررة في قوله - تعالى -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي فِي حُبُورِكُمْ مِنْ إِبْنَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) ينظر: أساس البلاغة، ص ٥٦-٥٧ (نشر).

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المنرس: ٣ / ٣٨١-٣٨١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣.

تتناول الآية سائر أنواع المحرمات من النساء، أي اللواتي يحرم الزواج منهنَّ وقد جاء التعبير ﴿دَخَلْتُموهنَّ﴾ كناية عن (الجماع)، قال الزمخشري: "﴿دَخَلْتُموهنَّ﴾: كناية عن الجماع، كقوله بنى عليها وضرب عليها الحجاب، يعني: أدخلتموهنَّ الستر" (١)، وفي تفسير الجلالين: "دخلتم بهنَّ: جامعتموهنَّ" (٢).

فهي كناية واضحة عن الجماع حمل فيها معنى الدخول على جانبي الحقيقة والمجاز، فالدخول حقيقة في ضرب الحجاب عليهنَّ وأدخالهنَّ الستر، ويراد منه المعنى المكنى عنه وهو الجماع (٣) وجاء في تفسيرها: "كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهنَّ الستر - قاله ابن عباس - فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمرهاتهنَّ وفارقتموهنَّ فلا جناح عليكم في نكاح بناتهنَّ" (٤)، وقال الراغب: "ودخل بأمراته: كناية عن الإفضاء إليها" (٥) وهو يقصد بالإفضاء إليها (الجماع)، وإن كانت كناية الإفضاء التي فسرها غير دقيقة في التعبير عن كناية الدخول في الآية، لأنه ليس في كناية ﴿دَخَلْتُموهنَّ﴾ إيهاء كناية الإفضاء - وإن كانت الكنيتان داليتين على الجماع - كما أن الإفضاء لا ينسجم في الآية كالدخول، فلكل منهما إيهاءه الخاص وسياقه الخاص. في الأقل لا نلاحظ في كناية ﴿دَخَلْتُموهنَّ﴾ ذلك الاتساع في المعنى كما نلاحظه في كناية الإفضاء عبر الوسائط المتعددة بين اللفظ الكناتي والمعنى المكنى عنه، وإنما ينتقل الذهن في كناية ﴿دَخَلْتُموهنَّ﴾ إلى المعنى المكنى عنه عبر واسطة واحدة وهي الدخول إلى مضجعتها مما لم يكن مسوحاً به قبل الزواج، وهي واسطة حقيقية في معناها تقود إلى الدلالة المجازية وهي المعنى المكنى عنه (الجماع)، وبذلك تكون الكناية من النوع القريب الواضح لأن الانتقال فيها إلى المقصود سهل ميسور.

وفي ضوء ذلك نلاحظ دقة الكناية في السياق الذي جاءت فيه تعبيراً عن الجماع، فهي قد جاءت في سياق آية تقرر أحكاماً تتعلق بالمحرمات من النساء في أسلوب تقريرى مفصل لا يحتمل غير معناه الذي هدف إليه على وجه من التحديد والتوضيح.

(١) الكشاف: ١ / ٥١٧. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ١١٢.

(٢) تفسير الجلالين، ص ١٠٧.

(٣) ينظر: أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد حسن، ص ٦٣٠.

(٤) صفوة التفسير: ١ / ٢٦٩.

(٥) المفردات: ٤٤٠.

## التمتع:

ورد التمتع كنايةً عن (الجماع) في قوله - تعالى -: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِلَّاءَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِجِينَ قَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ قَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ كنايةً عن الجماع، قال الزمخشري: ﴿ قَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع<sup>(٢)</sup> " (١) ونقل القرطبي عن الحسن ومجاهد وغيرهما أن معنى ﴿ قَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح " (٣)، فالتمتع كنايةً عن الجماع لانطباق التمتع عليها، لأن التمتع لغةً مراد ومشار به إلى معنى الجماع لأن التلذذ لا يحصل في الغالب إلا منه<sup>(٤)</sup>، فبينهما من اللازم والارتباط يستدعي أحدهما الآخر، والسين والتاء في الكناية للمبالغة، وسمّاه الله استمتاعاً لأنه منفعة دنيوية، وجميع منافع الدنيا متاع، كما قال - تعالى -: ﴿ وَمَا لِحَيَاتِهِمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾<sup>(٥)</sup>

ولا تعني كناية التمتع النظر إلى الزوجة على أنها أداة للمتاع، واشباع الغريزة، ومن ثم ينظر إلى الزوجة من الناحية الانسانية نظرة هابطة، وإنما هو استمتاع حسن يندقق عن استقرار العلاقة الزوجية بمعناها الانساني القائم على المودة والرحمة، والسكن والراحة، والأنس والأطمئنان، فهو استمتاع منظور فيه تلبية الحاجة الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، والمرتبطة بغايتها الانسانية في امتدادها بالنسل الذي ينشأ عن هذا الاستمتاع الذي جعله الله لذة للاتصال بين الزوجين.

ومن دمة نلاحظ دقة الكناية في سياقها في التعبير عن المعنى المقصود، فالسياق يكمل سياق آية سابقة تتناول سائر المحرمات من النساء<sup>(٦)</sup>، أي اللواتي يحرم الزواج منهن، وقد ذكر من المحرمات في هذه الآية ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ كنايةً عن " ذوات

(١) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٢) الكشاف: ١ / ٥١٩، وينظر: المنتخب من كليات الأدباء وأشعار البلغاء: ص ١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ١٢٩.

(٤) أساليب المجاز في القرآن الكريم، ص ٦١٩.

(٥) سورة الرعد، من الآية: ٢٦. وينظر: تفسير التحرير والتوير: ٥ / ٩.

(٦) سورة النساء، الآية: ٢٣.

الأزواج " من أحصنها زوجها إذا حفظها واستقل بها عن غيره " (١)، واستثنى ما ملكت اليمين ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتُنُكُمْ﴾ كناية عن المملوكات بالسبي فإنه يحل وطؤها إذا استبرأتموهن (٢) و ﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ وهي كناية فيها تمثيل لحال المخاطبين بحال السائر يترك ما وراءه ويتجاوز به إلى غيره، والمعنى أحل لكم ما عدا أولئك المحرمات (٣) و هن اللاتي يحل الزواج منهن، وبهذه تتحقق تلبية الحاجة الفطرية في الاستمتاع بعد دفع أجورهن ﴿فَمَا تَوْهَنَ أُجُورُهُنَّ﴾ كناية عن المهور في مقابلة ذلك. وبذلك تتجلى عظمة الخالق وحكمته في خلق النفوس، وفي جعل كل من الجنسين سلبياً لحاجات القطرة نفساً و عقلاً وجسداً - في دائرة ما أحل الله - وبالمعنى الإنساني الكريم.

### السر:

وورد (السر) كناية عن (النكاح) في قوله - تعالى - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمُوهُ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْوِئُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ (٤).

ذهب جمهور العلماء على أن (السر) هنا كناية عن (النكاح) (٥) أي: " لا تعتدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج " (٦) وذلك لأن المواعدة السرية معها - أي مع المتوفى عنها زوجها في عدتها - وسيلة للفطنة، فضلاً عن عدم مراعاتها نفسياً بالتصريح على التزوج، لأنها ما تزال في عدتها عالقة النفس بذكرى زوجها المتوفى عنها ففي التصريح إهانة لها ولكرامتها. لذلك نهى القرآن عنه وحرّمه على خلاف التعريض الذي هو: " إمالة الكلام عن منهجه إلى عرض منه وهو الجانب ويقابله التصريح فهو أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة " (٧) كأن يقول

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥ / ٥.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٤٨.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٥) تفسير المنار: ٢ / ٤٢٣.

(٦) المصدر نفسه: والمكان نفسه.

(٧) تفسير المنار: ٢ / ٤٢٢. وينظر: الكشاف: ١ / ٣٧٣.

لها مثلاً: إنك لجميلة ومن يجد مثلك ورب راغب فيك، وهذا التعريض وأسأله هو القول المعروف ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي ما عرف شرعاً من التعريض (١). فالسر كناية تشير إلى دلالتها المجازية المتمثلة بالذكاح وهو المعنى المكنى عنه، والذي يقوى هذا المعنى الكفائي أن الكناية وقعت في مقابلة التعريض أي التلويح بالذكاح وعدم التصريح به كما أفاد معنى (السر)، فضلاً عن أن الذكاح المقصود بالكناية إنما يقع في السر وليس جهراً وعلانية (٢). وبذلك تكون كناية (السر) قد ناسبت السياق مناسبة لطيفة، تندمج بطبيعتها معه من حيث التعبير عن المعنى، فالسياق يحث على التلويح بالمعنى وعدم التصريح به ﴿عَرَضْتُمْ بِهِ﴾ و ﴿أَكَنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾.... والكناية وإن كانت قريبة في معناها بمعونة السياق إلا أنها خفية، ونعني بالخفاء أن الانتقال فيها من المعنى الأصلي (ضد الجهر والعلن) إلى المعنى الكفائي يتم بلا وساطة، بل هي تحتاج إلى شيء من التأمل للوصول إلى المقصود.

ولا يخفى ما في الكناية من بعد تهنيني في التعبير عن المعنى المقصود يربي الأذواق والنفوس، وهو البعد الملحوظ مع الكناية الجنسية القرآنية.

### تحت عبدين:

وربت هذه الكناية في قوله - تعالى - ﴿صَرَبَكَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٍ وَأَمْرَاتٌ لُوطٌ كَأَنَّكَ تَمَحَّتَ بِعَبْدَيْنِ مِنْ عَبَادِنَا مَثَلَيْنِ فَخَاتَا هُمَا فَلَمْ يُقِنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ (٣)

هذا مثل ضربه الله للكافرين مدل بيه حال الكافرين في أنهم يعاقبون على كفرهم وعبادتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير ابقاء ولا سحابة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم من لحمة نسب أو صلة صهر، لأن عداوتهم للمؤمنين وكفرهم بالله ورسوله قطع العلق، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله - بحال امرأة نوح وامرأة لوط؛ لما تافقتا وخاتتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما من وصلة الزواج اغناء ما من عذاب الله ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ﴾

(١) ينظر: تفسير الجلالين، ص ٥١.  
(٢) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٧٢، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٣، والأعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرقي، ص ٤٧٢.  
(٣) سورة التحريم، الآية: ١٠.

سائر ﴿الدَّٰخِلِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، مع داخلها من أخوانكما من قوم نوح وقوم لوط " (١).

ففي خيانة امرأة نوح وامرأة لوط الدينية التي أحدثتاها انفصلت عرى الزوجية عن معناها الحقيقي، ولابد من القول أن الخيانة المقصودة هنا ليست (الخيانة الزوجية) فهذا مالا يليق بالأنبياء المعصومين، وإنما هي (الخيانة الدينية)، وهي عبارة عن " نفاقهما وأبطانتهما الكفر، ونظايرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومها: إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفاته، ولا يجوز أن يُراد بالخيانة الفجور لأنه سمح في الطباع نقيصة عن كل أحد.. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ما بغت امرأة نبي قط " (٢) فهي الخيانة الدينية، والانحراف عن الهدى الإلهي، ولا شك في أنها أبلغ أنواع الخيانة، لأنها مقالومة للفطرة الإنسانية (٣).

والقرآن يستعمل كلمة ﴿أَمْرَاتٍ﴾ بدل (زوج) بالنسبة لامرأتي نوح ولوط، وهما زوجتان، وهذا الاستعمال الدقيق ذو دلالة اجتماعية واضحة، توضحه الدكتور عائشة عبد الرحمن بقولها: " وتندبر استعمال القرآن للكلمتين (امرأة وزوج)، فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة زوج تأتي حيث تكون الزوجية هي مناط الموقف: حكمة وأية، أو تشريعاً وحكماً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (٤) فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة، بخيانتها أو تبليغ في العقيدة، فامرأة لا زوج " (٥). وهذا يبين بامرأتي نوح ولوط، فثبتت عرى الزوجية، وعاد كل زوج منهما امرأة فحسب، لا تربطهما رابطة من سكن، ولا صلة من مودة (٦).

وفي ضوء هذه الحقيقة التي قررتها الآية نلاحظ الكناية ﴿تَحْتَ عَمَلَيْنِ﴾ وهي قادمة في بنيتها على الاستعارة ﴿تَحْتِ﴾ " لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجل ليس يراد به حقيقة الفوق والتحت، وإنما المراد أن منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل لقيامه عليها، وغلبته على أمرها، كما قال ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى

(١) الكشاف: ٤ / ٤٥٧، وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٩٣.

(٢) الكشاف: ٤ / ٤٥٨، وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٣٩٣.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) سورة الروم، من الآية: ٢١.

(٥) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢١٢-٢١٣.

(٦) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٤٩، وينظر: ابن الأقيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ١٣٢.

بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَعُوا مِنْ أَمْرِهِمْ<sup>(١)</sup> ... ﴿٢﴾، فالاستعارة تعبير عن تقاصر مكانة المرأة عن مكانة الرجل، لا التحدية في العرف واللاخه وهي الجهة المعروفة بالحس في الموضع، فاستعارها وهي محسوسة لأمر معقول وهو المكانة والمنزلة<sup>(٣)</sup>

إلا أن التعبير ﴿تَحَمَّتْ عَيْدَيْنِ﴾ ينطوي على معنيين مكنى عنهما هما:

- الأول: الفعل الجنسي (الجماع) بحكم قيامه عليها، وهو معنى بَيِّن واضح.

- الثاني: الدونية والتسفل لهاتين المرأتين في المكانة والمنزلة، وليس المقصود بها المكة

والمنزلة في حالتها الطبيعية التي أشارت إليها الاستعارة والآية أنفأ، وإنما مكانة ومنزلة أوحى بها التعبير الكنايي ﴿تَحَمَّتْ عَيْدَيْنِ﴾ بمعونة سياق المثل القرآني - وهو إيهام دقيق في سياقه - يشير إلى مكانة هاتين المرأتين ومنزلتهما دينياً واجتماعياً إزاء النبيين الكريمين (عليهما السلام) فهما امرأتان كافرتان منحرفتان عن الهدى الإلهي، وسلوكهما يجسد عملياً دونيتهما، لأنه سلوك مندبث عن الكفر والضلال.

ومن ثم نلاحظ دقة القرآن الكريم في اختيار التعبير ﴿تَحَمَّتْ عَيْدَيْنِ﴾ كناية عن العلاقة الجنسية في سياق المثل القرآني، فليس المقصود التعبير عن هذه العلاقة كما عبرت عنه الكنايات الجنسية السابقة في ظل تحقق الزوجية القائمة على المودة والرحمة اللتين تجلبان الجانب الإنساني بين الزوجين، وإنما التعبير عن هذه العلاقة في ظل انعدام الزوجية بمعناها الحقيقي بسبب التباين والخيانة في العقيدة، وقد عبرت الكناية بإيهاماتها عن هذه الحالة خير تعبير.

### الطَّمَتِ وَالْفَرْشِ الْمَرْفُوعَةِ :

وردت الكناية ﴿يَطْلِيْتَيْنِ﴾ في نساء أهل الجنة في موطنين، الأول في قوله -

تعالى :- ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْفَرْشِ لَتَرِيَطْلِيْتَهُنَّ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانَّ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة النساء، من الآية: ٣٤.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٢٨، وينظر: الكشاف: ٣ / ١٣٩.

(٣) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٠٧.

(٤) سورة الرحمن: الآية: ٥٦. والآية: ٧٤ من السورة نفسها.

ووردت الكناية ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْمُوعَةٍ ﴾ ففي نساء أهل الجنة - أيضاً - في موطنين، في قوله  
تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْمُوعَةٍ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ لِنَفْسَةٍ ﴾ ﴿ جَمَلْتَهُمْ أَبْكَارًا عَرَبًا أَتْرَابًا ﴾ ﴿ لِأَصْحَابِ  
الْجَنَّةِ ﴾ (١).

نلاحظ في الآية الأولى الكناية الجنسية ﴿ لَمْ يَطْمِئِنُّوا ﴾ ، وقد تواسجت معها الكناية  
﴿ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ ﴾ وهي على الرغم من أنها كناية أخلاقية تصور بطريقة حسية مؤثرة سمة  
العفاف لنساء أهل الجنة والقناعة بأزواجهن، إلا أنها قد تواسجت من حيث المعنى والصورة  
مع الكناية الجنسية ﴿ لَمْ يَطْمِئِنُّوا ﴾ في وصف هذه الكناية لتكتمل الصورة الجمالية لهن التي  
قصد القرآن تقريبها إلى الأذهان.

﴿ قَصِيرَاتُ الْإِطْرَفِ ﴾ كناية عن العفاف على سبيل التوابع والأرداف، قال أبو هلال  
العسكري: " وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف،  
وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف،  
والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف " (٢) أي عدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الأرداف،  
وبذلك تحققت بالكناية صفة العفاف على نحو فريد " لأن كل من عفت عضن الطرف عن  
مطموح إليه، فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء ودشّتهبه نفسه، ويعف عنه مع القدرة عليه  
لأمر أمر، وقصر طرف المرأة على بعليها، أو قصر طرفها حياء وخفراً أمر زائد على  
العفة، لأن من لا يطمح طرفها لغير بعليها، أو لا يطمح حياء وخفراً، فإدبها ضرورة تكون  
عفيفة قاصرة الطرف " (٣) فالكناية تصوير مؤثر للعفة ولو أن القرآن استخدم التعبير  
المباشر "عفيفات" لما اطلعنا على تلك الهيئة الراضية القادحة لنساء أهل الجنة اللاتي لا  
يطمحن فيها إلى غير أزواجهن، ولا يفكرن في غيرهم (٤). وهذا الوصف بالصورة الكنانية  
يكاد يكون سمة جمالية خاصة بنساء أهل الجنة، وتعمق هذه السمة بسمة جمالية أخرى  
تؤديها الكناية ﴿ لَمْ يَطْمِئِنُّوا ﴾ فهي كناية عن صفة (البكارة) أي (لم يجامعن) أنس قبلهم ولا  
جان، وفيها دلالة الفعل الجنسي الأول (فض البكارة) لأن الطمث هو " الجماع المؤدي إلى

(١) سورة الواقعة ، الآيات: ٣٤ - ٣٨. وينظر: سورة الغاشية ، الآية: ١٣.

(٢) كتاب الصناعتين ، ص ٣٥. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ٢٧٧. وينظر:  
الافتقار في علوم القرآن: ٣ / ١٤٦.

(٣) إعجاز القرآن البياتي ، حفني محمد شرف ، ص ٣٤٧.

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن ، ص ٢٢٢.

خروج دم البكر" (١) وقال الراغب: " طمئت المرأة: إذا افتضها، ومنه استعير: ما طمئت هذه الروضة أحد قبلنا - أي ما افتضها - " (٢). فالكناية دقيقة في سياقها وتجلي إحياءاً خاصاً مناسباً في وصف نساء الجنة، وبسبب هذا الإحياء الخاص - فيما يبدو - لم ترد هذه الكناية في القرآن إلا في هذين الموطنين في صفتهم وبوصفهم لونا من ألوان النعيم في الجنة لعباده المتقين، ولتوحي الكناية بذلك ما أعده الله لأهل الجنة من نعيم هو أعظم رفعةً وجمالاً ومنعةً مما هو متعارف عليه في الحياة الدنيا.

كما أن الكناية ﴿تَرْطِبْنَهُنَّ﴾ الدالة على صفة البكارة تكذب دلالة الديمومة لهذه الصفة من وصفهن بالآية الثانية بأنهن ﴿أَرْبَابًا﴾ - قال الزمخشري: " ﴿أَرْبَابًا﴾ على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً " (٣)، فالفعل الجذسي الأول (فرض البكارة) دائم متكرر، وبذلك يتصاعد هذا النعيم، حتى يحقق في ذهن المتلقي معنى الخلود في الجنة وصورة ديمومته.

ثم تأتي الكناية ﴿وَفَرُشٍ مَّرْمُورَةٍ﴾ في النص القرآني لتوحي بصفات جمالية جديدة تنهض من خلالها عناصر مادية محسوسة محببة إلى النفس بحيث تصعد من وصف العلاقة الزوجية والمتعة الجنسية إلى مستوى جمالي غير معهود في الحياة الدنيا.

﴿وَفَرُشٍ مَّرْمُورَةٍ﴾ الفراش ملزوم وأريد به لازمه، وهي الزوجة في الجنة، لأن " المرأة يُكنى عنها بالفراش " (٤) ، وقال أبو هلال العسكري: " ﴿وَفَرُشٍ مَّرْمُورَةٍ﴾ كناية عن النساء " (٥) ، وقد دل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً فَنَزَّلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْبًا أَرْبَابًا﴾ و ﴿عُرْبًا﴾ هن - كما قال ابن عباس - : " المتحبات إلى أزواجهن " (٦) ، فضلاً عن الدلالة الحسية الذي أفادتها

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ، ص ٦٩١ .

(٢) المفردات: ٤٥٧ ٤٥٨ . وينظر: أساس البلاغة ، ص ٢٨٤ (طمئت).

(٣) الكشف: ٣٨ / ٤ . وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤ / ٣ .

(٤) الكشف: ٣٦٧ / ٤ . وينظر: المنتخب من كليات الأدباء وأشارات البلغاء ، ص ٣ .

(٥) كتاب الصناعاتين: ٣٦٨ .

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٢٩٤ / ٤ .

(\*) وصف الله ﷻ نساء أهل الجنة بصفات جمالية شتى بالغة التأثير والتشويق. مثل قوله تعالى :-

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْتٌ مَّرْمُورٌ﴾ [سورة الصافات ، الآية ٤٩] ، وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْوَلُوجُ الْكَوْكَبِيُّ﴾

[سورة الواقعة ، الآيات ٢٢-٢٣] ، وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالزَّمَرَانُ﴾ [سورة الرحمن ، الآية

٥٨] . ينظر: السور الآتية: الصافات ، الآية: ٤٩ . والرحمن ، الآية: ٥٨ ، والواقعة ، الآيات:

٢٢- ٢٣ على التوالي. وكلها تشبيهات تقرب إلى الأذهان معاني جميلة متلونة ، فهن مصونات

الكناية ﴿ وَفَرُّشٍ مَّزْمُوعَةٍ ﴾ فإنها موحدة بالرفعة والطهارة، وهي دلالة معنوية فوق الدلالة الحسية تستدعي أحدهما الأخرى، فهو نعيم تلتذ به الأجسام والنفوس (\*).

ومما تقدم من كنايات جنسية تتجلى دقة القرآن الكريم في استخدامه الكناية بوصفها تعبيراً غير مباشر عن المعنى، إذ إن لكل كناية جنسية، فضلاً عن المعنى المكنى عنه

الـ  
(الجماع) إحياءات خاصة بها تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه، فهي موضوعة في موضعها اللائق بها وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن. كما يتجلى من الكناية الجنسية البعد التهذيبي، فالقرآن بالكناية يتسامى وبترفع عن التصريح بالألفاظ البذيئة المفحشة التي تخدش الشعور وتحط من الذوق الإنساني، وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إحياءات الكناية الجنسية نلاحظ إحياءاً

للانسـان بالصـورة  
" الأنسانية " في المباشرة والالتقاء.

كالدر في أصنافه ، مع رقة ولطف وتعممة وصفاء ، فهن نعيم خالد يُلْتذ به بالأجسام والنفوس. ينظر: الكشاف: ١ / ٢٣ ، ٣٦٠. وتفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٩٣. وتفسير الجلالين ، ص ٥٩٢ ، ٧١٠ ، ٧٠٨.



## الفصل الثاني

# الكناية اللونية



## الفصل الثاني

### الكناية اللونية

يعد اللون " وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلت الأبحاث والتجارب على أنه لا يزال كنزاً مخبئاً لم يستطع الإنسان أن يصل إلى قراره. وأنه قوة موجبة تؤثر في جهازنا العصبي" (١).

ونلاحظ اللون - في الأغلب - من خلال ذكر الألفاظ الدالة عليه بوصفه مدركاً بصرياً، إذ يستثير ذكر اللون "حاسة البصر الخاصة المكلفة بتوصيل ذبذبات اللون الإيقاعية إلى المخ، وذلك من جراء استثارة المراكز العصبية وتحريكها بواسطة التخيل" (٢). كما نلاحظ اللون من خلال ذكر مفردات ليست دالة على الألوان دلالة مباشرة، وإنما تدل عليها في صورة غير مباشرة، فهي تدعو المتلقي إلى إدراك اللون بعملية ذهنية أكثر منها عملية رصد لألوان مرئية كما في الألوان المباشرة.

وقيمة اللون في التعبير الأدبي - سواء كان محصلاً بصورة مباشرة من المفردات، أو يتداعى منها في صورة غير مباشرة - لا يقل أهمية عن العناصر الأساسية الأخرى في بثانه كالموسيقى والعاطفة والخيال لذلك كان لحضوره في الشعر أهمية في تولين صورته، وفي تحريك أحواله، منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى اليوم (٣).

وانطلاقاً من أهمية اللون في النص القرآني الكريم، يحلول هذا الفصل دراسة الكناية القرآنية اللونية، في حدود ما ورنبت فيه من نصوص كريمة، إذ نجد آيات قرآنية قد شكّلت فيها الكناية باللون بنوعيه، الأول: ذكر الألفاظ الدالة على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر. والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة إذ يدرك اللون فيها من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فيتداعى للمتلقي بطريقة ذهنية، فيشير

(١) اللون، محمد يوسف همام، ص ١٠. وينظر: اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، ص ١٤٨.

(٢) إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي، ص ٢٦٩. وينظر: جنل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى البستاني، ص ١٦٥.

(٣) ينظر: التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف دتريش فيشر، ص ١١-١٢.

بذلك إلى المعاني والأحياء المتنوعة، إذ إن الإحياء بالمعاني سمة من سمات الكناية باللون لما فيها من قوة تعبيرية تتجاوز مدلولها الظاهر إلى جملة من المعاني الموحية فتتصل بالقلوب والنفوس فتلونهما بألوانها.

ولما كثرت الكناية القرآنية باللون نوعين ارتأينا دراسة كل نوع على حدة انسجاماً مع طبيعة كل نوع في سلك أسلوبه. وجعلنا كل لون على حدة، أو لونين على سبيل التقابل لما في ذلك من تصعيد الدلالة وتكثيفها.

### الكناية باللون المباشر:

تتنوع الصور الكنائية بالألوان المباشرة في القرآن الكريم في مشاهدتها وإحياءاتها تبعاً للون المكنى به عن المعنى، من ذلك:

### الكناية باللون الأبيض والأسود:

يأتي هذان اللونان على التقابل في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (١)

فكل من اللون الأبيض واللون الأسود إشارة كنائية مكثفة وذلك لقلة الوسائط بين اللون وما يشير إليه مع وضوح الدلالة، وتطوي هذه الإشارة الكنائية معاني وإحياءات وهي تعلق على الوجه، فتشير إليها دون وسائط بين المكنى به (اللون الأبيض) والمكنى عنه (حال المؤمنين في ذلك المشهد)، والمكنى به (اللون الأسود) والمكنى عنه (حال الكافرين على التقابل)، وهذه هي الإشارة في المفهوم الكنائي (٢) يتخذها القرآن وسيلة من وسائل التعبير الفني.

واعتمد تركيب الآية المذكورة ظواهر بلاغية متعددة في تصوير حال الفريقين في هذا المشهد، ومن شأن هذه الظواهر هو تصعيد دلالة الكناية باللون بطرفيها المتقابلين. والتقابل هو الأطار الفني الذي يشد أجزاء الصورة على سبيل التضاد، وهذه الأجزاء كما هو واضح للعين الراصدة هي:

(١) سورة آل عمران، الآيةان: ١٠٦، ١٠٧.  
(٢) ينظر: مفتاح العلوم، ص ١٦٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، د. علي البديري، ص ٢٨٠.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَيَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يقابلها ﴿وَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ .

﴿فَدُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يقابلها ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

والتقابل بين الفريقين من شأنه " الكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة" (١) لأنه يجمع بين متضادين متناقضين، وبالتضاد والتناقض تتبين الأشياء، وتجد النفس في ذكرهما مجموعتين لذة، لأن اللذة في التقاء الضدين (٢). وبذلك فإن التضاد هوة مرتكز بنياني يتكئ عليه هذا المشهد في مكوناته وعلاقاته، لأنه يشيع في مفاصل النص حركة بين عناصر متضادة تجلي المعنى المقصود أجلى بيان (٣).

المستوى القريب في المعنى نلاحظه بالكناية اللونية الحسية في أسلوب خبري اعتمد (الاجمال): ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ثم يتبعه التفصيل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آسَوَدتْ ...﴾ على سبيل الأطناب الفني تتجلى بلاغته في تطويل المشهد في كل لقطاته وهو يعرضه للمتلقي لترسيخ المعنى في الذهن والوجدان.

وابيضاض الوجوه كناية عن (المسرة) (٤) وحمل بعضهم الكناية على الحقيقة كما يفهم من قول الزمخشري: " والبياض من النور والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وأسفاره، وأشراقه وأبيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمدته وأسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب " (٥). والأرجح أن يفهم على الكناية كما ذهب إلى ذلك الراغب: " لأن ذلك حاصل لهم سوداً كانوا في الدنيا أو بيضاً " (٦) فهو " مشهد حسي، ولكنه منبعث عن تآثر نفسي، ألقى ظلّه على الوجوه فأبيضت " (٧).

كما أن بين اللون الأبيض والحالة النفسية للمؤمنين (المسرة) التي هم فيها في موقفهم ذلك تلازماً وارتباطاً، فإن هذا اللون قد اكتسب عرفياً كثيراً من التعلق بأجواء

(١) في البنية والدلالة، د. سعد أبو الرضا، ص ٣٧.

(٢) ينظر: الروض المربع في صناعة البيع، ابن البناء، ص ١١١.

(٣) ينظر: في البنية والدلالة، ص ٤٢. وينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، د. عماد عبد يحيى، ص ٢٨٤.

(٤) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي: ٢ / ١٣٤.

(٥) الكشف: ١ / ٤٥٣.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩.

(٧) مشاهد يوم القيامة في القرآن، سيد قطب، ص ٢٠٤.

الصفاء والإشراق والسعادة<sup>(١)</sup>، ولما كان البياض أفضل لون عند العرب، فقد عُدَّ عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتكتمن بمعاب هو أبيض الوجه<sup>(٢)</sup> كناية عن الطهر والنقاء، والعرب تقول: "لِمَنْ نَالُ بَغْيَتَهُ وَقَلَّزَ بِمَطْلُوبِهِ: ابْيَضَّ وَجْهَهُ، وَمَعْنَاهُ: الْاسْتِبْشَارُ وَالتَّهْلِيلُ، وَعِنْدَ التَّهْنِئَةِ بِالسُّرُورِ يَقُولُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَيَّضَ وَجْهَكَ، وَيُقَالُ لِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مَكْرُوهٌ: اِرْبَدَّ وَجْهَهُ، وَاعْبَرَّ لَوْنَهُ، وَتَبَدَّلَتْ صَوْرَتُهُ"<sup>(٣)</sup>.

ونقل الرازي قول أبي مسلم الأصفهاني (ت ٣٢٢ هـ) في تفسير هذه الكناية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ...﴾ "أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرُدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا قَدِمَتْ بِدَاهِهِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَبْيَضَ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى: اسْتَبْشَرَ بِنِعْمِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَعَلَى ضِدِّ ذَلِكَ، إِذَا رَأَى الْكَافِرَ أَعْمَالَهُ الْقَبِيحَةَ مُحْصَاةً: اسْوَدَّ وَجْهَهُ، بِمَعْنَى شِدَّةِ الْحُزْنِ وَالْغَمِّ"<sup>(٤)</sup>.

ويتصاعد المعنى الكنائي للون الأبيض في الآية بقوله - تعالى -: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ، وهو المستوى الثاني البعيد في التعبير عن حالتهم النفسية المشرفة بالنور، إذ تصور الرحمة على سبيل المجاز المرسل القائم على العلاقة الحالية، فالرحمة هي حال أهل الجنة، لذا استعملت في هذا الموضع بدلاً من المحل (الجنة)، وقوام بلاغة التعبير ﴿فِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أن الرحمة تغمرهم وتحثويهم، و "في" تدل على الظرفية والانغماس في الشيء<sup>(٥)</sup>، فضلاً عن إيحائها بالاستقرار والاطمئنان. وهذه هي الذروة في تصوير حالهم وما هم عليه من سعادة ومسرة وإشراق.. وإزاء هذه الصورة الفانصة بالبشر والنور صورة الكافرين المشوهة وجوههم باللون الأسود، والمكروبة نفوسهم.

فاللون الأسود كناية عن (المساءة)<sup>(٦)</sup> "فهو مشهد حسبي القى ظلّه على تلك الوجوه فاسودت للدلالة على ما يجيش في نفوسهم"<sup>(٧)</sup> وبين هذا اللون والمساءة والحزن تلازم

(١) ينظر: اللغة واللون، ص ٦٩. وينظر: اللون في الأدب العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، ص ٢٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطيب، ص ٥٩.

(٢) المفردات، ص ٦٦. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٣.

(٣) التفسير الكبير: ٨ / ١٧٠.

(٤) نفسه: ٨ / ١٧٠.

(٥) القرآن والصورة البياتية، د. عبد القادر حسين، ص ١٤٨. وينظر: القرآن إعجازة وبلاغته، د. عبد القادر حسين، ص ١٩٦.

(٦) المفردات، ص ٣٥٩. وينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢ / ١٣٤.

(٧) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٢٠٤.

وارتباطه، وقد ارتبط اللون الأسود عرقياً بأجواء الكآبة والحزن<sup>(١)</sup>، ويتصاعد معنى الكناية بالاستفهام الإنكاري بالهمزة المتضمن معنى التوبيخ والتفريع مع التعجب من حالهم<sup>(٢)</sup> ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ مَعِينِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ فهو عذاب نفسي فوق عذابهم المادي، وهم يتحسدون هذين اللوتين من العذاب على نحو عميق كما أوحى الاستعارة المكنية ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ، فالعذاب لا يُذاق وإنما يحس به، ولكن لما كان الذوق أعمق أثراً في الشعور بالعذاب استعاره، فسببه العذاب بشيء محسوس يُذاق، ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو (الذوق) على سبيل الاستعارة المكنية<sup>(٣)</sup>، وبذلك فالآية تجمع بين التعذيف بالقول، وهو عذاب نفسي من جهة والعذاب المادي<sup>(٤)</sup> الذي يعاينونه من جهة أخرى.

و هذا نلاحظه في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة يُكنى فيه باللون الأسود عن العذاب قوله - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾<sup>(٥)</sup>.

فهذه وجوه المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك له والولد<sup>(٦)</sup>، تتحول بالكناية ﴿ مُسْوَدَّةٌ ﴾ إلى خلق مشوه يشير الامتعاض والسخرية على المعنى الحقيقي القريب للكنائية، أما المعنى البعيد المكنى عنه فهو تصوير للحالة النفسية التي هم فيها من حزن وكمد وكآبة، فالكنائية تجسد ذلك على وجوههم كمداً من الحزن واسوداداً من الكآبة. والكناية التي صورت وجوههم مشوهة فيها إحياء على أنهم قد شوهوا فطرهم الصافية التي فطرها الله على التوحيد ﴿ فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾<sup>(٧)</sup> شوهوها في حياتهم الدنيا باتخاذهم الشريك والولد، ويتصاعد عذابهم بتفريعهم بالاستفهام التقريري بالهمزة: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، وتتكثف دلالة السخرية بهم بلفظة ﴿ مَثْوًى ﴾ وهي من قبيل العكس في الكلام للسخرية منهم والتهكم بهم، لأن المَثْوَى في الحقيقة المنزل والمأوى، يُقال: " ثوى

(١) ينظر: اللغة واللون ، ص ١٨٦. وينظر: شاعرية الألوان عند امرئ القيس ، ص ٥٨.

(٢) ينظر: الكشاف: ١ / ٤٥٣.

(٣) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ، أحمد فتحي رمضان ، ص ٧٩.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٣ / ٢٦. وينظر: ألفاظ الشواهد في القرآن الكريم ، عماد عبد يحيى ، ص ١٩٦.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٠.

(٦) ينظر: الكشاف: ٤ / ١٠٧. وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٨٦.

(٧) سورة الروم ، من الآية: ٣٠. والفطرة: الخلقة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٤١٦.

بالمكان: نزل فيه، وبه سمي المنزل مئوى. والثوى: الموضع الذي يُقام به. ومئوى الرجل: منزله. وأثواني الرجل: أضافني. يُقال: أنزلني الرجل فأثواني ثواء حسناً" (١) فليس جهنم منزلاً للمتكبرين يجدون فيه الطمانينة والراحة، وإنما هو العكسي في الكلام تهكماً بهم وسخرية (٢) يصعد من عذاب المشركين الكاذبين يتنوعه الأمادي والنفسي فبنس المئوى وبنس العذاب.

وبصور القرآن بكناية اللون الأسود في موضع آخر حال الذي يبشر بولادة بنت له، يصوره لا مجرد حزين أو مغتم، وإنما يصوره وقد تحول بالكناية إلى صورة غير صورته، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّا بُشِّرْنَا أُمَّهُم بِأَلْفِ ظَلٍّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ﴿ يَنْزُرِي مِنَ الْقَوَائِمِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمِّيكَ عَلَى هَوْنٍ أَوْ يُدْسِتُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا مَسَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٣).

﴿ ظَلٍّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وصورة الذي يبشر بولادة بنت بهذه المثابة مبنية على الكناية ﴿ ظَلٍّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا ﴾ وعلى الاستعارة التصريحية ﴿ كَظِيمٌ ﴾. فقد تواسجت الكناية والاستعارة في تصوير المعنى على نحو عميق. قال الطبري في ﴿ ظَلٍّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا ﴾: " كناية عن الغم والحزن وليس يريد الأسود، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد أسود وجهه" (٤) فهو يغالب ثورة من الحزن والضيق ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: " مملوء غيظاً وغمّاً" (٥) يكتمه ويداريه كما صورت الاستعارة ﴿ كَظِيمٌ ﴾ فقد شبهه املاء قلبه بالغم والحزن بامتلاء القربة بالماء، وشبهه كتمانها وضيقه بما يصر به فم القربة المملوءة بالماء حتى لا يخرج منها شيء (٦) ثم يصوره وقد شعر بخزي وهوان يجعلانه لا يستطيع مواجهة الناس فينزوي عنهم ويخفي ﴿ يَنْزُرِي مِنَ الْقَوَائِمِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ ، فهو يعاني ذلك الصراع العنيف الذي يثور في نفسه، خوفاً من العار الذي يخلقه بسبب البنت، كأنها بلية وليست هبة للهيئة (٧).

(١) لسان العرب: ١٤ / ١٢٥ - ١٢٦ (ثوا).

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ، ص ٩٦.

(٣) سورة النحل ، الآيات: ٥٨ - ٥٩. وينظر: سورة الزخرف ، الآية ١٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٠ / ١١٦.

(٥) صفوة البيان لمعاني القرآن ، ص ٦٢١.

(٦) ينظر في توجيه هذه الاستعارة: التفسير الكبير: ١٨ / ١٩٦. والقرآن والصورة البيانية ، ص ١٥٢.

(٧) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، د. عبد الحليم حنفي ، ص ١٧١ - ١٧٢.

فالكناية باللون الأسود تكذِّف للحالة التنفسية لذئبٍ يَبْشُرُ بالأنثى. ولا شك في أن الكناية فيها سخرية لاذعة، وهي تصور هذا الشخص مسود الوجه، متوارياً عن الناس، مغالباً لصراع رهيب في نفسه من مجرد أن يبشر بولادة بنت له، تجعل هذه الكناية كل من تولد له بنت في هذا المجتمع، قبل أن يفكر في نسبتها إليه، وقبل أن يشعر بأثر ذلك في نفسه، يتمثل هذه الصورة المنفرة، التي لا يرضاها ادمان لنفسه، ولا يرضى أن ينظر إليه الناس فيروه فيها" (١).

ونرى أن مجيء الكناية باللون الأسود في سياق وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر كما حكى القرآن ذلك (٢) فضلاً عن أنها تجلّي هوان المرأة وما تلاقيه من تعسف وظلم في المجتمع، دلالة قوية على تبشيع هذه العادة الجاهلية وتقطيعها، إذ الملاحظ أن هذه الكناية اللونية لا ترد في القرآن إلا في وصف حال الكافرين والمشركين في مشاهد يوم القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة.. ولا تشذ هذه الكناية إلا في مجيئها في سياق (وَأد البنات) مكررة مرتين (٣)، فيعمل التكرار على تقطيع هذه الجريمة وتبشيعها على نحو مؤكد. ويتصاعد هذا المعنى بذكر ﴿الْمَوءِدَةُ﴾ في سياق الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، ويحسن بنا إيراده، وهو قوله - تعالى -: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْآلُفُوشُ حُيِّرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِهَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ ﴿٩﴾﴾ (٤).

فذكر ﴿الْمَوءِدَةُ﴾ في هذا السياق يكتسب معنى التهويل والتعظيم لشدتها. وكان السياق يعرضها حدثاً كونياً من هذه الأحداث العظام، وهي تسأل عن جريمة وأدهاء، فكيف يواندها؟ (٥) وفي ضوء ما سبق يتبين أن الكناية باللون الأسود تأتي في سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، وفي سياق جريمة وأد البنات مكررة فتصفي على المعنى التعظيم والتهويل. أما كناية اللون الأبيض فهي تأتي في سياق مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة مقابلة للون الأسود وقد سبق ذكره.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٧٢ .

(٢) ينظر: سورة الاتعام ، الآية: ١٥١. وسورة الاسراء ، الآية: ٣١.

(٣) سورة النحل ، الآية: ٥٨. وسورة الزخرف ، الآية: ١٧.

(٤) سورة التكويز ، الآيات: ١ - ٩.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٤٧٩ - ٤٨٠.

## الكناية باللون الأزرق:

وردت الكناية باللون الأزرق في القرآن الكريم مختصة بالتعبير عن حال المجرمين وما هم عليه من سوء حال في مشهد واحد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ <sup>(١)</sup> **يَخْتَفَتُونَ** **يَنْتَهُمُ** **إِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ** **إِلَّا عَشْرًا** ﴿١٣٣﴾ **عَنْ أَهْلِكُمْ** **بِمَا يَقُولُونَ** **إِذْ يَقُولُ** **أَتَنَالَهُمْ** **طَرِيقَةً** **لَا يَشْعُرُونَ** **إِلَّا يَوْمَئِذٍ** ﴿١٣٤﴾ <sup>(٢)</sup>

الكناية ﴿زُرْقًا﴾ رمز ينقلنا إلى المعنى المكنى عنه مباشرة بما يرسمه من لون أزرق يميز المجرمين عند حشرهم، وهو يرسم حول حدقات عيونهم، فتكون صورتهم مغايرة لحقيقتها ترمز على نحو مكثف إلى المعنى المكنى عنه، وهو صفة سوء حالهم وما هم فيه من كمد وكربة، قال الزمخشري: " في عينه زرق وزرقعة وزرقات عينه وأزرقات وأزرقت، و عين زرقاء وعيون زرق " <sup>(٣)</sup>، وقال في تفسيره: " قيل في الزرق قولان، أحدهما: أن الزرقاة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب، لأن الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد، أصهب السبال، أزرق العين. والثاني: أن المراد المعنى، لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرأق " <sup>(٤)</sup>، وجاء في لسان العرب في هذه الكناية: " إنما معناه أزرقت أعينهم من شدة العطش، وقيل: عمياً يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل ﴿زُرْقًا﴾ لأن السواد يزرأق إذا ذهب نواظرهم، ويقال: زرقاً طامعين فيها لا ينالونه " <sup>(٥)</sup>

فالكناية تشير إلى إحياءات متعددة تتجمع لوصف حال المجرمين عند حشرهم: إحياء العطش من شدة ما هم فيه في ذلك الموقف، وإحياء العسى لأنهم عطّلوا أبصارهم في حياتهم الدنيا عن النظر في آيات الله واتباع الهدى كما أخبر القرآن عن ذلك في مواضع أخرى <sup>(٥)</sup>، وكرها ما أنزل الله وبغضوه. فها هم في صورتهم البغيضة كما تصورهم الكناية، فأبغض لون هو اللون الأزرق - ليس لذاته - وإنما يكون بغيضاً مستقبلاً عندما

(١) سورة طه، الآيات: ١٠٢-١٠٤.

(٢) أساس البلاغة، ص ١٩١ (زرق).

(٣) الكشاف: ٦٨ / ٣، وينظر: المفردات: ٣١١، وينظر: اللغة واللون، ص ٤٠.

(٤) لسان العرب: ١٠ / ١٣٩ (زرق).

(٥) ينظر: سورة طه، الآيتين ١٢٤-١٢٥ مثلاً.

يرتسم حول حدقات أعينهم فيشوه خلقتهم فهي منقرة تبعث السخرية من هؤلاء المجرمين في مشاهدهم، وهم يعانون الخزي والهوان، والكمد والكربة.

ويمكن أن ننصوّر اللون الأزرق وهو يرتسم على وجوههم دون تخصيص حول حدقات عيونهم كما قال بعض المفسرين، أي يحشر المجرمون زرق الوجوه من الغم والكربة (١) وذلك لأن القرآن لم يخصص في رسم صورتهم، وبذلك يكون اللون الأزرق كناية فيها غرابة في التصوير تميز المجرمين في ساحة الحشر من غيرهم، لأنه لم يعهد عند البشر اللون الأزرق صفة لبشرتهم، وإنما هو معهود في ظواهر طبيعية كالسماء والماء.. وهو مصدر إثارة جمالية تتدسها النفس الإنسانية.. فعندما ينقله القرآن ويغرسه في هذا المغرس الجديد (وجوه المجرمين) في المحشر فإنه يحقق تلك الغرابة والجدة في التصوير إذ فيه إحياء السخرية منهم، فضلاً عما أشار إليه من كمد وغم وكربة من شدة الموقف، ومن شدة موقفهم وكربة يتضاعل في حسم الزمان، وتتطوي معه الحياة التي كانت مسرّحاً لأجرامهم ﴿يَخْفَتُونَ مِنْهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَدِيعٌ ذُو الْعَرْشِ﴾ (٢) **لَنْ نَقُولَ لَهُمْ أَمْثَلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا** ﴿

ومن شأن هاتين الآيتين تصعيد معنى الكناية إذ تجلي عذابهم النفسي وحيرتهم فهم يتهامون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ولا يرفعون صوتاً من الرعب والهول، فما هي الحقيقة تتكشف لهم، فليست تلك الحياة الدنيا التي أجمروا فيها، مطمئنين إليها إلا عشر ليالٍ بل هي يوم كما يقول أرشدهم وأصوبهم. قال الزمخشري: " تخافتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول، يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا. أما لما يعاينون من الأشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر، لأن أيام السرور قصار، وأما لأنها ذهبت عنهم وتقصت، والذاهب وإن طال مدته قصير بالانتهاء.. وإما لاستطاعتهم الآخرة وأنها أبد سرمدي يستقر إليها عمر الدنيا، وينقل لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم في الآخرة، وقد استرح الله قول من يكون أشد تفاؤلاً منهم في قوله - تعالى - : ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا لَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُوا إِلَّا يَوْمًا﴾ (٣) وفي تخافتهم هذا وشعورهم نحس منهم الحسرة والندامة، فضلاً عن السخرية منهم جزاء بما كانوا يجرمون.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن الكريم، ص ١٠٥. وينظر: التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الصغار، ص ١٥٢.

(٢) الكشاف: ٦٩/٣.

و غالباً ما يخرج القرآن تصوير عذاب المجرمين على نحو مخصوص، نحس فيه الشدة في عذابهم، والتعنيف بهم بالقول حتى وهم يلقون في نار جهنم، من ذلك هذه الصورة الكنائية المتصلة بالكناية السابقة صورة ومعنى في قوله - تعالى - : ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (١) وَيَأْتِي آءَاءَ رَبِّكُمْ كَذِبًا ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ ﴾ يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آلِ إِبْرَاهِيمَ (٢)

الصورة الكنائية: ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ ﴾ فللمجرمين علامة لونية تميزهم يُعرفون بها، فقوله ﴿ بِسْمِهِمْ ﴾ فيه إشارة إلى الكناية بالألوان الأزرق، فضلاً عن الكناية باللون الأسود، فهما من علاماتهم، قال الزمخشري: " يعرفون بسماهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون " (٣) أي: يُعرف يوم القيامة أهل الاجرام بعلامات تظهر عليهم.. " قال الحسن: سواد الوجه وزرقة العين كقوله - تعالى - : ﴿ وَتَحْسُرُ الْمَجْرِمِينَ بِوَجْهِ رَبِّكَ ﴾ (٤)

واجتماع هذين اللونين فيه دلالة عميقة على الكناية والغم، فهما تجسيد لما يعتمل في نفوسهم من شدة الموقف وهوله وما يعانين من العذاب المهيمن الذي صورته الكناية الأخرى ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ والاهانة واضحة في صورة العذاب التي يُؤخذ بها المجرم على انفراد لتحويل صورتها وتشييعها وابرازها للعيان ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ فهي كناية عن شدة العذاب وعذفه، أي: " يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره، وقيل تسحبهم الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام " (٥) وقال ابن عباس: " يُؤخذ بناصرية المجرم وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب ثم يُلقي في النار " (٥).

وهم في هذه الحال من العذاب الشديد المروع المهين يسألون سؤال التوبيخ والتقريع زيادة في العذاب النفسي فوق عذابهم المادي ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ ﴾ أي " يُقال لهم تقريعاً وتوبيخاً هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم " (٦) قال ابن كثير: " هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً " (٧) وهم ﴿ يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(١) سورة الرحمن ، الآيات: ٤١ - ٤٤.

(٢) الكشاف: ٤ / ٣٥٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ١٧٥.

(٤) الكشاف: ٤ / ٣٥٩.

(٥) صفوة التفسير: ٣ / ٢٩٨.

(٦) المصدر نفسه: ٣ / ٣٩٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٧٧.

﴿أي: " يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار بلغ النهاية في الحرارة، قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم، ومرة بين الجحيم، والحميم الشراب الذي انتهى حره " (١)﴾  
وهكذا فإن الكناية باللون الأزرق التي توأمت معها الكناية ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ﴾  
بالمعنى والصورة، فضلاً عن الكناية التي صورت عذابهم في نار جهنم ﴿فِي وَعْدٍ بِالنَّارِ﴾  
و﴿الْأَقْلامِ﴾ تجلي على نحو مخصوص العذاب بنوعيه: المادي والتفسي، الذي يواجهه  
المجرمون يوم القيامة.

### الكناية باللون الأخضر والأصفر:

يشير القرآن الكريم باللون الأخضر والأصفر في بعض آياته التي يمكن حملها على  
الكناية إلى دلالات متضادة، وذلك من خلال هذين اللونين في سياق عالم الذبذبات ذي الخلق  
المعجز والمعاني المتدفقة. إذ تتمخض عنهما دلالات متضادة بين الموت والفناء، والانبعاث  
والحياة (٢).

الكناية باللون الأخضر في معناها الحقيقي القريب تشير إلى الحياة المنبثقة من أعماق  
التربة الميتة. والكناية باللون الأصفر في معناها القريب تشير إلى الموت والتحطم بعد  
الحياة النامية الزاهية.

ولا نقف الدلالة في هذا المجال، بل هي توحى بالعبارة البالغة التي تؤيدها للانسان  
في رحلتها هذه بين الحياة والموت، عبرة تحمي الانسان من أن يذسى نفسه والمسافة التي  
يقطعها بين حياته وموته تؤدي به إلى الكفر والطغيان.

فعلى صعيد الكناية باللون الأخضر نقرأ هذه الآية الدالة على قدرة الله التي تحيي  
الأرض الميتة بالماء النازل من السماء، فتصبح الأرض مخررة بالنبات والزرع وهي  
قوله - دعالي -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفُ  
خَبِيرٌ﴾ (٣).

يتخذ القرآن من هذا المشهد الطبيعي الخلاب دليلاً حسيماً مشاهداً على قدرة الله في  
بعث الحياة من الموت في مشهد مذكور تتملاه العين ويتحسسها الوجدان، وهو مشهد

(١) صفوة التفسير: ٢٩٨ / ٣، ٢٩٩.

(٢) ينظر: مع القرآن في عالمه الرحيب، د. عماد الدين خليل، ص ١٩٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٣.

عجيب كما دلَّ الاستفهام بالهمزة الذي تصدر الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ وهو استفهام يقيد (التعجيب) من هذه الظاهرة المتكررة، ظاهرة بعث الحياة من أعماق التربة الميتة، فبافت الانتباه إليها بهذا الاستفهام، فهي تثير نوازع التأمل والتفكير في المشاهد.

وهذه الحياة المنبثقة من الموت تدل عليها الكناية باللون الأخضر التي تصبغ الأرض على امتداد البصر: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ، والمعنى القريب الذي تشير إليه الكناية هو: " فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء المعنى بصيغة المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن " (١) فهي قدرة الله العظيمة تتجلى ليس في بعث الحياة في الأرض الميتة فحسب، وإنما الحياة الهادفة المرتبطة بحياة الإنسان ارتباطاً يثير فيه نوازع الخير وتحسس الجمال من خلال هذه الأرض المكسوة بالجمال المنظور.

أما المعنى الكنائي البعيد الذي تشير إليه، فهو إثبات البعث والنشور، أي بعث الموتى إلى الحياة لحسابهم وجزائهم، وقد لُحظ ابن عباس - رضي الله عنهما - هذا المعنى والغرض الذي تهدف إليه هذه الكناية بقوله: " إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت " (٢) وهذا المعنى يتجلى من الكناية أولاً، ومن طبيعة القرآن ومنهج في إثبات فكرة البعث والنشور ثانياً، فالقرآن على الأغلب " يتخذ من صور الطبيعة الحية، وسيلة لإثبات البعث والنشور، ولما كانت أحوال النبات حية ماثلة للعيان، يشهداها الناس مراراً وتكراراً، فإن القرآن اهتم بها كثيراً. وبعض أحوال النبات والأشجار، لها صورة مقارنة لعملية البعث والنشور نفسها، كما يدلنا عليها التعبير القرآني " (٣) وهذه المقارنة بين بعض أحوال النبات والشجر وعملية البعث والنشور تتضح من خلال مفهوم عملية البعث، فمفهومها هو: " أن الأجسام التي فقئت الحياة، لا تثبت أن تنبض بالحياة من جديد، وتخرج من باطن الأرض، فهذه هي صورة البعث، كما يستحضرها الخيال بدلالة القرآن، وخروج النبات من الأرض الهامدة الساكنة التي لا تبدو فيها حياة، شبيهة بهذا الإخراج " (٤) كما أن الماء هو أنسب ما تمثل به الحياة، فقد اقترنت

(١) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧. وينظر: الكشاف: ٣ / ١٣٢.

(٢) صفوة التفسير: ٢ / ٢٩٧.

(٣) الطبيعة في القرآن الكريم ، د. كاسد ياسر الزبيدي ، ص ٣٤٦.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٤٦- ٣٤٧.

الحياة في كل أشكالها في القرآن بالماء، ويشير إلى ذلك كثير من آياته (١)، فهو قوام الحياة، والعنصر الرئيس في بنيتها وتركيبها "فالحياة والماء كالشيء وظله، وما يطرأ على الشيء من تحول أو تبدل، يستتبع بالضرورة تغييراً مماثلاً في ظله، ومن هنا جاء بالماء، لأن المنحكم بالشيء متحكم بظله، فمن تعذر عليه فهم حقيقة الحياة وماهيتها، بوسعه أن ينظر إلى مصدرها، وما جعله الله سبباً لها" (٢).

والمعنى المكنى عنه اثبات البعث والنشور الذي أشارت إليه الكناية بتناسق فنياً مع جو سورة الحج التي وردت فيه الآية (٣)، فهي تعالج فكرة البعث بعد الموت معالجة كبيرة في شتى الصور، منها الصورة التي نحن بصددتها في مشهد من مشاهد الطبيعة.

ولا يخفى ما في الكناية باللون الأخضر من بعد جمالي محسوس لأن هذا اللون "أكثر سحراً، وأبعد عمقاً في تقبله وتأثيره" (٤) في المتلقي من أي لون آخر وهو يصنع الأرض الممتدة على طول البصر. وفيه إيحاء كمال القدرة المطلقة التي تبعث الحياة في أزهي صورها تزين بها هذا الوجود ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ختام للآية يتناسق مع ما أشارت إليه الكناية في معناها القريب والبعيد، فدبيب الحياة في الأرض الميئة، وهي حياة هادفة فيها الخير والجمال، أو دبيب الحياة في الموتى لحسابهم وجزائهم يتجلى فيها لطف الله الخبير وقدرته.

والبعد الجمالي للون الأخضر يتجلى من خلال ارتباطه بالحقول والحدائق والأشجار، وهذا ارتباط يشير إلى الخصب والرزق (٥) ومن ثم فهو لون النعيم في الجنة، وقد ورد في القرآن الكريم وصف ملابس أهل الجنة بالخرقة كما في قوله - تعالى - ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (٦) وقوله - تعالى - ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مَسْنُودٌ خُضْرًا وَإِسْتَبْرَقًا﴾ (٧) لذلك يمكن عد اللون الأخضر في الجنة كناية تشير إلى معناها المكنى عنه البعيد

(١) ينظر: سورة النحل، الآية: ٦٥. وسورة الأنبياء، الآية: ٣٠، وسورة الحج، الآية: ٥. وسورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٢) الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفياض، ص ٣١٩.

(٣) ينظر: الأيتان، ٥، ٧، مثلاً.

(٤) عالم عناصر الفن، ص ١٣٦. وينظر: اللغة واللون، ص ٧٩. وينظر: التعبيرات القرآنية والبيئية العربية، ص ٢٧٩.

(٥) ينظر: اللغة واللون، ص ١٦٤.

(٦) سورة الكهف، من الآية: ٣١.

(٧) سورة الإسنان، من الآية: ٢١. وينظر: سورة الرحمن، الآية: ٧٦.

ويتمثل في الخلود، أي خلودهم في جنات النعيم لكرامتهم على الله ﷻ الذي أخلصوا له قنعمهم وأكرمهم بالنعيم الدائم، فهو لون يشير إلى النعيم المادي والروحي سواء.

وترد الكناية باللون الأخضر في سياق مثل قرآني في صورة حسية مشاهدة، يستدل بها القرآن بإمكان البعث والذشور لأدجل الحساب والجزاء، وذلك في قوله - تعالى :-

﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿١﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله - تعالى :- ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ كناية

جاءت في سياق اتيار البعث بعد الموت والذي سوغ لنا عد هذا التركيب كناية، طبيعية الأسلوب الكنائي الذي يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، كما في هذا التعبير الذي جاء في هذا المثل القرآني، والمعنى القريب للكناية: " ابراز الشيء من ضده، وذلك أبداع شيء، وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء " (٢). وقد أشار الطبري في تفسيره إلى المعنى القريب، والمعنى البعيد المكنى عنه، فقال: " أي الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز أحياء العظام البالية واعادتها خلقاً جديداً " (٣).

فالتعبير الكنائي: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ... ﴾ قائم على التضاد في المعنى، والتضاد من شأنه أن يجلي المعنى المكنة عنه في أعق صورة، فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض (النار)، لأن الماء يطفئ النار، فتخرج مما هو مشتمل على النقيض، وهي حالة محسوسة مشاهدة في صورتها ومعناها تشير إلى المعنى المكنى عنه البعيد وهو اخراج الحياة من الموت " فالذي أخرج من الشجر ناراً، لم يكن يتوقع أن تخرج منه، قلدر على أن يخرج الإنسان - الذي يظن المشركون أنه لن يخرج - من مرقده الذي ثوى فيه، بعد أن غيبه البلى بين ظهرانيه " (٤).

(١) سورة يس، الآيات: ٧٨ - ٨٠. وينظر: سورة الواقعة، الآيات: ٧١ - ٧٣.

(٢) البحر المحيط: ٧ / ٣٤٨. وينظر: الكشاف: ٤ / ٢٤.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٣ / ٢١ - ٢٢.

(٤) الطبيعة في القرآن الكريم، ص ٣٤٩.

فالقُرآن في هذه الصورة الكنائية يقرب إلى الأذهان حقيقة البعث والنشور، فهو يجعل من هذه المحسوسات في الطبيعة القريبة إلى الحس والوجدان دليلاً حسيماً شاخصاً للعيان يستدل بها على أن الناس سيبعثون وأنهم سيحاسبون على ما يفترون (١) أما على صعيد الكناية باللون الأصفر الذي تشير إلى الموت والفناء بعد الحياة، فإننا نلاحظها في سياق عالم النبات أيضاً في قلبه السريع بين الحياة والموت، ذقراً ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) تستهل الآية بالاستفهام بالهمزة الذي أفاد التعجيب فإلتفت الانتباه إلى هذه الظاهرة الطبيعية المكرورة في كل زمان ومكان، وهي ظاهرة عجيبة دالة على قدرة الله ورحمته بالإنسان.

قال الزمخشري: " فسلكه: فأدخله ونظمه ﴿ يَنبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير ومسمم ﴿ يَهِيجُ ﴾ يتم جفافه، عن الأصمعي: لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿ حُطَلًا ﴾ فناناً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا ﴾ لتذكيراً وتنبهاً، على أنه لا بد من صنائع حكيم، وأن ذلك كاشف عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل واهمال " (٣)

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا ﴾ على وجه الأجمال يمثل حقيقتي: الحياة المتجددة ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ في أزهى صورها وبريقها، وحقيقة الموت والفناء ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا ﴾ في صورة حسية مشهودة تتملأها العين ويحسها الفكر والوجدان، ذلك في عالم النبات الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً مصيرياً.

والذي يهمننا الكناية باللون الأصفر ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ... ﴾ التي أشارت إلى معناها القريب وهو (الموت) المرتبط بالزرع في كل هيئاته وأشكاله وألوانه بعد تحوله من

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١. وينظر: سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) الكشاف: ٩٤/٤.

ذروة الحياة في تشكيلها الجمالي في ألوانه وخضرته ونضرتة إلى الموت في تينسه وجفائه وزواله.

أما المعنى البعيد الذي تنطوي عليه الكناية، فقد أشار إليه عدد من المفسرين. قال ابن كثير: " هكذا الدنيا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشاب يعود شيخاً هرمًا، كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت " (١) وقال القرطبي: " إن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن " (٢) وقال الصابوني: " تمثيل لحياة الإنسان بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، متحطم الأعضاء، متكسراً كالزرع بعد نضرتة، ثم يكون عاقبته الموت " (٣).

فقصر الحياة الدنيا أو قصر حياة الإنسان من المعاني التي أشار إليها القرآن في مواضع كثيرة (٤) وقد دللت عليها الكناية باللون الأصفر وبخاصة قصر حياة الإنسان المرتبطة بحياة النبات. وبلاغة الكناية أنها تمثل المعنى بالطريقة الحسية المألوفة للإنسان ليكون المعنى الذهني مؤثراً في الحس والنفس ولتحقق بذلك الاستجابة النفسية التي يهدف القرآن تحقيقها في المتلقي، فهذه الحياة الدنيا هي كالزرع في تقلبه وتحوله من الحياة إلى الموت، والإنسان يشاهد هذا التقلب ويتحسس هذا التحول في مشهده المكروور فلا يغتر بها ولا ينسى نفسه وهو يقطع رحلته بين الحياة والموت. وحياة الإنسان، أو الحياة البشرية في نهاية المطاف لا تعود أن تكون المعادل الإنساني لعالم النبات، وذلك لأن الإنسان يخرج من رحم أمه، لكن ما يلبث بعد رحلة تطول أو تقصر، أن يذبل ويتيبس ويغيب ثأديته في قلب التراب (٥) فالموت هو النهاية التي ينتهي إليها كل حي بعد حياة زمنية قصيرة كما دللت الكناية باللون الأصفر، بل أن القرآن يختزل هذا الزمن اختزالاً، فلا يبقَى بين الحياة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٥٥.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ٧٦.

(٤) ينظر السور الآتية يونس، الآية: ٢٤، والكهف، الآية: ٤٥، والحديد، الآية: ٢٠ مثلاً.

(٥) مع القرآن في عالمه الرحيب، ص ٢٠٠.

(٦) هذه الكناية تشير إلى اللون الأسود أرجانها إلى هذا الموضع لأنها في سياق عالم النبات.

والموت أيما فاصل زمني. نقرأ ذلك في كناية لودية أخرى (٢) في سياق الذبات أيضاً، هي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَمَلَهُ غَتَاً أَحْوَىٰ ﴾ (١)

والمعنى القريب: " أنبت ما ترعاه الدواب، من الحشائش والأعشاب، ﴿ فَجَمَلَهُ غَتَاً أَحْوَىٰ ﴾ أي فصنّره بعهد الخضرة أسود بالياً، بعد أن كان ناضراً زاهياً (٣).

والبادي أن المعنى أشمل من هذا، وذلك لأن المرعى كل نبات، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق مما خلق الله. فهو هنا أشمل مما نعده من مرعى أنعامنا، فإله خلق هذه الأرض وقدر فيها أوقاتها لكل حي ينب فوق ظهرها، أو يخدب في جوفها، أو يطير في جوها (٤).

والكناية باللون تتجلى في قوله - تعالى - ﴿ فَجَمَلَهُ غَتَاً أَحْوَىٰ ﴾ والأحوى هو اللون الأسود الذي ينتهي إليه المرعى عند ذبوله وسوته. جاء في أسلمس البلاغة: " وشعر أحوى: أسود، ورجل أحوى: شاب أسود الشعر " (٥)، والغتاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشائش والأوراق والنباتات (٦). فهو الموت والبلى بعد الخضرة والحياة في تلك السرعة التي لا نلمح فيها فاصلة زمنية بين الحياة والموت كما أفاد ذلك حرف العطف الفاء الذي يفيد التعقيب، أي تعقيب الخروج بالذبول والموت، فلا يبقى في مدى الرؤية غير الموت الذي يكتسح الحياة.

أما المعنى الكنائي البعيد لهذه الصورة الموحدية فهو سرعة زوال الحياة الدنيا التي يغير بها الإنسان ويؤثرها على الحياة الباقية. وهذا المعنى المكنى عنه يتسق مع جو السورة والحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٧).

### الكناية باللون غير المباشر:

في القرآن كنايات لودية، يدرك اللون فيها في صورة غير مباشرة فيشير اللون المتداعي إلى دلالاته، وترد هذه الكنايات غير المباشرة في مشاهد يوم القيامة، نلاحظها نعلو

(١) سورة الأعلى، الآية: ٤.

(٢) صفوة التفسير: ٣ / ٥٤٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥٤٩.

(٤) مادة (حوى). وينظر: كتاب الملصع، للنمري، ص ٦٩.

(٥) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ١١٦ (غتاء).

(٦) سورة الأعلى، الآية: ١٦-١٧.

وجوه الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل في تلك المشاهد، ألوان مشرقة تدل عليها هذه الكنايات ترسم في وجوه المؤمنين الفائزين. وألوان قاتمة ترسم على وجوه الكافرين الفاجرين على التقابل في الصورة والمعنى.

وبذلك فإن القرآن الكريم قد استعمل ألواناً عديدة تدل عليها هذه الكنايات منها: للدلالة على ثواب المؤمنين وقوزهم بما توحى به من إحياءات الاشرار والتهلل والجمال والاستبشار، ومنها للدلالة على عقب الكافرين وخسرانهم بما تحمل من إحياءات الغم والحزن والتحسر والاكتئاب<sup>(١)</sup> من ذلك:

### الكناية بالأسفار والغبرة والقفرة:

ترد هذه الكنايات في مشهد من مشاهد يوم القيامة في وصف حال الفريقين في قوله تعالى :- ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ حَاجِكُمْ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْفَعُهَا قَفْرَةٌ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْغٰبِرَةُ ۗ** ﴾<sup>(٢)</sup>

التقابل القائم على التضاد بين حال الفريقين هو الأطار الفني الذي يبرز المشهد ويكشف عن عمق المعاني والإحياءات للكنايات المتضادة التي تجسد الحالة النفسية لكل من الفريقين بما يرتسم على الوجوه في صورة حيوية مؤثرة.

كناية الأسفار تصور المؤمنين في هذه الصورة المشرقة: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ** ﴾ إذ يتداعى لون مشرق من وجوههم، قال الزمخشري: "أسفر الصيح: أضاء. وخرجوا في السفر: في بياض الفجر، ورحب بنا بسفر: ببياض قبل الليل.. ووجه مسفر: مشرق سروراً"<sup>(٣)</sup> فالإسفار "يختص باللون"<sup>(٤)</sup>، فهي وجوه مضيئة مشرقة من البهجة والسرور. وجاءت الكناية ﴿ **مُسْفِرَةٌ** ﴾ بصيغة اسم الفاعل لتوحي يتمكن هذا الوصف منهم، ويعمق هذا المعنى ويصعده الآية ﴿ **حَاجِكُمْ مُّسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ بصيغة اسم الافاعل أيضاً لتدل على الثبات

(١) ينظر: الفاظ الثواب في القرآن الكريم ، ص ١٩٨.

(٢) سورة عبس ، الآيات: ٣٨- ٤٢.

(٣) أساس البلاغة ، ص ٢١٢ (سفر). وينظر: الكشاف: ٤ / ٥٦٤.

(٤) المفردات ، ص ٣٤١.

(٥) الأصل في (اسم الفاعل) أنه ادوم وأثبت من الفعل في دلالاته ، ولكنه لا يرقى إلى ثبوت الصفة المشبهة. ينظر: معاني الأبدية في العربية ، د. فاضل صالح السامرائي ، ص ٤٧ وما بعدها. أما هنا في الآية فقد أفاد اسم الفاعل المتكرر (الثبات والادوم) بالنظر إلى السياق فهو كالصفة المشبهة في ثباته ودوامه.

والنوام (٢)، أي: " فرحة مسرورة بما رآته من كرامة الله ورضوانه مستبشرة بذلك الدعيم الدائم " (١).

واللون المتداعي من اشراق وجوهم واضاءتها في ذلك الموقف يمكن وصفه باللون الأبيض، وهو من الألوان الناصعة الخالصة (٢) يعمل على تكديف تلك الحالة النفسية المسرورة المبهجة التي هم فيها ويشير إليها على نحو لا يمكن وصفها بالكلمات، بل يتخيلها المتلقي ويملأها ليدرك معناها وتأثيرها في حسه ووجدانه في ذلك المشهد العصيب. ويقابل هذه الصورة في اشراقها وسعادة أهلها الصورة الكنائية القاسمة التي ترتسم على وجوه الكافرين ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَرِبَةٌ ﴿١﴾ تَرْغَبُهَا قَوْمٌ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْعَجْرُ ﴿٣﴾﴾. إذ تواسجت كنايةتان لونيتان ﴿عَرِبَةٌ﴾ و ﴿قَوْمٌ﴾ في إخراج صورة الكافرين الفاجرين لتصعيد الدلالة في الصورة والمعنى. في الصورة بتشويه منظرهم بلونين منفردين، فمن الكناية ﴿عَرِبَةٌ﴾ يتداعى لون الغبار وهو يزدُّ إلى الألوان غير الناصعة الخالصة (٣) ومن الكناية ﴿قَوْمٌ﴾ يتداعى اللون الأسود. قال الراغب: " ومن الغبار اشتق الغبرة وهو ما يعلق بالشيء من الغبار، وما كان على لونه. قال تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَرِبَةٌ﴾ كناية عن تغير الوجه للغم " (٤) والقترة أصلها " من القتر والقترة، وهو الدخان الصادر من الشواء والعود ونحوهما. وقوله تعالى: ﴿تَرْغَبُهَا قَوْمٌ﴾ نحو غبرة، وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب " (٥). وقال الزمخشري " غبرة: غبار يعلوها ﴿قَوْمٌ﴾ سواد كالدخان، ولا ترى أو حش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا عبرت، وكان الله ﷻ يجمع إلى سواد وجوهم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر " (٦).

فالكنايتان في لونهما القاتم تشيران على نحو مكثف إلى تلك الحالة النفسية لهؤلاء في ذلك الموقف الذي يواجهونه، حالة نفسية مكروبة ملؤها الغم والحزن ومصيرها الخيبة والخسران. وهي الصورة التي تقف على التصادم إزاء صورة المؤمنين، وبالتصاد يترسخ المعنى في ذهن المتلقي لحال الفريقين.

(١) صفوة التفسير: ٣ / ٥٢٤.

(٢) ينظر: كتاب الملمع ، ص ٨.

(٣) ينظر: كتاب الملمع ، ص ٨.

(٤) المفردات ، ص ٥٣٥. وينظر: صفوة البيان لمعاني القرآن ، ص ٧٨٥.

(٥) المفردات ، ص ٥٩٣. وينظر: أسانن البلاغة ، ص ٣٥٤ (قتر).

(٦) الكشاف: ٤ / ٥٦٤. وينظر: التعبير القرآنية والبيئة العربية ، ص ١٤٠.

ويتداعى اللون الأسود في صورة كثيفة ازاء صورة مشرقة على التقابل في مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى :- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَرِثَةً وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٧﴾ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ حَاصِرٍ كَانَمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (١)

فالصورة المشرقة للذين أحسنوا تتداعى من خلال نفي القتر والذلة عن وجوههم ﴿وَلَا يَرَهُمْ وَجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي: "أي لا يغشى وجوههم دخان ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار، ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار" (٢) ونفي القتر عنهم بلونه الأسود إثبات لإضاءة وجوههم واشراقها كناية عن سعادتهم وحالتهم النفسية المسرورة المبتهجة. فهي كناية تشير إلى كناية (الأسفار) والاشراق السابقة، إلا أن الكناية هنا تبدو أكثر إشراقاً وإضاءةً، وذلك لأنها تقف على التضاد مع الذين كسبوا السيئات في صورتهم التشبيهية: ﴿كَانَمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا...﴾ أي: "كانما أظلمت وجوههم من قرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل" (٣) والليل بطبيعته مظلم، فلا يحتاج إلى وصفه بالسواد وهو اللون المتداعي من ﴿مُظْلِمًا﴾ ، لكن التقابل في سياق المشهد يعمل على إبراز عنصر التضاد حاداً قوياً من خلال تكثيف اللون الأسود ليحلي الصورة المقابلة في صورة بارزة قوية في اضاعتها واشراقها. قال الشريف الرضي في ﴿مُظْلِمًا﴾: "وفيه زيادة معنى. لأن الليل قد سمي ليلاً وإن كان مقمراً، فلما قال ﴿مُظْلِمًا﴾ ، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلياباً، وأبهم أثواباً" (٤) فالذهن يستخلص صورة بالغة في السواد والقيح (٥). وبذلك يشير اللون الأسود الكثيف الذي يعتري وجوههم إلى المعنى السكني عنه بعمق وهو عظم الغم والحزن والاكتئاب الذي بصطرخ في أنفسهم في ذلك الموقف الرهيب.

### ناضرة وباسرة:

- (١) سورة يونس ، الأيتان: ٢٦- ٢٨.  
(٢) صفوة التفسير: ١ / ٥٨١. وينظر: الكشاف: ٢ / ٢٦٩.  
(٣) صفوة التفسير: ١ / ٥٨١.  
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١٥٥.  
(٥) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم ، د. حامد صالح قنبي ، ص ٣٥٠.

تصور هاتان الكنيتان اللويتان حال الفريقين: (المؤمنين والكافرين) في مشهد من مشاهد يوم القيامة نلاحظ فيه تصاعد اشراق وجوه المؤمنين إلى الذروة حيث تتطلع إلى النظر إلى جلال ربها والاستغراق فيه. وبالمقابل نلاحظ وجوه الكافرين وهي كالحة صفراء تتوقع داهية وعذاباً ينزل بهم فيزدادون عذاباً فوق عذابهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَجُوهٌ كَأَصْفارٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ **وَإِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَابِرَةٌ** ﴾ **تَكُنُّ أَنْ يُعَلَ بِهَا قَابِرَةٌ** ﴾ (١).

المؤمنون وما هم فيه من سعادة وسرور تصوره الكناية: ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَأَصْفارٍ** ﴾ جاء في لسان العرب: "النضرة: النعمة والعيش والغنى، وقيل: الحسن والرونق، وقد نضرت الشجر والورق والوجه واللون، وكل شيء ينضر.. فهو ناضر أي حسن" (٢). وكلا المعنيين تشير إليهما الكناية ﴿ **كَأَصْفارٍ** ﴾: النعمة والغنى، والحسن والرونق المرتسم على وجوههم، وأحدهما متصل بالآخر ويدل عليه. قال القراء: "أنها مشرقة بالنعيم" (٣) وقال الطبري: "حسنة جميلة من النعيم" (٤) ومثل هذا قول الزمخشري (٥) فوجوههم ناضرة مشرقة بنعيم الجنة، كما قال تعالى - في مواضع أخرى: ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾ (٦) ﴿ **وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ** ﴾ (٧) ﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ** ﴾ (٨) أي: "إذا رأيتم تعرف أنهم أصحاب نعمة لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه" (٩) وقوله: ﴿ **وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورٌ** ﴾ أي: "وأعطاهم نضرة في الوجه، وسروراً في القلب، والتكثير في ﴿ **سُرُوراً** ﴾ للتعظيم والتفخيم" (١٠) و ﴿ **نَاعِمَةٌ** ﴾، أي: "ذات بهجة وحسن" (١١) فذعيم الجنة الذي هم فيه مغمورون يرتسم على وجوههم بريقه ونداه، لأن القرآن الكريم حينما يصف وجوه المؤمنين بالنضارة لا يعبر عن معنى الحسن فيها حسب، بل

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٢، ٢٤.

(٢) ٢١٢ / ٥ (نضرت).

(٣) معاني القرآن: ٢١٢ / ٣.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ١١٩ / ٢٩.

(٥) الكشاف: ٥٢٩ / ٤.

(٦) سورة المطففين، الآية: ٢٤.

(٧) سورة الاحسان، من الآية: ١١.

(٨) سورة الغاشية، الآية: ٨.

(٩) صفوة التفسير: ٥٢٣ / ٣.

(١٠) المصدر نفسه: ٤٩٣ / ٣.

(١١) الكشاف: ٥٩٤ / ٤.

يحمل اللفظ الدلالة على الأشراق والبريق والخلوص (١) وبذلك تعكس هذه الكناية اللونية " صورة حية في وصف وجوه المؤمنين، فقد اقترنت النضرة بأحب صورة إلى نفس العرب، ألا وهي صورة النبات الناضر، وذلك أن يكون شديد الخضرة مع اشراق ولمعان متأب من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً " (٢).

فهذا اللون المشرق من الأنور والبياض والخضرة المتداعي من الكناية ﴿نَاضِرَةٌ﴾ يشير إلى تلك الحالة النفسية التي ملؤها البهجة والسرور والسعادة بما يليق معها أو تمكنها من النظر إلى وجه الله الكريم: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ أي: "تنظر إلى جلال ربها، وتبهيم في جماله، أعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى - جل و علا - والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجب" (٣)، وقال الطبري: قال الحسن البصري: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق (٤). والجناس بين الكلمتين ﴿نَاضِرَةٌ و نَاطِرَةٌ﴾ مبعث تأمل عميق كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين (٥) في الصلة بين معنى النضرة، وما يترتب عليه، والنظر إلى الله وما يترتب عليه، من الاسترواح في جلال الله ورضاه.

أما الكافرون فكما تصورهم الكناية ﴿كَايِرَةٌ﴾ فوجوههم: "شديدة الكلوحة والعبوس" (٦) فهي مقطبة لما ينتظرها من العذاب، وفضلاً عن ذلك فهي وجوه صفراء كالحلة كما أوحى الكناية، لأن اليسارة لثمرة النخل قبل أن تصير رطياً " لأن أول الثمر طلع، ثم خلال، ثم يلح، ثم يثمر، ثم رطب، ثم ثمر" (٧)، فهي صفراء كالحلة (٨)، تشير إلى ما يصطرع في أنفسهم من الهم والحزن والاكتئاب، ويتصاعد هلعهم وعذابهم النفسي، بما يتوقعونه من العذاب الشديد القاصم الذي صورته ﴿فَاقِرَةٌ﴾: ﴿تَكُنُّ أَنْ يَمَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: " تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وقضاوته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقسم فقار الظهر " (٩) فهي صفة الموصوف المحنوف داهية التي تأتي بعذاب عظيم يحل بهم، فهو الخوف والرعب

(١) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم ، ص ١٦٠.

(٢) التعبير القرآنية والبيئة العربية ، ص ١٦١.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٦.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ١٢٠.

(٥) فتحي احمد عامر ، المعاني الثاني في الأسلوب القرآني ، ص ٤٥٨.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٣.

(٧) لسان العرب: ٤ / ٥٨ (بسر).

(٨) ألفاظ الثواب في القرآن الكريم ، ص ١٩٧.

(٩) الكشاف: ٤ / ٥٣٠.

والهلع في مشهدهم العصيب، فهم يتوجسون أن تنزل بهم داهية تقصم الفقار. والتوجس شر من وقوع العذاب (١). مشهد أرهقهم فغشى وجوههم ما غشيناها من صفرة وكلاحة وعبوس وقطوب، من قبل أن تلقى هول العذاب الأكبر في نار جهنم (٢).

وتتكرر الكناية ﴿كَايِرَةً﴾ في القرآن بصيغة الفعل الماضي "بَسَرَ" في سياق يصور الوليد بن المغيرة المخزومي (٣) في صورة شديدة الإنكار تثير السخرية من حاله وهو ينهم القرآن بالسحر، وشدة الإنكار مكتسبة من كون هذه الكناية قد وردت في سياق شهد من مشاهد القيامة فتلقي ظلالها على هذا السياق الجديد وموحية بمصيرها المحتوم، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ نَكَرَ وَنَدَرَ ﴿١﴾ فَمِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿٢﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿٣﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٤﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٥﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٦﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا جِزْمٌ يُؤْتَرُ ﴿٧﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٨﴾﴾ (٣)

الكناية ﴿وَبَسَرَ﴾ تمثل لقطة تصويرية ضمن مجموعة لقطات يرسمها التعبير القرآني الموحى "لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء ﴿ثُمَّ يُقِيلُ!﴾ واستنكار كله استهزاء ﴿كَيْفَ قَدَرَ﴾ ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله، وهذا الحزق كله لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن الذنور ويسكتنر عن الحق " (٤) ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا جِزْمٌ يُؤْتَرُ ﴿١﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢﴾﴾ .

فالكناية رسمت تقطيب وجهه الكالج، فضلاً عما أوحى به من السحنة الصفراء التي تعلق وجهه وهو يتعجل بوصفه القرآن بالسحر، قال الراغب: "البسر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه.. وقوله ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه، وفي غير وقته " (٥) فهو التقطيب المتكلف المصطنع ليخفي به الحقيقة التي يسد شعرها بعدما ضاقت به الجيول ولم يدبر ما يقول في حقيقة مصدر هذا القرآن.. ولكنه التكبير يصده عن قول الحقيقة، فيواجهه

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٦.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرقم، ص ٤٦١.

(٣) قد وردت روايات المتعددة بأن المعنى هنا الوليد بن المغيرة المخزومي. ينظر: لباب القول في أسباب النزول، ص ٧٧٣.

(٤) سورة المنثر، الآيات: ١٨ - ٢٥.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٥) المفردات، ص ٦٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ٥٧ (بسر).

القرآن بالتهديد الحاسم، والسخرية اللاذعة كمال تصورها الكناية: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ، أي: "أدبر عن الحق واستكبر عنه فقال ما قال" (١)، والسخرية تتجلى بالكناية ﴿أَدْبَرَ﴾ إذ فيها إشارة إلى (استاه) وهو يتولى عن الحق للسخرية منه والاستهزاء، وقد قَدَمَ السياق ادباره على استكباره ليوحى أن ادباره عن الحق ونفوره منه كامن في طبيعته التي لا تتطلع إلى سماع الحق أصلاً، فكانه لم يسمعه فترتب عليه الاستكبار، فضلاً عن أن (الإدبار) حركة حسية مرنية تمهد لصفة عقلية (الاستكبار) تقريراً في نفس المتلقي، ثم لا يغفل إيقاع السياق الموسيقي الذي اعتمد الفاصلة حرف الراء يتطلب هذا التقديم لإغناء المعنى (٢).

ويبين لنا من عرض أمثلة الكناية باللون المباشر وغير المباشر أنها كانت غنية بإحساساتها، فهي قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتوحي بأكثر من دلالاتها الظاهرة.. وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني العقلية والنفسية في حيوية وقوة تأثير وإمتاع.

(١) الكشف: ١ / ٥١٩.

(٢) إن اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في العطاء الموسيقي ذلك أن الموسيقى فيه لا يتبع من وزن

شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ، ولكنها تتبع من اللغة نفسها ، من انتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتتألف وتتألف وتتألف ودلالاته عليه ، وقد بلغت هذه الخصيصة في القرآن النزوة في التكامل والوضوح. " الجرس والإيقاع في تعبير القرآن ، د. كاصد ياسر حسين ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. وينظر: فقه اللغة العربية ، د. كاصد ياسر الزبيدي ، ص ١٣٦. وينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في: البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر هلال ، ص ٢٨٨ وما بعدها.



## الفصل الثالث

### الكناية النفسية



## الفصل الثالث

### الكناية النفسية

تتحدد الغاية الأساسية من دراسة الكناية النفسية في الوقوف على الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي تجسدها الكناية بالتصوير الفني المؤثر. والتصوير هو الأداة الشائعة في أسلوب القرآن، فهو يعبر: "بالصورة المحمّلة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الأحداث المدسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمتدحها الحياة الشاذة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية مجسمة مرئية. أما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيوردها شاذة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخيل" (١).

والكناية القرآنية لا تقف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يوحي التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتتفاعل لبه النفس انفعالاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في المستلقي. فالكناية القرآنية تخرج فيها المعنويات والمجردات والانفعالات النفسية باللباس الحسي الذي يكون تأثيره في النفس والذهن أعمق من المجردات، وفي ذلك يقول الرازي: "إلف النفس مع الحسيات أتم من إلفها مع العقليات فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتشكيل الحسي فكأنه قد نقلت النفس من الغريب إلى القريب" (٢).

فنقل المعاني في صورة حسية يزيد قوة وتأثيراً، وهذا ما نلاحظه مع الكناية النفسية في القرآن الكريم إذ تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية والخلاجات الشعورية في حركات حسية نابضة بالحياة ترسم نموذجاً جاء بشرياً بكل

(١) التصوير الفني في القرآن، ص ٣٢.

(٢) نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٠٨، وينظر: تفسير التحرير والتوير: ٩ / ٢٦٨ - الكتاب الثاني ج: ١٠ / ٢٥.

عواطفه ومشاعره وانفعالاته المختلفة من ندم وحسرة وغبط وحقد وحسد، وجحود وإعراض وهزيمة، وخوف وهلع وقزع، واحتقار واستهانة، وفرح ومسرّة وطمانينة تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في بعض مشاهد يوم القيامة المروعة.

فالكناية القرآنية أسلوب تصويري من أساليب التصوير الفني يعمل على إثارة الانفعالات الوجدانية، وتغذية الخيال بالصور والمعاني والظلال وهو يعرض تلك المشاهد المتنوعة في طريقة لا نجدتها بالأسلوب الذهني التجريدي، إذ إنّ الأسلوب الذهني يعرض المعاني والأفكار في طريقة "تخاطب الذهن والوعي، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، وفي الطريقة التصويرية يخاطب الحس والوجدان، وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحس عن طريق الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأصدا والأضواء. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد" (١).

لذلك سيعنى هذا الفصل ببيان الأثر النفسي الكامن في الكناية القرآنية في سياقاتها وموضوعاتها التي صورتها.

وستعمد إلى تناول الكنايات القرآنية النفسية كل كناية على انفراد، ومن ثمّ تحلّول أبرز الآثار النفسية التي انطوت عليها بوصفها أحد الأساليب الفنية البارزة في القرآن.

### عض الأنامل:

وردت هذه الكناية في سياق توبيخ المؤمنين على موالاتهم لمنافقي أهل الكتاب الذين يضمرون الحقد والبغضاء لهم، كما يجسده التعبير القرآني بالتصوير الكناهي في قوله - تعالى -: ﴿ هَاتِمْتُمْ أَوْلَادَهُمْ حُبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢).

الكناية: ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ ﴾ تعبير موحٍ موجز يجسد تلك الانفعالات النفسية لهؤلاء المنافقين بهذه الحركة المادية المتقلبة، وهي عض أطراف الأصابع (الأنامل) إذا

(١) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٨-٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٦.

(\*) نقصد بالحركة الكنائية، الحركة المادية المرئية في التعبير الكناهي سواء أكانت باليد أم بالرأس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، وهي كناية لأنها تنطوي على معنى مكنى عنه هو المقصود.

خلا بعضهم لبعض، وهو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنازية<sup>(١)</sup>، إلا أن هذا المعنى ليس هو المقصود لذاته، وإنما المقصود ما يرتبط بهذه الحركة ويلزمها من مشاعر وانفعالات هؤلاء المنافقين تجاه المؤمنين وهو المعنى المكنى عنه بهذه الحركة. قال أبو حيان: "يوصف المغناظ والنادم بعض الأنامل"<sup>(٢)</sup>، وسياق الكناية في الآية يدل على الحنق والغيط: ﴿عَسَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ النَّيْلِ﴾ فالكناية تعبير عن ذلك الانفعال النفسي وهو شدة الغيط، فضلاً عن التأسف والندم عما يفوتهم من إيذاء المؤمنين. وشدة الغيط التي تنتابهم حنقاً وحسداً وعمدته التعبير ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ لأن فعل الأمر ﴿مُوتُوا﴾ هو مجاز في دلالاته يراد منه الدعاء وهو موتهم بغيطهم. قال الزمخشري: "دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الاسلام وعزّ أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي والتبار"<sup>(٣)</sup>، وهذا إيحاء بشدة الغيظ الذي يعدل في نفوسهم فيسلمهم إلى الهلاك والموت، وفي هذا تطيب لنفوس المؤمنين وبعث الرجاء فيها والاستبشار بوعد الله أن يهلك المنافقون غيظاً باعزاز الاسلام وإذلالهم به<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان الله ﷻ يكشف غيظهم وحقدهم وحسدكم بذلك الكناية الحركية فهي ظاهرة لعين المؤمنين، فإن الكناية التي انتهت بها الآية: ﴿يَكْفُرُ الشُّكُورُ﴾ هي مكشوفة لله ﷻ كذلك. وذات الصدور كناية عن الأسرار الخفية المصاحبة للصدور اللازمة لها لا تبارحها. وهي كناية تتكرر في مواضع أخرى من القرآن<sup>(٥)</sup>، وهي هنا تشير إلى معانٍ تتناسب مع السياق فيكشفها في النور يطلع عليها المؤمنون. جاء في تفسيرها: "فهو يعلم ما تصم صدوركم من شعور الغيظ والبغضاء وموجدة الحقد والحسد فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم وما يبيده بعضكم لبعض من ذلك. ويعلم كذلك كما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حبّ الخير والنصح لكم"<sup>(٦)</sup>.

(١) البحر المحیط: ٣ / ٤١. وينظر: الكشاف: ١ / ٤٥٩.

(٢) الكشاف: ١ / ٤٥٩.

(٣) ينظر: الكشاف: ١ / ٤٥٩.

(٤) ينظر: سور آل عمران، الآية: ١٥٤، والمائدة، الآية: ٧، والأنفال، الآية: ٤٣، وهود، الآية: ٥٥، ولقمان، الآية: ٢٣، وقاطر، الآية: ٣٨، والزمر، الآية: ٧٧، والشورى، الآية: ٢٤، والحديد، الآية: ٦، والتغابن، الآية: ٤، والملك، الآية: ١٣.

(٥) تفسير المنار: ٤ / ٩١.

وبذلك تصور هذه الكناية، فضلاً عن كناية (عض الأنامل) مشاعرهم الباطنة، وانفعالاتهم الظاهرة بتلك الحركة المنفعلة فتزيدهم ألماً وغيظاً، وهي تتكشف في النور يطلع عليها عباد الله المؤمنون فيزدادوا استبشاراً بوعده الله باعزازهم واهلاك أعدائهم غيظاً وذللاً.

### عض اليدين:

ترد هذه الكناية في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٣٠﴾﴾ (١)

الصورة الكنائية: ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ تكشف عن الحالة النفسية المنفعلة للكاافر الظالم في يوم القيامة حتى يعاين عذابه ومصيره. وبين معنى هذه الكناية الذي تدل عليه ظاهرياً في حركتها المنفعلة (عض اليدين)، وبين المعنى المكنى عنه المراد وهو ندم الظالم وتدسره علاقة تلازم وارتباط. قال الزمخشري: "عض اليدين والأنامل، والسقوط في اليدكنيات عن الغيظ والحسرة، لأنها من وادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجده عند لفظ المكنى عنه" (٢).

والكناية في سياقها الذي وردت فيه أنسب وأدق في تصوير الحالة النفسية التي فيها الظالم في موقفه العسير من أي كناية أخرى مما ذكره الزمخشري كعض الأنامل مثلاً التي تشترك في إيحائها عن الندم في حركتها وصورتها مع كناية (عض اليدين)، وذلك لأن موقف الظالم هنا في مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهو موقف مروّع عاصيب يعاين فيه الظالم عقابه ويستيقن بما كذب من قبل. فالتعبير عن حالته النفسية وتسيدها بكناية عض اليدين توحى بذلك الانفعال الشديد المضطرب وهذا يناسبه الحركة الغليظة المصورة للمعنى النفسي المقصود، فهو لا تكفيه يد واحدة يعص عليها، إنما هو يداول بين هذه وذلك، أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم المتمثل في عضه على اليدين فتكون رمزاً مناسباً لحالته النفسية فتجسمها تجسماً (٣) وهو معنى يتعمق بأسلوب التمني الذي يصاحبه: ﴿

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٢٦ - ٢٨.

(٢) الكشاف: ٣ / ٢١٨.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ١٥٦.



﴿وَلِحِطِّ بِشْرِهِ قَامِصِحَّ بَقَلْبِ كَفَيْهِ عَلَّ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا صَاحِبُهُ﴾ (١)

الصورة الكنادية: ﴿قَامِصِحَّ بَقَلْبِ كَفَيْهِ﴾ منبذقة في معناها عن الاستعارة المكذبة ﴿وَلِحِطِّ بِشْرِهِ﴾ ومتصلة بها، لأنها تجسيد بالحركة للحالة النفسية المتأثرة بتدمير الجنين الذي صورته الاستعارة بقوتها التعبيرية، فقد استعار الاحاطة " وأصله من أحاط به العدو، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه " (٢) ثم حذف المستعار منه (العدو) وأبقى شيئاً من لوازمه وهي الاحاطة على سبيل الاستعارة وفي ذلك تعميق لمعنى تدمير الجنين لأدائها احاطة أنت على ثمرها وهو انفس ما يكون في الجنين. ثم يتصاعد مشهد الموت في تأثيره بالكناية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ (٣)، أي: " مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً بيباً " (٤) فهي صورة كنانية توحى بالتحطيم والموت. وصاحبها يقلب كفيه ظهراً ليطن إشارة لذلك الاحساس النفسي الذي انتابه بعد البطر والاستكبار وهو الندم والتحسر على ضياع ما أنفقه فيها من مال وجهده، فعبر باللازم وهو تقليب الكفين وأراد الملزوم وهو الندم والحسرة (٥) فتقلب الكفين أصبح عنواناً ور مزاً لهذا المعنى النفسي، وفي الكناية إيحاء لطيف يناسب السياق والحالة النفسية يتمثل في حركتها التي توحى بفراغ الكفين بعد قبضهما على شيء، أي غياب الشيء بعد حضوره، وكأن تقليبهما إعلان عن هذا، فضلاً عن الندم والتحسر عليه. كما تكشف هذه الصورة الكنانية من الجانب النفسي الضعيف في شخصية هذا النمط من البشر المشحونة بالقيم المادية باعتداده على غير الله، وترسم التحول الداخلي في هذه الشخصية من غرور النجاح إلى الشقاء والافلاس والضعف (٥).

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٢) الكشاف: ٢ / ٥٦٥. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ١٢٥.

(٣) تتكرر هذه الكناية في موضعين آخرين في القرآن، ينظر: سورة البقرة، الآية: ٢٥٩، وسورة الحج، الآية: ٣٤٥.

(٤) صفوة التفسير: ٢ / ١٩٣.

(٥) ينظر: القرآن والصورة البلاغية، ص ١٦٩. وينظر: القرآن اعجازه وبلاغته، ص ٢٢٠.

(٥) ينظر: التصوير الفني في القرآن، ص ٤٧. وينظر: البنى والدلالات في القصص القرآني، ص ٣٢٥.

## السقوط في اليد:

وردت هذه الكناية في سياق عبادة بني اسرائيل للعجل، قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَاسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠١﴾ (١)

﴿سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ صورة كنانية حركية تشير إلى شدة الندم والحسرة على عبادتهم العجل. قال الزمخشري: ﴿ وَكَاسَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعصّ يده غمّاً، فتصير يده مسقوفاً فيها لأن فاه قد وقع فيها. و ﴿سَقَطَ﴾ مسند إلى ﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾ وهو باب من الكناية (٢). أي ندموا اشتد الندم فسقوط الأيدي لازم له، فعبر باللازم وأراد الملزوم.

فالكناية تصوير لتلك الحالة النفسية النادرة المتدمرة، يخرجها في صورة تتملاها العين ويتأثر بها الحس، وكان الندم يسقط في أيديهم انعكاساً لنفس الممتلئة منه، وهذه الكناية وإن كانت تشترك مع غيرها من الكنايات التصويرية التي تشير إلى الندم والتحسر، إلا أن فيها إيحاء لطيفاً يناسب سياقها، لا تعبر عنه كناية أخرى. فالسياق سياق عبادة العجل والاشراك به، ومادة الكناية ﴿سَقَطَ﴾ توحى بمعناها الأصلي، وهو السقوط من أعلى إلى أسفل، جاء في أساس البلاغة: "سقط من الجبل، وسقط الشيء من يده. وهذا مسقط السوط. وهذه مساقط الغيث ومواقعه" (٣). فالكناية وإن كانت تعني في دلالتها الرئيسية السقوط النفسي المتمثل في الندم والتحسر والذي يتجسد في صورة حسية إلا أن فيها إيحاء السقوط لآلههم المزعوم (العجل) من أعلى إلى أسفل في نفوسهم وفي واقعهم، وفي ذلك تتجلى السخرية منهم ومن الهيم الذي لا يملك حياة ولا هداية.

وبذلك فإن الكناية تؤدي المعنى المراد خير أداء في موضعها الذي تشكلت فيه وتوحي بمعانٍ إضافية مع السياق والهدف الذي يقصد إليه القرآن.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٤٨-١٤٩.

(٢) الكشاف: ٢ / ١٢٦، وينظر: القرآن إعجازة وبلاغته، ص ٢٠٠-٢٢١، وينظر: المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ص ٢٤١.

(٣) ص ٢١٣ ﴿سَقَطَ﴾.

## رد الأيدي في الأفواه:

وربت هذه الكناية في قوله - تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَوَاءٌ أَلَمَسْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا بَدَأْتُمْ فِي أَيْدِيهِمْ ذَنْبًا وَلَا كَفَرْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ (١)

الكناية المصورة للمعنى في حركتها المادية الغليظة ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فيها معان وإيحاءات متعددة. ومن هذه المعاني ما يورده الزمخشري في تفسير: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعضوها غيظاً وضجراً ممّا جاءت به الرسل، كقوله: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ (٢) أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى السنتهم وما نطقت به من قولهم: جفّة من ج أي هذا جواننا لكم ليس عندنا غيره، اقتطاعاً لهم من التصديق أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيدي، أي: رتبوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواظبتهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الأثران والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوا ولم يقبلوها، فكانهم رتبوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل (٣) وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بهذه الكناية كما يقول الشريف الرضي: "أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعةً، وأفواههم دفعةً، إظهاراً منهم لقلّة الرغبة في سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليدلّوهم بهذا الفعل على أنهم لا يصنعون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أبهموا طريق السماع والجواب، وهما الأذان والأفواه" (٤). وقال بعض المحدّثين "رتبوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعده، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويسمع. يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك وافحاشهم في هذا الجهر، وإثباتهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر" (٥).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ١١٩.

(٣) الكشاف: ٢ / ٤٢٢. وينظر: المفردات، ص ٢٨٧.

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٢.

(٥) في ظلال القرآن: ٥ / ١٤٢.

وكل هذه المعاني تُوحى بها الكناية وتجتمع فيها لتشير إلى إمعان هؤلاء بالكذب والكفر وإصرارهم وتصميمهم على مجابهة رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - بالإيداء والسخرية منهم، وهذا الإصرار منهم على الكفر والتكذيب يُوحى به الكناية فتصوره على أنه سلوك منهم دائم متكرر لأنه حركة كنائية متكررة، فالفعل (رَدَدَ) الذي بُنيت عليه يُوحى بهذا التكرار، جاء في أساس البلاغة: "رَدَدَ القول: كَرَّرَهُ، ولا خير في القول المردود. وراده القول واجعه إياه" (١)، وقال الراغب في هذه الكناية: "واستعمال الرد في ذلك تنبيهاً أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى" (٢) فيتعمق بتكرار هذا الفعل الكنائي ويتأكد المعنى المُكنى عنه الذي يصممهم بالتكذيب والجهر بالكفر وإصرارهم عليه، فنفسهم غليظة كافرة يناسبها التصوير بتلك الحركة الكنائية الغليظة.

### جعل الأصابع في الأذان واستغشاء الثياب؛

وردت هاتان الكنيتان في آية واحدة وصفاً لقوم نوح عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كُنَّا دَعْوَاهُمْ لِيَتَّقُوا اللَّهَ فَهُمْ يُجْتَنِبُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ جَعَلُوا أَصْبَاحَهُمْ فِي أَهْذَاهُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ في تأدية المعنى النفسي المقصود على نحو فني مؤثر.

**الكناية الأولى:** ﴿ جَعَلُوا أَصْبَاحَهُمْ فِي أَهْذَاهُمْ ﴾ تعبير موحٍ يجسد حالة نفسية لقوم نوح عليه السلام بهذه الحركة المادية وهي سد أذانهم بأصابعهم كيلا يسمعوا رسولهم وما يدعوهم إليه من الهدى والنور والمغفرة. وهذا هو المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الحركة الكنائية البيغضة التي تشي بسوء أديهم وتصرفهم مع نبي الله واستهزائهم به. إلا أن هذا المعنى ليس هو المراد فحسب، وإنما المراد المعنى المُكنى عنه الذي يرتبط بهذه الحركة ويلزمها وهو الحالة النفسية لقوم تجاه الداعي والدعوة؛ وهذه الحالة النفسية تتمثل في تصميمهم على الإعراض وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه النبوة. وهذا التصميم في الإعراض عن الاستماع والأشدة في مكابرتهم، تُوحى به بديهة الكناية، فهو لم يقل: (يجعلون أناملهم في أذانهم) كما يقتضي التعبير في الظاهر، لأن الأنامل (أطراف الأصابع) هي التي تُجعل في

(١) ص ١٥٩. (ردد).

(٢) المفردات، ص ٢٨٠.

(٣) سورة نوح، الآية: ٧. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٩. حيث تتكرر كناية (جعل الأصابع في الأذان). وينظر: سورة هود، الآية: ٥. حيث تتكرر كناية (استغشاء الثياب).

الأذان وليس الأصابع كلها، قال الزمخشري: " فهلاً قيل أناملهم. قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها وأيضاً ففي ذكر الأصابع من ذكر المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل " (١)، وهذه المبالغة تتمثل في الضغط الشديد بالأصابع على الأذان فتُوحى بذلك الإعراض الشديد وصدودهم وبغضهم للدعوة وكرهتهم لها. وهم إذ قد عطّلوا سمعهم، فإنهم يعمدون إلى تغطية أنفسهم بثيابهم حتى لا يروا الداعي، فضلاً عن عدم سماعه إمعاناً في الإعراض والإستكبار، كما تصور ذلك الكناية الثانية ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ قال الزمخشري: ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله " (٢)، فهم كارهون للداعي والدعوة سواء، وهم لم يكتفوا بتعطيل أسمعهم، فإنهم قد عطّلوا أبصارهم كما أوحت الكناية، ليس إبصارهم النبي نوح ﷺ ورؤيتهم في أثناء دعوتهم لهم فحسب، وإنما الكناية رامزة ودالة على تعطيل أبصارهم في المعنى الشامل للداعي والدعوة والتفكير فيما يدعوهم إليه، فهم بمنزلة من منع بصره بوصفه وسيلة للإدراك والمعرفة. وبذلك تتصافر الكنايتان في التعبير فتصورهم مسلوبي وسائل الإدراك (السمع والبصر) الهادية إلى التفكير والإيمان، قال أبو حيان: " ذلك كناية عن المبالغة في إعراضهم عما دعاهم إليه، فهم بمنزلة من سدّ سمعه، ومنع بصره (٣) ﴿وَأَمْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ أي واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً، وفيه إشارة إلى فرط عنادهم، وغلوهم في الضلال (٤).

وإعراض قوم نوح ﷺ وصدودهم الذي صورته الكنايتان بقوتها التعبيرية في التصوير الموحى يتعمق بالاستهارة: ﴿وَأَمْرُوا﴾ إذ إن الإصرار على الذنب من إصرار الحمار على العانة كما قال الزمخشري (٥)، فقال في تفسير قوله ﷺ ﴿وَأَمْرُوا﴾: " الإصرار: من أصرّ الحمار على العانة إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدّمها ويطردها، استعير للإقبال على المعاصي والاكباب عليها " (٦). والاستعارة موحية بأن قوم نوح ﷺ كالحمير لأنهم

(١) الكشاف: ١ / ٢١٧.

(٢) نفسه: ٤ / ٤٩٣.

(٣) البحر المحيط: ٨ / ٣٣٨.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٩٣.

(٥) أساس البلاغة، ص ٢٥٢ (صدد).

(٦) الكشاف: ٤ / ٤٩٣.

عطلوا وسائل المعرفة، ويقوى هذا أنّ الله ﷻ شبه أهل النار من الجن والإنس الذين عطلوا وسائل المعرفة، القلب والعين والأذن، فضلّوا وظلموا بالأدغام، فقال: ﴿...أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْمَقْتُولُونَ﴾ (١)

فدلالة الاستعارة تُوحى بأن قوم نوح أشبه بالحمير الذين يركضون وراء الأذى لطرفها، فاكبائهم على المعاصي كاكبائ الحمار على العانة (٢).  
وإزاء حال قوم نوح بوصفهم الذي صوّره التصوير الكنايني والاستعاري، فإن الكنايتين فيهما إحياء يلمح من طرف خفي، هو تصميم النبي نوح ﷺ ومجاهدته في تبليغه الدعوة لقومه في كل فرصة سانحة ووقت، ليوصلها إلى أسماعهم ويواجههم مواجهة ترفع عليه أنظارهم رغم إصرارهم الدائم واستكبارهم الثابت.

### النبيذ وراء الظهور:

وردت هذه الكناية في موطنين من القرآن مختصة بشأن اليهود مصوّرة لحقيقتهم في إهمالهم البلاغ المبين وطرحه وراء ظهورهم، كما نقرأ من قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ بَعْدَهُ ظُهُورَهُمْ فَصَدَّقُوا اللَّهَ بِمَا وَعَدَهُمْ فَلَيُبَذِّلَنَّ لَهُمْ مِمَّا يُشَاءُونَ﴾ (٣)

التعدير ﴿فَصَدَّقُوا اللَّهَ بِمَا وَعَدَهُمْ﴾ يصورهم بحال من يطرح الشيء وراء ظهره، وهذا التعبير في حقيقته قائم في بنيته على الاستعارة (النبيذ) وعلى الكناية ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فقد تواسجت الاستعارة والكناية في أداء الدلالة التي يهدف إليها القرآن في حركة مصوّرة. قال الشريفة الرضي: " والمراد: أنهم غفلوا عن ذكره، وتشاغلوا عن فهمه، يعني الكتاب المنزل عليهم، فكان كالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان، لا يراه فيذكره، ولا يلتفت إليه فينظره " (٤). والطرح والتترك للشيء ليس فيه معنى (النبيذ)، لأنه لا ينبذ إلا الشيء الحقيقي التافه الذي لا يُبالي به (٥). فالنبيذ يدل على احتقارهم وسخريتهم وغفلتهم المتعمّدة التي فيها استغناء وكراهية لكتاب الله.

(١) سورة الأعراف ، من الآية: ١٧٩.  
(٢) التبي والدلالات في لغة القصص القرآني ، ص ٢٦٣.  
(٣) سورة آل عمران ، الآية: ١٨٧. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ١٠١.  
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١٢٦.  
(٥) ينظر: الفروق اللغوية ، ص ٢٤٥. وينظر: أساس البلاغة ، ص ٤٣ (نبيذ).

فلاستعارة (الذئب) التي عدل إليها القرآن بدلاً من (الترك أو الطرح) مثلاً، هي استعارة نصريحية فيها تشبيه من يترك أو يطرح كتاب الله وراء ظهره احتقاراً له واستهانةً بمن معه شيء فنبدّه وراء ظهره، فاستُعير المشبه به (المستعار منه) وحذف المشبه (المستعار له) على سبيل الاستعارة التصريحية.

فلاستعارة التي أخرجت المعنى في حركة تصويرية، موحية للنفس أشد الإيحاء ببغض اليهود وكرههم لكتاب الله، ويتصاعد هذا الإيحاء ويتعمق بالكناية ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ، قال الزمخشري: " وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يرمي به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه" (١)، وتقول العرب: " جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلمة" (٢).

فالكناية تمثيل حسي للإعراض لأن من أعرض عن شيء تجاوزه فخلفه وراء ظهره، وفي اصطلاح الوراق إلى الظهر تأكيد لبعد المتروك بحيث لا يلقاه بعد ذلك، فالظهر تأكيد لمعنى وراء كقول القائل: من وراء وراء (٣) وهذا التصوير الكناني يدع الخيال يتلمى هذه الحالة الزرية الموحية بحماقتهم وغلظتهم وبشاعة تصرفهم، فضلاً عن جحودهم لكتاب الله وحجبه عن الناس.

والكناية فضلاً عن الاستعارة تنمي إحساساً نفسياً في المتلقي وانفعالاً بغيضاً يذتاب شعوره ووجدانه تجاه اليهود، لأن الدلالة الإيحائية النفسية فيهما ترتبط بكتاب الله وهو يذئب وراء الظهور، ويعمق هذا الاحساس الاستعارة التصريحية ﴿وَأَشْرَقُوا بِمُتَمَاتٍ لَيْلًا﴾ التي انتهت بها الآية. بالاستعارة ﴿وَأَشْرَقُوا﴾ بدلاً من (استبدلوا) تُوحي بأن هؤلاء اليهود لا يكتفون بنبذ كتاب الله وراء ظهورهم سخرية واحتقاراً، وإنما لا يتورعون كذلك على عقد الصفقات التجارية بآيات الله عن عمد وقصد وتجح على الله والناس لينالوا (الثمن القليل) طغياناً منهم وكفراً وزيادة في السخرية وامعاناً في الاعتداء، فضلاً عن أن التعدير القرآني يُوحي بأن هؤلاء اليهود يرون في كتابهم شيئاً لا قيمة له في حياتهم فيستعنون عنه بالبيع وبأقل ثمن، ولا ريب أن هذه الأفعال تثير أحاسيس وانفعالات في النفس المؤمنة، فهم

(١) الكشاف: ١ / ٣٠٠ ، ٤٨٦.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٨٤.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٦٢٦ - الكتاب الثاني -.

ينذون اليهود في كل مرة، وينذون كتاب الله وراء ظهورهم، ويشترون به ثمناً قليلاً فبئس ما يفعلون وبئس ما يشترون.

### الانقلاب على الأعقاب :

وردت هذه الكناية في سياق يُوحى بالتعليق على المؤمنين فيما كان منهم من الإفراار والانصراف عن رسول الله ﷺ من أرض المعركة في أحد، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١).

الكناية التصويرية: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ تصور المعنى النفسي في صورة حسية مؤثرة في النفس، وهي تتملى هذا المشهد الحسي المنظور المتمثل في هذه الحركة العنيفة السريعة في أرض المعركة. والمعنى القريب للكناية هو: الانصراف عن رسول ﷺ والانكشاف عنه في المعركة (٢). قال الراغب: " قلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه. كقلب الثوب، وقلب الإنسان، أي صرفه عن طريقته. والاندقلاب: الانصراف " (٣). إلا أن الكناية تدعنا نتخيل حركة عنيفة تتمثل في الانقلاب على الأعقاب في حركة نصف دائرية يميناً وشمالاً فتشير إلى المعنى المكنى عنه بحيوية وقوة تأثير: وهو الحركة النفسية العنيفة في أرض المعركة التي انتابت نفوس المؤمنين وقلوبهم فزلزلتها خوفاً وهلعاً فانقلبوا منهزمين. ويتبدى جمال الكناية فنياً في ادساقها بحرکتها العنيفة الغليظة المصورة للهزيمة النفسية مع جو معركة أحد الذي جاءت فيه والتي كان وقعها عنيفاً شديداً على قلوب المؤمنين ونفوسهم.

والكناية ذات بعد شامل في معناها يتجاوز الهزيمة في أرض المعركة إلى معنى الارتداد عن الدين. جاء في التفسير: ﴿ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ من قبيل المثل تضرب لمن رجع عن الشيء بعد الإقبال عليه والأحسن أن تكون عامة تشمل الارتداد عن الدين الذي جاهر بالدعوة إليه بعض المنافقين، والارتداد عن العمل كالجهد ومكافحة الأعداء وتأيد الحق (٤). ويتأكد هذا البعد الشامل للكناية حين أحس عدد من المسلمين في معركة أحد أن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الكشاف: ١/ ٤٦٨. والمفردات، ص ٦٢٠.

(٣) المفردات، ص ٦٢٠.

(٤) المنار: ٤/ ١٦١.

لا جدوى من قتال المشركين، حين هتف الهاتف: **أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ**، وظنوا أن بموته نهاية أمر هذا الدين، ونهاية أمر الجهاد للمشركين. وهذا الهاتف، وما أطلق من أراجيف في أرض المعركة كانت من قول المنافقين.. وارتباب المؤمنين وحركتهم النفسية تجسمها الكناية، فتصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب (١).

### تنكيس الرؤوس؛

تأتي هذه الكناية في موضعين، أحدهما في مشهد من مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال المجرمين وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﷻ في قوله - تعالى -: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذُ الْمَجْرُمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانزَعْنَا نَمَلًا صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ (٢). الصورة الكنائية الحركة ﴿ **نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ** ﴾ ينطوي تحتها معانٍ وإحساءات فهي تشير إلى خزي المجرمين واعترافهم بالخطيئة والإقرار بالحق الذي حزنوه في حياتهم الدنيا (٣). هي تجسيد للحالة النفسية العصبية في موقفهم هذا، وهي دالة على الذل والانكسار، والندم والخجل مما أجزموا، فيطلبون العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وقد فات الأوان، وهذا الموقف النفسي للمجرمين يعظمه المشهد ويعمقه بحذف جواب (لو)، وذلك ليترك لخيال المتلقي أن يتصوره، ولتذهب فيه نفسه كل مذهب في تقديره، قال الزمخشري: " لو الامتناعية قد حذفت جوابها، وهو: لرايت أسراً قظلياً. أو: لرايت أسوا حال ترى " (٤)، فحذفه أبلغ من ذكره في وصف حال المجرمين في هذا الموقف العظيم عند ربهم، لأن في ذكر الجواب تضييقاً له وتحديدًا، فهو موقف مروّع عصيب على المجرمين الذين كانت رؤوسهم شامخة في الدنيا لا تسمع قول الحق ولا تبصر طريق الهدى، فهاهم منكسة رؤوسهم ذلاً وانكساراً، وهم الآن فقط يسمعون ويبدصرون في موقف العذاب والخزي والهوان، والآن يدعون ويستغيثون - حين لا ينفع الدعاء ولا تنجي

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٢ / ٦٤، وينظر: الكشاف: ١ / ٤٦٨.

(٢) سورة السجدة، الآية ١٢. وينظر الموضوع الآخر: سورة النساء، الآية ٦٥ في سياق قصة سيننا إبراهيم ﷺ مع قومه.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٥١٦.

(٤) الكشاف: ٣ / ٤٠٣.

الاستغاثة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا...﴾ أي: "أبصرنا صدق وعذك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا" (١)  
فهم كانوا عمياً وصماً في الحياة الدنيا كما يشهدون على أنفسهم، فيشتمخون برؤوسهم وينكبون، لأنهم عطلوا وسائل المعرفة الذالة إلى الحق والنور والهدى، فمالوا برؤوسهم عن الحق تكبراً وخيلاء، فجاءت الصورة الكنائية لتصور تلك الرؤوس مطاطة خاضعة مطرقة ولتدل على جزائهم من جنس عملهم.

ويقدم لنا القرآن نمطاً من هولاء بالمادة الكنائية نفسها، تصور موقفهم في الحياة الدنيا من الإيمان والهدى بعد لزوم الحجة والبيان في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قوم بعد تكسيره الأصنام، فجادلوه بالباطل لينحضوا به الحق، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ قَمَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١﴾ قَالَ بَلْ عَمَلَكُمْ كَبُرْتُمْ هَذَا فَتَكَلَّمْتُمْ عَلَىٰ آبَائِكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ قَالُوا لِمَ تَقُولُ ﴿٢﴾ فَرَجِعْ إِلَىٰ آبَائِكُمْ أَنفُسِهِمْ قَالُوا لِمَ أَتَيْتُمُنَا أَتَيْتُمُنَا لِنَكْفُرَ بِآبَائِكُمْ لَكُمُ الظالمون ﴿٣﴾ ثُمَّ لَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا مَكْرُورًا ﴿٤﴾ يَنْطِقُونَ ﴿٥﴾﴾ (٢)

فالكناية ﴿لَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ صورة حركية عنيفة، إذ الانقلاب على الرؤوس، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانكس: انقلب" (٣) فهم قد قلبوا على رؤوسهم حقيقة مما يهتهم به إبراهيم عليه السلام، كما أثاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم (٤)، فتشير هذه الحركة إلى ما أدت به نفوسهم من خجل وانكسار عند لزوم الحجة، فالحركة الكنائية تصوير لانكسارهم النفسي بعد أن أذعنوا، استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين نفوا عن أصنامهم القدرة على النطق (٥)، واستقامتهم حين رجعوا إلى أنفسهم تصوره الآية: ﴿فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِكُمْ قَالُوا لِمَ أَتَيْتُمُنَا أَتَيْتُمُنَا لِنَكْفُرَ بِآبَائِكُمْ لَكُمُ الظالمون ﴿١﴾﴾ فهم يشهدون على أنفسهم بالظلم بعبادة هذه الأصنام، وهي رجعة إلى الفطرة والاستقامة فيلحقهم من الخضوع والاستكفة والاطراق للحق

(١) نفسه: ٢ / ٣-٤.

(٢) سورة الأنبياء ، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٣) الكشاف: ٣ / ٩٨. وينظر: أساس البلاغة ، ص ٤٧٢-٤٧٣ (نكس).

(٤) الكشاف: ٣ / ٩٨. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ٢٣١.

(٥) الكشاف: ٣ / ٩٨.

والمنطق الذي مع نبيهم ابراهيم عليه السلام ولكنها رجعة لا تدوم، فانقلبوا منكسرين يجادلون ويكابرون بتلك القوة والشدة التي أوحى بها الكناية في صورتها الحركية القوية العنيفة.

### تسوية الأرض بالكافرين :

نجلي هذه الكناية حالة نفسية للكافرين في مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو في قوله - تعالى :- ﴿يَوْمَ يَبُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ سَوَّى يَوْمَ الْأَرْضِ لَوَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (١).  
﴿لَوْ سَوَّى يَوْمَ الْأَرْضِ﴾ كناية جاءت بأسلوب التمني بـ ﴿لَوْ﴾ التي يزداد بها التمني بُعداً فتنبّر شعور اللهفة اليانيس (٢) للكافرين في موقفهم العصيب الذين يتمنون فيه لما يرون من أهواله أن تسوى بهم الأرض فيخففوا عن الأنظار قال الزمخشري: "﴿لَوْ سَوَّى يَوْمَ الْأَرْضِ﴾ لو ينفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، وقيل يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، وقول تصير البيهائم تراباً فيودون حالها" (٣).

هذا هو المعنى القريب الذي تدل عليه الكناية، أما المعنى المكنى عنه الذي أشارت إليه فضلاً عن شدة الأمر عليهم وهوله فإنه تصوير لحالتهم النفسية الممتلئة خجلاً وندامةً، وخزياً ومهانةً في ساحة العرض بمشهدها العظيم الذي تشهده الرسل والأمم، كما أخبر قبل الكناية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤). فهم مكشوفون في ساحة العرض لا تخفى منهم خافية، والشهيد حاضر يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم (٥). فما يصنع هؤلاء الكافرون في هذا الموقف الذي كانوا به لا يؤمنون؟ إن جمال التعبير الكناني هنا يتمثل في عمق الظلال النفسية والشعورية التي يجلبها، والمجال الذي يفتحها لتأمل يواطن النفس، وخلجات الحس، في هذا الموقف الذي يقفه الكافرون، والهول النفسي الذي يعانون من خجل وخزي وندامة (٦).

(١) سورة النساء، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب، ص ٢١١.

(٣) الكشاف: ٥٢٨/١، وينظر: صفوة التفاسير: ٢٧٦/١، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٥٩/٥.

(٤) سورة النساء، من الآية: ٤١.

(٥) ينظر: الكشاف: ٥٢٧/١.

(٦) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٢٠٧-٢٠٨.

## خضوع الأعناق :

وردت هذه الكناية في قوله - تعالى - خطاباً للرسول ﷺ ﴿ لَمَّا كَبُحَ بِسَاحِ أَيْدِيكُمْ إِلَى الْكُرْسِيِّ ﴾ (١) إن لُشَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ لَمَّا خَضِعِينَ ﴿ (١) جاء في التفسير: " . لعل: للاشفاق، يعني أشفق على نفسك أن تقلتها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك ﴿ أَلَا يَكْفُرُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لنلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا، (آية) أزداد: آية ملجئة إلى الإيمان قاصرة عليه.. " (٢) والكناية ﴿ فَطَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ لَمَّا خَضِعِينَ ﴾ ذات تشكيل قني في التعبير عن المعنى المقصود. وقد لحظ الزمخشري ذلك فقال: " فإن قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الأعناق قلت: أصل الكلام: فظَلُّوا لها خاضعين، فلقحت الأعناق لبيان موضع الخضوع " (٣) وهذا الإحكام للأعناق في الصورة ومجيء ﴿ خَضِعِينَ ﴾ خبراً عنها، أعطى الصورة الكنائية حيويتها وقوة تأثيرها صورة ومعنى لتأكيد دلالة القسر والقهر في خضوع أعناقهم كرهاً بآية تقسرهم على الإيمان فسرأ فيجلى مذهبها المعنى المكنى عنه المتمثل في ذلهم وهوانهم، لأن أعناقهم خاضعة لا تستطيع حركة في هبتها التي رسمتها الكناية، فهم عليها مقيمون ثابتون.

ولا يخفى ما في هذه الصورة الكنائية من تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه مما كان يعانيه من تكذيب قومه، وهو يحرص على إيمانهم وهداهم.

## بلوغ القلوب الحناجر :

وردت هذه الكناية في موضعين من القرآن، الأول في سياق معركة (الأحزاب) في قوله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيدًا ﴾ (٤) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿ (٤)

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٣ - ٤.

(٢) الكشاف: ٣ / ٢٣٥.

(٣) نفسه: ٣ / ٢٣٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآيتان: ٩ - ١٠.

والموضع الثاني في مشهد من مشاهد يوم القيامة في قوله - تعالى - ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظُوبٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (١).

في الآية الأولى مهَّدت كنایتان متلازمتان في معناهما لمعنى الكناية ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ هنا: ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ و ﴿ وَإِذْ رَأَيْتَ الْأَبْصُرَ ﴾ ، ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ كناية عن إحاطة جيش الأحزاب للمسلمين من كل جانب، وتمكنهم منهم كل تمكن، وكان جيش الأحزاب بالتصوير الكنائي يتحدرون من فوق رؤوس المسلمين، وكان الأرض تنفجر عنهم من تحت أقدامهم (٢)، فالكناية تصوّر كثرتهم، فهم كالبول يحيط بالمسلمين فيكربهم فيملاً نفوسهم خوفاً ورعباً، وهو المعنى النفسي الذي تصوّره الكناية الثانية في حركة عيونهم وميلانها حيرةً ودهشةً مما ﴿ وَإِذْ رَأَيْتَ الْأَبْصُرَ ﴾ قال الزمخشري: " ﴿ رَأَيْتَ الْأَبْصُرَ ﴾ مالت عن ستنها وسمتوى نظرها حيرةً وشخوصاً. وقيل: عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع " (٣)، فالتصوير الكنائي يتدرج في وصف الحالة النفسية للمسلمين فزيغ الأيصار يمثل أول أحوال الشدة، فالمكروب المفاجأ يرسل بصره، ويقلب محاجره، يلتفت هنا وهناك دهشاً حائراً، والكناية ﴿ رَأَيْتَ الْأَبْصُرَ ﴾ معبرة عن هذه المعاني، لأن الحيرة والدهش لازمة من لوازمها (٤). ثم تتصاعد معاني الخوف والاضطراب والفرع التي انتابت نفوسهم بالكناية ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ فهي كناية عن شدة الخوف والفرع، حتى لكان الخوف يتصاعد بالقلب فيعلو به إلى حيث يقذف كما تصوّره الكناية، قال الزمخشري: " قالوا: إذا انتفخت الرنة من شدة الفرع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفع القلب بارتقاها إلى رأس الحجر " (٥)، فالكناية من لوازم هذه الأحوال النفسية.

وبذلك يجسّد التعبير الكنائي المصور الحالة النفسية الفرعة المكروبة للمسلمين في مشهد من مشاهد المواجهة مع أعداء الله والمسلمين.

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د. محمد أبو موسى، ص ٤٧.

(٣) الكشاف: ٣ / ٤١٦.

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٤٨.

(٥) الكشاف: ٣ / ٤١٧. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية، ص ٧٣.

ومما يَصَوِّرُ شِدَّةَ الخوفِ والفرع التي انتابت المسلمين في هذه المعركة ويعظمها أن الكناية ترد في مشهد مشاهد القيامة، وهي مشاهد عصبية مروعة: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

ثم نلاحظ القلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق<sup>(١)</sup> والكرب بالتصوير الكنائي ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ الذي يشير إلى الحالة النفسية للظالمين وما ينتابها من هلع وخوف من شدة الموقف وهوله. إلا أننا نلاحظ تبايناً في التعبير عن المشاهد النفسية وتصويرها على الرغم من استعمال الكناية نفسها مع اختلاف في تركيبها، حيث قال هناك: ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ وقال هنا: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾، وكل من التركيبين يناسب المشهد الذي جاء فيه في إيحائه رغم اشتراكهما من حيث الدلالة العامة المكنى عنها والمتمثلة في شدة الخوف والفرع.

فشدة الموقف وهوله في مشهد القيامة أعظم على النفوس والقلوب، إذ نلاحظ الظالمين في أول أهوال الأرزاق قلوبهم لدى الحناجر، ثم هم ﴿ كَظِيمِينَ ﴾ أي كاظمين على قلوبهم لدى الحناجر، أو قلوبهم كاظمة على عم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، كلا المعنيين يحتمله حالهم ﴿ كَظِيمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> فالقلوب المكروبة تصغط على الحناجر، وهم كاظمون عاجزون عن

الكلام ليتروحوا، لأن الكظم هو الإمساك والحبس<sup>(٣)</sup>، وفي ذلك تصعيد للعذاب والغم والضيق، فليس لهم صديق يثبون له، وينفسون عن صدورهم بالث ما تضيق به، وليس لهم من شفيق ذي كلمة مسموعة يسعى لهم في تفریح الكرب، ورفع الحرج، وهم هنالك بين الضيق والانفراد والاهمال<sup>(٤)</sup>.

(١) المشاهد في القرآن الكريم، ص ٣٨٢.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤ / ١٢٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٢ / ٥١٩ - ٥٢٠ (كظم).

(٤) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٤١.

## شخص الأَبْصَارِ والاهطاع واقناع الرؤوس:

كانت الرؤوس منكسة إلى أسفل في الكناية السابقة، أما هنا فإن رؤوس الظالمين مرفوعة إلى أعلى قصراً كما تُصورها الكنايات الثلاث المتتابعة في هذا المشهد من مشهد يوم القيامة في قوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ <sup>(١)</sup> **مَهْطِعِينَ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاهُ** <sup>(٢)</sup> في هذا الموقف العصيب، ويمكن تتبع حالهم مشهداً مشهداً حتى تكتمل الصورة الكلية في أداء المعنى المقصود.

الظالمون مؤخرون إلى اليوم الذي هم فيه موعدون: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ فهو يوم رهيب تكون فيه أبصار الظالمين شاخصة، أي: " تظل مفتوحة مبهوثة لا تطرف ولا تتحرك " <sup>(٣)</sup>، وذلك كناية عن شدة الخوف والهلع الذي يأخذ أنفسهم فهم ذاهلون، ويتعمق هذا الذهول من الخوف بكنائتي (الاهطاع واقناع الرؤوس): ﴿ **مَهْطِعِينَ مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ** ﴾ مهطعين: أي ساقطين سريعاً سادي أعناقهم، وهي مشية المدعور غير ملتفتين إلى شيء <sup>(٤)</sup>، وقال الراغب: " هطع الرجل ببصره إذا صوبه. ويعبر مهطع: إذا صوب عنقه " <sup>(٥)</sup>، فهم قد متوا أعناقهم إلى الداعي مسرعين يقدون كما تُقاد النواب من أعناقها، ورؤوسهم مرفوعة إلى أعلى كما دلت الكناية ﴿ **مُقْنِي رُؤُوسِهِمْ** ﴾ أي: " رافعها " <sup>(٦)</sup> في معناها الظاهر، ومن وراء الكنايتين (الاهطاع واقناع الرؤوس) نلمح المعنى المكنى عنه في مشهد الخوف والهلع هو السخرية من هؤلاء الظالمين، فهم كالدواب يُقادون لا كرامة لهم، وهم مرفوعة رؤوسهم على أعلى قسراً ومهانة، فهم كانوا في حياتهم الدنيا لا يقدون للحق ولا يستجيبون، وعطلوا احساسهم ووعيمهم بالنور والهدى، وهم في مشهدهم هذا كما تعمقه الآية وتؤكد: ﴿ **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ أي: " لا يرجع إليهم أن يظرفوا

(١) سورة إبراهيم، الأيقان: ٤٧، ٤٣. وينتظر: سورة الأنبياء، الآية ٩٧. في كناية (شخص

الأبصار). وسورة القمر: ٨، وسورة المعارج، الآية: ٣٦. في كناية ﴿ **مَهْطِعِينَ** ﴾.

(٢) صفوة التفسير: ١٠١ / ٢.

(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ١٧٧ / ٧. وينظر: الكشاف: ٤٣٨ / ٤.

(٤) المفردات، ص ٧٦١.

(٥) الكشاف: ٤٣٨ / ٤.

يعيونهم، أي: لا يظرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم " (١)، فهم لا حسن لهم ولا وعي ﴿ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاهُ ﴾ بهذه الصورة التشبيهية البليغة حيث شبه قلوبهم بالهواء ففراغها، قال الشريف الرضي: " أفندتهم لا تعي شيئاً، للرعب الذي دخلها، والهول الذي استولى عليها " (٢)، قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع (٣) فهي هواء خواء.

والآية بمجملها بما فيها من طواهر بلاغية كناية وتشبيه توصل إلى الحس مشهد الفزع والخوف والهلع الذي يأخذ الظالمين، فهم خلون من كل وعي وإدراك، فضلاً عن السخرية بهم والذل الذي يصيبهم، فهم مرفوعو الرؤوس قسراً، يُقادون كالدواب المشدودة لا تلتفت أعينهم إلى شيء ولا تنظر من هول ما يرون فهم ذاهلون.

### خشوع الأبصار:

ترد هذه الكناية في مشاهد يوم القيامة وصفاً لحال الكافرين من ذلك قوله - تعالى -: ﴿ خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَهْدَانِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ مَهْطُونَ إِلَى النَّارِ يُقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (٤). الكناية: ﴿ خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ تصور حال الكافرين عند بعثهم من قبورهم. جاء في أساس البلاغة: " وخشعت دونه الأبصار، وخشع بصره: غضه " (٥)، فهم يغمضون أبصارهم عند خروجهم من الأهدان لا يرفعونها إلى شيء، وذلك كناية عن ذلهم وهوانهم، قال الرمذشري: " وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والاذخال. لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما " (٦)، فالحالة النفسية لهم تتجسد في عيونهم فهي خاشعة ذليلة، ثم تأتي الصورة التشبيهية لتضيف ملمحاً جديداً وتزيد الصورة توضيحاً وتقريباً إلى الأذهان، فقد شبه خروجهم من القبور بالجراد المنتشر، وفي هذا إيحاء الكثرة، فهم يخرجون جموعاً منتشرة هنا وهناك، قال الرمذشري: " الجراد مثل في الكثرة والتموج. يُقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاعوا كالجراد منتشر في كل مكان لكثرتة " (٧).

(١) الكشاف: ٢ / ٤٣٨. وينظر: التعبير القرآني والبيئة العربية، ص ١٣٣.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٨٥.

(٣) صفوة التفاسير: ٢ / ١٠١.

(٤) سورة القمر، الأيتان: ٧ - ٨. وينظر: سورة القلم، الآية ٤٣. وسورة المعارج، الآية: ١٤.

وسورة الفازعات، الآية: ٩.

(٥) ص، ١١١، مادة (خشع).

(٦) الكشاف: ٤ / ٣٤٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٧٧.

(١) وهم على كثرتهم وتماوجهم وانتشارهم في كل مكان حيارى فرعين (٢)، يستنكر بعضهم ببعض من شدة الخوف، مسرعين سائدي أعناقهم إلى الداعي ﴿مُهَيِّمِينَ إِلَى النَّارِ﴾ في صورتهم الذليلة الخائشة، يدعوهم لأمر غريب شديد ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ ولا يوصف اليوم بالعسر، وإنما هم أنفسهم في عسر وضيق وكرب، فهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف وشدة، فهو مجاز عقلي باعتبار كونه يوماً لأمر عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب (٣).

### الزلق بالأبصار:

نقرأ هذه الكناية في قوله - تعالى -: ﴿وَلَنْ يَكْذِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبُرْئَتِكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَنْ سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ وما هو إلا ذكر للعالمين (٤).

**الكناية:** ﴿لِبُرْئَتِكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ تعبير عن الحالة النفسية للكافرين تجاه الرسول ﷺ وتتبع من خلال حركة العين المحذقة في نظرها شراً عداوة وبغضاء، وهي نظرات في شدتها وقوة تأثيرها تكاد قدم الرسول ﷺ يزل منها كما تصوره الكناية، قال الزمخشري: "يعني: أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، ويكاد ياكلني، أي: لو أمكنه بتظيره الصرع أو الأكل لفعله" (٥)، وذلك لا يكون إلا نظر المدقت والايغاض، وعند النزاع والخصام (٦).

فالكناية تجسد الحالة النفسية للكافرين من خلال حركة عيونهم بتحديق النظر بشدة، وهي حركة قبيحة تشير إلى تلك النفوس الممثلة عداوة وبغضاء وحقدًا وحسدًا. ولا تكفيهم تلك النظرات المسمومة في التعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم، بل يرافقها الأسب والشتم

(١) نفسه: ٤ / ٣٤٤.  
(٢) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقي، ص ٢٠٢. وينظر: التعبيرات القرآنية والبيئة العربية، ص ١١١.  
(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٧٧ - ١٧٨.  
(٤) سورة القلم، الآية: ٥١ - ٥٢.  
(٥) الكشاف: ٤ / ٤٧٨. وينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.  
(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٤٣.

البيضاء للنيل من الرسول ﷺ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ يقولون ذلك " حيرة في أمره وتنفيراً، والآن فقد علموا أنه أعقلهم " (١)؛ لأن الذكر الحكيم لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون (٢).  
فهي نفوس معاندة وقلوب منكبرة، فضلاً عن العداوة والبغضاء والحقد والحسد.

### الازدراء بالعين:

تنوع الدلالات النفسية التي تجسدها الكناية المبنية على حركة العين، فإذا كانت الكناية السابقة جسدت بحركتها مشاعر العداوة والبغضاء والحقد والحسد.. فإن هذه الكناية (الازدراء بالعين) تجسد مشاعر نفسية جديدة تنبعث من قلوب الكافرين ونفوسهم تجاه الذين آمنوا بالله ورسوله نوح ﷺ؛ وذلك في قوله - تعالى - على لسان نوح مخاطباً قومه: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

الكناية: ﴿ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ والازدراء: افتعال من زرى عليه إذا غابه، وأزرى به: قصر به، يقال: أزدرته عينه، وأتحمته عينه " (٤)، وقال الشريف الرضي في هذه الكناية: " كما يقول القائل: أفتحمت فلاناً عيني، واحذقره طرفي. إذا قبح في منظر عينه خلقة، وصغر دمامه " (٥).

فالكناية حركة عين ذميمة تجسد الحالة النفسية للكافرين تجاه المؤمنين تتمثل في احتقارهم واستصغارهم والاستهانة بهم، في حالة نفسية تسترذل المؤمنين على نحو قبيح فهي نفوس تزن الأمور بمقاييس الكفر والضلال.

### قرة العين:

تكثف هذه الكناية الحالة النفسية الراضية المطمئنة خلاف ما أدته الكنيتان السابقتان من مشاعر وانفعالات تجاه المؤمنين.. وبذلك تكون الكناية بحركة العين وسيلة تعبيرية مهمة في التعبير عن الحالات النفسية المتباينة.. وقد وردت هذه الكناية في عدة مواضع،

(١) الكشاف: ٤ / ٤٧٨.  
(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٢٤٣.  
(٣) سورة هود، الآية: ٣١.  
(٤) الكشاف: ٢ / ٣٠٥، وينظر: أساس البلاغة، ص ١٦٠ (زري).  
(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٦٠.

منها قوله - تعالى - ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً وَعَيْنًا وَاجْمَعْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١)

الكناية: ﴿ قِسْرَةً وَعَيْنًا ﴾ في سياق دعاء عباد الرحمن ربهم أن يكون أزواجهم وذرياتهم طالعين لله تقرّ بهم أعينهم، كما صوّرت الكناية بحركتها الجميلة الوادعة ﴿ قِسْرَةً وَعَيْنًا ﴾ أي " اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحاً بالتمسك بطاعتك والعمل بمَرْضَاتِكَ " (٢) فالكناية تعبير عن حالتهم الشعورية المتمثلة في الفرحة والمسرة (٣) وفي الكناية إحاء القرار النفسي، قال الراغب في هذه الكناية: " وقيل هو من القرار والمعنى اعطاء الله ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره " (٤) فنفسهم مطمئنة مستقرة وهم يرون القدوة الطيبة من أصلابهم يتقون الله ويخافونه فهي الأمدية التي يطسح إليها عباد الرحمن، فالكناية تعبير عن هذا الشعور الفطري الإيماني العميق الذي يستقر في نفوس المتقين وقلوبهم، شعور الرغبة أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم، فنقرّ بهم النفوس، وتطمئن بهم القلوب.. والرغبة في أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير، يُتَمَّ به الراغبون في الله المتقون ﴿ وَاجْمَعْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ وليس في هذا من أثر ولا استعلاء فالركب كله يحدوه الإيمان والتقوى (٥)

ومما سبق من كُنَايَاتٍ نفسية يتبين أنها تعتمد على حركات حسية متباينة في تجسيد الحالات النفسية، إذ تظهر بالتصوير الحسي الحركي دخائل الذقوس والمشاعر الباطنة والانفعالات النفسية المتباينة، سواء كانت الحركة الكنائية باليد أم القدم أم العين أم الرأس أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، وهذه الحركة الكنائية ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة تعبيرية نابضة بالحياة تشير إلى دلالاتها النفسية المتباينة فتجسدها في صور حركية مرئية يتملأها الحس والوجدان، ومن ثمّ يكون تأثيرها في النفس والذهن أعمق مما لو جاءت في تعبيرات ذهنية مجردة.

(١) سورة الفرقان، الآية ٧٤. وينظر: السور الآتية: مريم، الآية: ٢٦. طه، الآية: ٤٠. القصص، الآيات: ٩، ١٣. السجدة، الآية: ١٧. الأحزاب، الآية: ٥١.  
(٢) صفوة التفسير: ٣٧٢ / ٢.  
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧١ / ٢.  
(٤) المفردات، ص ٦٠١.  
(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ١٨٧ / ٦.



## الفصل الرابع

# الكناية الخلقية



## الفصل الرابع

### الكناية الخُلُقِيَّة

نقصد بالكناية الخُلُقِيَّة: الكناية التي تتناول موضوعاً يتعلّق بقيمة خُلُقِيَّة إيجابية كانت أم سلبية في حدود ما ورد من كنايات قرآنية احتضنت تلك الموضوعات ومنها: الغيبة والنميمة، واليخل والتبذير، والشجاعة والحبس، والتكبر والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا.. وما إلى ذلك من موضوعات تتعلّق بأخلاق الإنسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات المهمة، فإنه غالباً لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنائي المصوّر للمعنى فيكون أكثر حيوية وتأثيراً، من شأنه أن يحدث الاستجابة الشعورية والوجدانية في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهنه ونفسه أو تنقيته منها. وقد حاولنا توزيع الكنايات الخُلُقِيَّة الى موضوعاتها التي عالجتها، فاستقلت كل كناية أو أكثر بموضوع خُلُقِي واحد يصل إلى المتلقي عبر فن الكناية الذي يقوم بتصنيفه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها خير أداء فينقل المعنى الكبير في اللفظ القليل في طريقة يعجز التعبير الحقيقي المباشر أن يؤديه كما تؤديه الكناية في المواضع التي وردت فيها، وهذا من خصائص الكناية القرآنية (١).

وهذه الخصائص الفنية للكناية القرآنية ستجلى عند عرض الكنايات التي يتكوّن منها هذا الفصل بالطريقة التي عرضنا فيها الكنايات في الفصول السابقة.

### أكل لحم الأخ الميت:

يعرض القرآن بالتصوير الكنائي (الغيبية) بوصفها مرضاً اجتماعياً فتاكاً يعمل على هدم الأواصر والروابط داخل المجتمع، تلك الأواصر التي يحرص القرآن على قوتها وتماسكها، ويدل على بشاعة (الغيبية) وخطورتها التصوير الكنائي الذي عرضها، فهو

(١) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. وينظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ص ٢٠١.

يعرضها في صورة غاية في البشاعة والتنفير، ليحدث الاستجابة الشعورية المقصودة، وهي (الامتناع) عن الغيبة، وقد جاء المنع بصيغة النهي الحقيقي (لا يغتب) ثم تلتها في المعنى ذاته صورة كنانية تظل عالقة مؤثرة في ذهن المتلقي وحسبه وهو يتملى صورتها البشعة المنفرة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ لَنذَرُكُمْ جَحِيمًا وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ أَيُّكُمْ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

الكناية في قوله - تعالى - ﴿ أَيُّكُمْ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ عرض للغيبة في صورة تثير الأشمزاز والخوف في النفس (٢)، فلما بصور القرآن موضوعاً آخر كهذا التصوير.

وبناء الكناية قائم على التشبيه التمثيلي الضمني ومن ورائه يفهم المعنى المكنى عنه (الغيبة)، حيث شبه المعتاب أخاه بشخص يعمد إلى أكل لحم آدمي، وليس الأدمي سوى أخيه الميت، ولم يكن الأكل عن ضرورة أو إكراه، وإنما هو أكل عن اختيار ورغبة وشهية، ووجه الشبه بين المشبه (المعتاب أخاه) وبين المشبه به (صورة الذي يأكل لحم أخيه ميتاً) واضح بين وهو جملة صفات اولها الكراهية في الاذنين (الغيبة وأكل الأخ الميت)، ومن الطبيعي أن تكون الكراهية أشد في المشبه به (الأكل) لتبرز صفة المشبه بها وتؤكد، وثانوية صفات وجه الشبه عدم الحضور في الاذنين (الشخص الذي وقعت عليه الغيبة، والميت)، وثالثة الصفات (النهش والتمزيق) في الاذنين، ولكن النهش في العربة لمعنى ذهني هو (سيرة الناس وأعراضهم) أما النهش في الأكل فهو لمادة محسوسة، ولا بد أن يكون المشبه به حسيّاً في هذه الحالة ليخلع على المشبه العقلي ثوبه المدسوس فيحقق حضوره وقاعليته في ذهن المتلقي ونفسه.

فالتشابه واضح قريب بين الصورتين. إلا أن التصوير بالتشبيه له وقعه المؤثر في النفس، فمن يستطع أن يقبل على أكل لحم انسان، أخ، ميت، متفسخ للبود منه نصيب (٣) فهو التبشيع والتنفير، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " الغيبة آدم كلاب الناس " (٤).

(١) سورة الحجرات ، الآية: ١٢.

(٢) ينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع ، د. أحمد مطلوب ، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: التعبير الفني في القرآن ، ص ٢٠١.

(٤) الكشاف: ٤ / ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٥) والبادي أن الاستفهام في الآية هو للتفي والإنكار وليس للتعزيز.

ويقول الزمخشري في هذا التصوير القرآني: "تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض الغائب على أقطع وجه وأفحش، وفيه مبالغت شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير<sup>(١)</sup>، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. ومنها اسناد الفعل إلى أحدكم والأشعار بأن أحداً من الأحدثين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب يأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل سبياً، وعن قتادة: كما تكره أن وجدت جيفة مدفونة أن تأكل منها كذلك فأكره لحم أخيك وهو حي"<sup>(٢)</sup>.

هذه الصورة التشبيهية تداخلت مع الصورة الكنائية في تسيح فني بنوع من التعبير القرآني الكريم لتجسيد المعنى وتحصيل الاستجابة المطلوبة إذ جعلت صورة المشبه به كناية عن صفة الغيبة من نوع الاشارة المباشرة إلى الصفة المنهي عنها فيما سبق الكناية. وبهذا التصوير القرآني للغيبة يتجلى البعد الاجتماعي، وهو بعد يحرص عليه القرآن كل الحرص، ليس في هذه الصورة الكنائية فحسب، وإنما في السورة التي انتظمت فيها، وقراءة الآية التالية للكناية ترى فيها الربط بين الغيبة والبعد الاجتماعي العام، وهي قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾

فالآية تحصر الغرض من اختلاف النوع البشري من الذكر والأنثى، واختلاف الأماكن والشعوب والقبايل في غاية واحدة هي (التعارف) وربط الصلات الاجتماعية - التي تعمل الغيبة على تمزيقها - على كل طبقاتها ومرآطها بين الأفراد والجماعات والأمم، والجزء الأخير من الآية يشير إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه الروابط والصلات، وهو (التقوى) بكل ما تعنيه كلمة التقوى من معانٍ روحية ومعانٍ اجتماعية، إذ الميزان الوحيد للفاضل بين الناس هو (التقوى) فالله ﷻ لا ينظر إلى الناس ولا يعاملهم إلا بهذا الميزان، وهي دعوة صريحة إلى التقوى لتكون خلقاً لكل فرد، وحيث يكون الأفراد

(١) الكشاف: ٤ / ٢٩٧. وينظر: المثل السائر: ٣ / ٦٢. ومن بلاغة القرآن، ص ٢٢٦.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣. يلاحظ أن الموضوع الرئيس للسورة هو تنقية المجتمع وتنظيفه من الأمراض الاجتماعية وفي مقدمتها الغيبة.

انتقاء، فستكون صلاتهم بالضرورة قائمة على التقوى، وهو الهدف الأخير في هذا المقام (١).

ومن ثم يتضح بجلاء لماذا يشدد القرآن في الذبي عن (الغيبة) بذلك الأسلوب الكناي المصوّر لمعناها في أبشع صورة وأفحشها لينفّر النفوس منها والقلوب ولتظنّ حاضرة في الذهن والحس يتقيها الانسان المؤمن وينفّر عنها، فإنها (أدام كلاب الناس) كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد قدّم القرآن الكريم نموذجاً من هؤلاء في صورة كناية أخرى بالغة التأثير، نلاحظ فيها (الغيبة) وهي أدام للمجرمين يقاتون عليها أو يتلذذون بها، فتكشف عن طبيعة المجرمين الأثمين الذين اعتادوا أدام الغيبة للذيل من المؤمنين، وذلك في قول

- تعالى :- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (٢)

فقد توأمت كنيان في تصوير غيبة المجرمين للمؤمنين، الكناية الأولى ﴿يَتَغَامَرُونَ﴾ وأصل الغمز: "الإشارة بالجنف أو اليد طلباً إلى ما فيه مغاب" (٣) ومطعن، وغالباً ما تكون بالعين والحاجب (٤) وهي حركة كناية لئيمة تتم عمّا وراءها من معنى مكنى عنه يتمثل في (السخرية والاستهزاء) من المؤمنين لايقاح الأذى في قلوبهم، وهي في الوقت نفسه تكشف عن سوء أدب المجرمين وتجردهم من التهذيب.

ويتصاعد سوء أدبهم بالكناية الثانية ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي ستمتعين مبتهجين، وأصل الكناية ﴿فَكِهِينَ﴾ من: "تفكّه القوم: أكلوا الفاكهة، وفكّهتهم أنا. ومن المجاز: تفكّه بكذا إذا تلذذ به، وتركتهم يتفكّهون بعرض فلان أي يتلذذون باغتيابه، وقلان فكهة بأعراض الناس" (٥) وهذا هو المعنى المكنى عنه: اغتياب المؤمنين والاستخفاف بهم.

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم . ص ١٧٨.

(٢) سورة المطففين ، الآيات: ٢٩ - ٣١.

(٣) المفردات ، ص ٥٤٨.

(٤) ينظر: أساس البلاغة ، ص ٣٢٨ (غمز). وينظر: لسان العرب: ٥ / ٣٨٨ (غمز).

(٥) أساس البلاغة ، ص ٣٤٦ (فكهة).

ونلاحظ عمق الكناية في دلالاتها التي تكشف عن نفوس المجرمين ومشاعرهم تجاه المؤمنين وذلك من خلال بنية الكناية على مهاد حسي هو النهم في أكل الفاكهة والتلذذ به والسعي إلى معاودته. وفي ذلك إحياء بان نفوس المجرمين قد أصبح شغلها الأشاغل هو غيبة المؤمنين، فهي الهدف الذي يحرص عليه المجرمون فيتلذذون به، ولا تنفكه النفس ولا تلذذ إلا بشيء قد اعتادته ولازمته. وصوره انقلاب المجرمين على أجليهم بهذا الهدف الحقير الذي اعتادوه بصور منتهى ما تصل إليه النفس من ضعف واسفاف في السلوك والأخلاق.

ومن وراء الكنيتين ﴿يَتَفَانُونَ﴾ و ﴿فَكِهِينَ﴾ نحس إحياء يتمثل في قوة الشخصية المؤمنة المنزنة و هي تلقي الأذى (الغيبه) والسخرية والاستهزاء بصير بغيط قلوب المجرمين ونفوسهم.

### حمالة الحطب:

يرد هذا التعبير الذي يمكن حمله على الكناية، فيفهم أولاً على المعنى الحقيقي القريب، ومن ثم فهمه على المعنى الكناني البعيد، وذلك استناداً إلى طبيعة الفن الكناني الذي يجوز فيه ارادة المعنى الحقيقي، فضلاً عن ارادة لازم معناه مجازاً. والبادي في هذا التعبير القرآني من سورة اللمب الذي يسخر من أم جميل زوج أبي لهب سخرية لاذعة، وهو قوله - تعالى :- ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿١﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٢﴾﴾ (١).

البادي ارادة المعنيين الحقيقي القريب والمجازي البعيد لاتصال أحدهما بالآخر اتصالاً يكمل الصورة بمعانيها وإحياءاتها التي يهدف القرآن تأديتها في إخراج وصف أم جميل التي كانت شديدة العداوة والإيذاء للرسول ﷺ كما أخبر القرآن.

والمعنى القريب لقوله - تعالى - ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ كما أشار المفسرون أن زوج أبي لهب " كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتثرها بالليل في طريق النبي ﷺ " (١) لإيذانه. ولكن صورة (حمل الحطب) تشير إلى معنى مكنى عنه آخر هو

(١) سورة المسد ، الآيتان: ٤ ، ٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢١١ / ٩ ، وينظر: الكشاف: ٤ / ٦٥١ ، وينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٧ / ٥٧٦.

(\*) النميمة: مرض اجتماعي يعمل على إثارة الفتنة والعداوة والبغضاء بين أفرادها. والنميمة: هي تزيين الكلام بالكذب ، ونقله من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر. (ينظر: لسان العرب ، مادة " نمم ")

(النميمة) (٢) و يورد ابن قتيبة هذا المعنى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: " قال ابن عباس: الحطب: النميمة وكانت تَنُمُّ وتُورَثُ بين الناس. ومن هذا قيل: (فلان يحطب عليّ) إذا أعرى به، شَبَّهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تُلْتَهَبُ النار بالحطب" (١). وقال الزمخشري: " وقيل: كانت تمشي بالنميمة. ويُقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم، أي: يوقد بينهم الدائرة ويورث الشر" (٢).

وفي كلا المعنيين القريب والمكنى عنه البعيد الذي تُوحى به الصورة الكنائية ﴿ حَمَلَةَ الْحَطْبِ ﴾ تتجلى سخرية القرآن من أم جميل بجلاء، لأن صورة حمل الحطب على الحقيقة فيها مهانة وسخرية، فالذي يجمع الحطب ويحمله عند العرب - عادة - أما البعيد الأرقاء أو الفقراء المعدومون، فجامعو الحطب ليسو من السادة، بل ليسو من أوساط الناس، وإنما هم في درجة من صغر الشأن قد يُضرب بها المثل في هذا الشأن الهمّين الصغير " وسخرية القرآن تختار هذه الصورة من الهوان الاجتماعي في نظرهم، لا لتسويه بها رجلاً، فالعمل الحلال أياً كان نوعه في الإسلام شرف ونوع من الجهاد، وإنما اختارت سخرية القرآن هذه الصورة لتكسر بها من شموخ أنف امرأة متعالية طاعية، تحمّي بمجد الأباء والأجداد، وتندرع بثراء الزوج والأولاد، فتبغى على المسلمين، وتصد عن سبيل الله ودينه الحنيف، ومن الواضح أن امرأة بهذه المنزلة في قومها، وبهذه العزة في أنفها، يدلع منها أيّما مبلغ أن تصور في صورة جامع الحطب" (٣).

فصورتها مجرد حمالة حطب صورة مضحكة، فضلاً عما تشير إليه من خلق (النميمة) التي كانت تسعى فيها بين الناس لتأليبهم على عداوة رسول الله ﷺ وإيدانه.

وتتعمق دلالة السخرية منها بالكناية التالية: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ نَّسِيمٍ ﴾ أي: " في عنقها حبل من ليف قد قتل قتلاً شديداً، تُعَذَّبُ به يوم القيامة، قال مجاهد: هو طوق من حديد، وقال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللآت والعزرى لأنفقدتها

وقد حارب القرآن هذا المرض الاجتماعي وأشار إلى خطورته، وسخر من كل همّاز مشاء ذميم. ينظر: سورة القلم، الآية: ١١.

(١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٥٩-١٦٠. وينظر: روح المعاني: ٩ / ٤٨٠.

(٢) الكشاف: ٤ / ٦٥١. وينظر: المنتخب من كُنَيَاتِ الْأَدْيَاءِ وَأَشْرَاطِ الْبُلْغَاءِ، ص ٨.

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٥٤.

في عداوة محمده، فأعقبها الله مذها حبلاً في جديها من مسد النار" (١)، وهذا هو المعنى القريب الذي أشار إليه المفسرون، ولكن الآية تُشير إلى معنى مُكنى عنه بعيد هو صفة الاتقياد الأعشى إلى الأذى والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين وهذا المعنى قد وصف القرآن به المشركين في مواضع أخرى (٢) والكناية جسدت هذه الصفة بالتعبير عنها بحبل من مسد المرثي والملموس فعلة ليترسخ المعنى في نفس المتلقي ويتجنب المسلم هذه الصفة.

وبالنظر إلى سورة المسد أو اللهب يتجلى ملحظ فني وجمالي للكنائيتين فيها، وبحسن بنا إيرادها ليتضح ذلك: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ ﴿٥﴾ إذ أن الكنائيتين تتناسقان مع الأداء التعبيري لاسورة في موضوعها وإيحاءاتها، فالسورة تجترح لعبد الغزى زوج أم جميل اسماً جديداً على سبيل الكنية (أبو لهب)، وهي كنية يكسوها لهب ونار، وهو ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ، والحطب وقود النار. وهي متصلاها وفي عنقها حبل من مسد، وبذلك يتجلى "تناسق في اللفظ، وتناسق في الصورة. فجهنم هنا نار ذات لهب. يصلها أبو لهب ! وامراته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي) .. والحطب مما يوقد به اللهب. وهي تحزم الحطب. فعذابيها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد. ليتم الجزء من جنس العمل، وتتم الصورة بمحتوياتها: الحطب والحبل. والنار واللهب. يصلى به أبو لهب وامراته حمالة الحطب" (٣) وترسم في ذهن القارئ أو السامع صورة هذه المرأة وهي في حركة آلية دائبة تحمل الحطب وتضرم النار وتغذيها بالوقود ليستعر أوارها من دون أن تدري بأن زوجها هو الذي سيصلاها وأنها ستلحق به.

غل اليد إلى العنق وبسطها كل البسط:

من الكنایات المصوّرة الموحّية قوله - تعالیٰ - ﴿ وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٤)

(١) صفوة التفسير: ٦١٩ / ٣. وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤٢.

(٢) ينظر: سورة الأعراف، الآية: ١٧٦. وسورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٦٩٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩. وترد صورة (غل اليد) في موضع آخر من القرآن في سورة المائدة، الآية: ٦٤، كناية عن بخل اليهود.

حيث ينهي القرآن عن (البخل والتبذير)، ويحث على التوازن في الانفاق، والتوازن هو القاعدة الكبيرة في القرآن الكريم. قال - تعالى - ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ (١)، لذلك فكل غلو أو تفریط يخل بهذا التوازن مذهبي عنه، فالبخل هو تفریط. والتبذير إفراط وإسراف، وكلاهما ليس من الفضائل التي يحث عليها القرآن.

ويدعرف الفلاسفة الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين (٢). فالجود يُعد فضيلة، ولكن الجموح فيه يعد رذيلة، كما أن الاقتصاد والتبذير محمود ولكن المغالاة فيه مذمومة.

وحين ينهي القرآن عن (البخل والتبذير)، فإنه لا يسلك في ذلك التعبير الذهني المجرد، وإنما ينهي عنهما قويا مؤثرا، وهذه سمة من سمات الكناية عامة، فهي وسيلة تعبيرية محسوسة تعلق بالنفس وتثيرها لأنها تُبدي المعنى في صورة حسية، والصورة الحسية أكثر تأثيراً من المجردة لأنها أقرب إلى التصور وأدعى إلى التمثل في الخيال، وبذلك تكون أسرع إلى الفهم وأكد في أحداث رد الفعل، قال عبد القاهر الجرجاني: "إن أثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تحيء إليها فتثبتها ساذجاً غفلاً" (٣).

فالكناية ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ هي صورة تمثيلية حركية، مركبة من صورتين على سبيل التضاد والطباق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ إزاء إزاء ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ على سبيل (اللف والنشر) (٤) المرتب، أي عاد لفظ ﴿ مَلُومًا ﴾ إلى صورة غل اليد إلى العنق، وعاد لفظ ﴿ تَحْمُسُورًا ﴾ إلى صورة بسط اليد كل البسط على الترتيب، وذلك لبيان عاقبة كل صورة تبعاً.

ولكون اليد آلة العطاء يوظفها القرآن في التعبير عن صفتي التقدير والتبذير في صورة قريبة إلى الذهن والحس. فلنلاحظ اليد مغلولة إلى العنق ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ كناية عن (البخل) (٤) إلا أن هذا المعنى المكنى عنه يصل إلى المتلقي في صورة

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٤٣.

(٢) ينظر: الفلسفة الأخلاقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، ص ٥٨. وينظر: تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي، ص ٢٤. وينظر: المذاهب الأخلاقية الكبرى، فرانسوا غريغوا، ص ٤٢.

(٣) دلالات الإعجاز، ص ١١٠-١١١.

(٤) اللف والنشر: أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل منهما شيئاً من غير تعيين اعتماداً على تصرف السامع في تمييز ما لكل واحد منهما، وردّه إلى ما هو له. وهو نوعان: النشر فيه على ترتيب الألف، والنشر على خلاف ترتيب الألف. ينظر: خزنة الأدب، ص ٦٦. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع، ص ٣٧٦-٣٧٧.

طريقة. فالبخيل في هذه الصورة الكنائية ليس هو مجرد بخيل يمنع عطاءه عن الناس في كل حين، ويكتنز ما عنده، شحيحاً على نفسه.. وإنما هو إنسان مغلول اليدين في صورة عربية، لأن يديه ليست مغلولتين إلى أمام كما هو مألوف، وإنما يذاه مغلولتان إلى عنقه فلا يستطيع حركة. إنها صورة تتناسب موضوع البخل بما فيها من قوة تصوير وغرابة، وذلك لأن البخل - فيما يبدو - هو أشد ضرراً من صدّه (التبذير)، وأكثر كرهاً إلى النفس، لذلك نجد القرآن في عدة مواضع يصف الذين يقون أنفسهم الشح بالفلاح<sup>(١)</sup>، وذلك لتجذره في النفس والتمكّن منها، والبخل أقرب إلى الشر من (التبذير) الذي كَتَبَ عنه بهذه الصورة ﴿وَلَا يُسْطَهِمُ كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وهي صورة تخفّف قوتها في التصوير إزاء كناية (البخل)، وذلك لأن التبذير - وإن كان مذموماً - هو قريب في طبيعته من الخير والمنفعة.

وصورة غل اليد إلى العنق توحى بالقيود المانع من الحركة، وفي هذا إسداك عن العطاء، كما أنّ بسط اليد يوحى بالخلو التام، وفي هذا دلالة على العطاء الكثير الذي لم يُبق شيئاً ويمكن أن نعد ذلك تلويحاً.

ثم تصور الآية ما تنتهي إليه الصورتان الكنائيتان بذلك التعقيب الموحى: ﴿فَمَنْ مَلُومًا تَحْسَبُهَا﴾. واللافت للنظر في هذا التعقيب قوله ﴿تَحْسَبُهَا﴾ فضلاً عن ﴿فَمَنْ مَلُومًا تَحْسَبُهَا﴾. معاني الحسير: الدابة تعجز عن السير فتدق من الإعياء والتعب، قال ابن منظور: "حسرت الدابة والناقة حسراً واستحسرت: أعيتت وكأث.. والعرب تقول: حسرت الدابة إذا سيرتها حتى ينقطع سبيلها" (٢)، وهكذا (البخيل والمسرف) كل منهما يحسر نفسه فيوقف عاجزاً متعباً، فضلاً عن أن في التعبير القرآني دلالة ساخرة من البخيل والمسرف، فكلاهما بالتصوير (قاعد): "فالبخيل قاعد وكأنه ملازم للأرض كشخص مقعد، ولكنه يتلقى اللوم الذي ينهال عليه من كل جانب، والمبذر أيضاً قعيد الأرض بعد أن نفذ ماله، ويمكن أن نتمثله جالساً مطرقاً إلى الأرض، شارد الذهن، يفيض أسى وحسرةً وألماً، فلم يجد من ماله شيئاً، ولم يجد من الذين أحسن إليهم حتى المواساة، ولم يجد ممّا كان يهدف إليه من

(٤) ينظر: من بلاغة القرآن، ص ٢٢٦. ويتنظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠١. وينظر: البلاغة العربية - المعاني والبيان والبيوع - ص ٢٢٩.

(١) ينظر: سورة الحشر، الآية: ٩. وسورة التعلين، الآية: ١٦. وكلا الموضوعين في سياق الحث على الإنفاق. أما الموضوع الآخر الذي ورد فيه لفظ (الشح) فهو في سورة النساء، الآية: ١٢٨. يشمل معنى البخل في الإنفاق ومعنى آخر في سياقه (سياق الصلح بين الزوجين).

(٢) لسان العرب: ٤ / ١٨٨ (حسر).

إبراز ذاته بين الناس شيئاً، بل وجدها أمعنت في الانزواء من حيث أراد لها الظهور" (١). وهكذا تظل صورة البخل وصورة التبنيز عالقة في الحس والوجدان تفعل فعلها، وما كان أي تعبير آخر أن يبلغ إلى الحس ما يبلغه هذا الأسلوب الكناهي.

### قبض اليد:

ويصور القرآن (البخل) بكناية (قبض اليد) في سياق وصف المنافقين والمنافقات، مما يوحي بأن (البخل) من مقومات الشخصية المناقفة، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِمَعْشَرَ مِنَ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحُهُمْ إِنَّكُمُ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).  
الكناية: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ تصيف صفة جديدة للمنافقين تتمثل في (البخل). قال ابن قتيبة: "يمسكون عن العطية، وأصل هذا: أن المعطي بيده يمدها وييسطها بالعطاء، فقيل لكل من بخل ومنع: قد قبض يده" (٣).

والتصوير الكناهي يوحي بقوة هذه الصفة في شخصية المنافقين وتمكدها في أنفسهم، وذلك لأن "القبض تناول الشيء بجميع الكف، نحو قبض السيف وغيره. وقبضها عن الشيء جمعها قبل تناوله، وذلك إمساك عنه، ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل: قبض" (٤). فهي حركة تشير إلى الإمساك النفسي للمنافقين (البخل) عن الإنفاق، والقبض على الشيء فيه إحياء القوة في الإمساك، وهو إحياء يناسب دلالة البخل المقترنة بالمنافقين، لأن النفوس المناقفة هدفها المنفعة الذاتية، لا تعرف البذل والتضحية، بل البخل من المقومات الأساس فيها، ويؤكد هذا الإحياء ويقويه صيغة الكناية بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث (٥)، فهي صفة متجددة للمنافقين في كل وقت.

فالكناية تجسد الحالة النفسية للمنافقين المطبوعة على الشح والبخل في صورة حية تتمثل بحركة اليد في وضع يشي بالحرص على الشيء والامتناع عن إعطائه فضلاً عما قرره الآية من صفاتهم الأخرى.

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٨٤.  
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.  
(٣) تأويل مشكل القرآن، ص ١٦٧.  
(٤) المفردات، ص ٥٦٠.  
(٥) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص ٩.

## النقير:

وَيَصُورُ الْقُرْآنُ يَخْلُ الْيَهُودَ بِكُنْيَاةِ (النَّقِيرِ) فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ تَعْبُدُ مِنَّا الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (١).

الكناية: ﴿نَقِيرًا﴾ تجلي جانباً من شخصية اليهود التي عرضها القرآن في مواضع شتى، وهنا تتجلى صفة الأثرة البغيضة، والبخل الشديد بوصفه طبيعة أصيلة دائمة، كما تُوحى الكناية، فالنقير أصله: "النُّكْتَةُ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ" (٢) والنقير يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الشَّيْءِ الطَّيِّفِ (٣) فهو رمزٌ عن الشيء التافه الحقير الذي تُضنُّ به نفسية اليهودي. فالكناية تجسد بخلهم على نحو مخصوص (٤)، فهل هناك أحقر من نكتة أو نقرة في ظهر نواة تُشجُّ بها النفس وتأتي أن تُعطيها للناس، فالكناية على بساطتها التعبيرية تجسد المبالغة في المعنى إلى أقصى ما تكون عليه النفس من أثرة وبخل. فكيف الحال لو كان لهم نصيب من الملك؟ إذن لهلك الناس جميعاً من دون أن يعطوهم الشيء الحقير التافه ﴿نَقِيرًا﴾

والكناية وإن كانت تقرر حقيقة الشخصية اليهودية في جانب من جوانبها، إلا أنها تجلي سخرية القرآن منهم في أعلى صورة وهي تدمعهم بصفة البخل، وتكشف عن حرصهم على حياة في أحقر صورة، وأن نفوسهم قد نصبت من أي باعث إنساني يحركها لإيذاء الناس شيئاً ولو كان ﴿نَقِيرًا﴾

بل هم لا يتحرجون حتى مع الله ﷻ من قولهم الإثم في أبشع صورته كما يحكي عنهم القرآن في موضع آخر يتصل بمعنى الكناية ويقويها، وذلك في قوله - تَعَالَى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَا اللَّهُ مَعْلُومَةٌ عَلَّتْ آيَاتِهِمْ وَأَلْمَأُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ (٥).

﴿عَلَّتْ آيَاتِهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل وإثبات هذه الصفة لديهم، لذلك فهم أبخل خلق الله لأن الدعاء من الله قضاء نافذ. قال الزمخشري: "معناه الدعاء عليهم بالبخل والنكد، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله وأنكدهم فإن قلت: كيف جزأ أن يدعو الله عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنكد؟ قلت: المراد به الدعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم فيزدون بخلًا إلى بخلهم

(١) سورة النساء، الآية: ٥٣.

(٢) أساس البلاغة، ص ٤٧٠ (نقر).

(٣) المفردات، ص ٦٧٧.

(٤) الملاحظ على كناية ﴿ش﴾ ج أنها لم تأتي في القرآن كناية عن البخل إلا في هذا الموضع وصفا لليهود فهي تختص بهم.

(٥) سورة المائدة، من الآية: ٦٤.

ونكداً إلى نكدهم " (١) فهي طبيعة ثابتة فيهم، إلا أن الكناية في تصويرها القوي بغلّ أيديهم دالة على بخلهم الشديد المتأصل في أنفسهم، فهي لا تتحرك إلى عطاء ولو كان ﴿تَوْبَرًا﴾<sup>(٢)</sup> وبذلك تتواشج الكنيتان في التصوير والتعبير.

### منع الماعون:

وبعرض القرآن كناية أخرى عن (البخل) الذي يندشأ بسبب السهو عن الصلاة وسراة الناس، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿۱﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿۲﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿۳﴾ وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿۴﴾﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ كناية تُوحي بمعانٍ كثيرة، ومن معاني هذه الكناية ما ذكره بعض المفسرين: " الماعون: الزكاة، وعن ابن مسعود: ما يتعلون في العادة من القابض والقدر والدلو والمقدحة. وعن عائشة: الماء والنار والملح " (٤) والكناية شاملة لهذه المعاني ودالة أيضاً على كل برٍ يمنعه الانسان في كل صورته وأشكاله بدافع (البخل) الذي تشير إليه عبر الوساطة (منع الماعون) التي تمثل حركة حسية مجسمة يسببها البخل. وهذا البخل ناشيء كما يقرر التعبير القرآني من السهو عن الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فهم لم يقيموا الصلاة على وجهها، ولو أنهم أقاموها حقاً لظهرت آثارها في السلوك والواقع، ومن هذه الآثار ما يدعون للناس.. وبذلك فإن إقامة الصلاة على وجهها الصحيح تدشئ أثرها العملية الخلقية الإيجابية من خلال تنميتها بغرائز الخير وتهذيبها لغرائز الشر، التي تمثلت هنا في الكناية بصفة (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية يُحذّر القرآن منها المؤمنين، ويشد التحذير من هذه الصفة عندما يُكنى القرآن عنها بالفحشاء، وذلك في قوله - تعالى - في سياق حث المؤمنين على الإنفاق من طيبات ما يكسبون: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن مَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ السَّيِّئَاتُ يَبْعَثُ عَلَيْكُمْ أَلْفَقْرًا وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢﴾﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) الكشاف: ١ / ٦٢٧ - ٦٢٨.

(٢) سورة الماعون، الآيات: ٧، ٤.

(٣) الكشاف: ٤ / ٦٤٣، وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٦١٩.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢٦٧ - ٢٦٨.

الآية نداء عام للمؤمنين تحثهم على الإنفاق من جميع أنواع المال الحلال الطيب في كل صوره وأشكاله.. ويُكنى عن (البخل) بالفحشاء ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾. جاء في أساس البلاغة: "فلان فاحش أي بخيل، ومنه: ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾" (١) وجاء في لسان العرب: "الفحش والفحشاء والفاحشة القبيح من القول والفعل، وجمعها الفواحش.. وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي.. وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا فاحشة.. وأما قول الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ قال المفسرون: معناه يأمركم بأن لا تصدقوا، قيل: الفحشاء ههنا البخل، والعرب تُسمى البخيل فاحشاً" (٢) وجاء في التفسير: "﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمْ الْفَقْرَ﴾: أن السر في بخلكم بصرف الطيب واقدامكم على صرف الردي هو مخافة الفقر الذي أنزركم الشيطان به حيث وسوس في صدوركم أنكم إذا صرفتم الجيد يبقى لكم الردي.. ويأمركم بالخصلة الفحشاء، أي البخل واللؤم ومحبة الأمور العاجلة التي تكون سبباً لمباشرة المعاصي الفاحشة، ولذلك تصرفون ما لا خير فيه" (٣).

فالفحشاء كناية عن (البخل) ولكنها تخرجه بظلال بشعة موحية مكتسبة من إحياءات الكناية الدالة على ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، فيتجلى التهذيب الخُلقي الذي تبعته في نفوس المؤمنين فتفقرهم أشد ما يكون التنفير من البخل والشح بوصفه معصية فحش فنتجاوز الحد، لأنها تمتعهم من الإنفاق في سبيل الله، وتبعث في نفوسهم الخوف من الفقر، أو انفاق الردي الخبيث بدلاً من الحلال الطيب، الخبيث الذي تعافه النفس فلا تقبله إلا على نحو من التغافل والتساهل والامتصاص كما تصور الكناية هذا المعنى النفسي من خلال حركة اغماض العين (٤) التي تشير إليه: ﴿وَأَسْتَمُّ بِمَا خَذِيذٍ إِلَّا أَنْ تُنْمِئُوا فِيهِ﴾

ثم يكشف السياق القرآني عن الباعث الحقيقي الأمر بكل هذه المعاني: بخل النفس وامساکها عن الإنفاق، أو انفاق الردي الخبيث، والخوف من الفقر، يكشف عن باعثه وهو الشيطان: ﴿الشَّيْطَانُ يَدْعُكُمْ الْفَقْرَ...﴾ فهو الأمر بكل فحشاء.. ويتصاعد التنفير في النفوس والقلوب مما يأمر به الشيطان ويتعد.

(١) ص ٢٣٥ (فحش).. وينظر: الكشاف: ١ / ٣٩٦.

(٢) ٢٢٦ / ٦ / ٢٢٥ (فحش).

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢١٦ - ١٠٧.

(٤) ينظر: المفردات، ص ٥٤٨. وينظر: الكشاف: ١ / ٣٩٦.

فتحقق الكناية (الفحشاء) في سياقها الاستجابية النفسية التي يهدف القرآن إلى بعثها في قلوب المؤمنين والتي تمثلت في تجنب (البخل) بوصفه قيمة خلقية سلبية لا تليق بحياة المؤمنين.

### تصعير الخد:

ينهى القرآن الكريم عن التكبر بوصفه سلوكاً خلقياً مذموماً، قال عنه علماء النفس بأنه " شعور ذاتي بالحاجة إلى أن تتفوق الشخصية على الآخرين، أو أن تسيطر نفوذها عليهم، أو تصيح متميزة منهم بشكل أو بآخر ويأتي شعور المرء بالتكبر أو العلو نتيجة إحساسه الداخلي أو الذل فيقوم بتعويض ذلك بتكلف التعالي على الآخرين " (١). ويعلل أحد المفسرين سبب ذم التكبر قائلًا: لأن المتكبر هو الذي يظهر من نفسه الكبر، وذلك نقص في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس " (٢).

وحين ينهى القرآن عن هذه الصفة النفسية المذمومة، فإنه يوظف الأسلوب الكناهي المصوّر للمعنى فيبرز تلك المشاعر النفسية المريضة ويجسدها في وضع ظاهر للعيان من خلال تلك الحركات المادية التي يصطنعها المتكبرون.

منها كناية (تصعير الخد) الواردة في قوله - تعالى - على لسان لقمان الحكيم يعظ ابنه بالتواضع للناس ولين الجانب لهم، وينهاه عن التكبر: ﴿ وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْتَرِ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٣).

قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَصْعِرْ خَدَّكَ ﴾ كناية عن صفة التكبر، وهي تصوّر المتكبر في صورة فدية بالغة التفتير، إذ يرسم فيها المتكبر شخصاً مريضاً، وذلك لأن (الصعير): " داء يأخذ البعير فيلوي منه عذقه ويميله " (٤). فهو مرض يصيب الإبل فيلوي أعناقها فتمشي معوجة العنق منقلبة الوجه إلى أحد الشقين، فهو منظر يثير العطف في المشاهد.

(١) دراسات في علم النفس الإسلامي، د. محمود البستاني: ١ / ٢٣٥. وينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٥٢.  
(٢) التفسير الكبير: ٢٩ / ٢٩٤.  
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٨.  
(٤) لسان العرب: ٤ / ٤٥٦ (صعر).

يعمد القرآن بهذا التصوير الكنائي إلى هذا المرض فيصم به المكبر المتعالي المعرض بوجهه عن الناس، وهو يحسب بذلك الباعث النفسي المريض أن له هيبةً ومكانةً، وأن ذلك يزيده ترفعاً وجاهاً. وهو في حقيقته كما تخرجه الكناية شخص مريض، وبدلاً من أن يثير الرهبة والخوف في نفوس الآخرين يثير الأسخريّة والإزدراء لأنه اصطنع في مظهره صورة منكرة شديدة النكر.

وبذلك تكثف الكناية دلالة التنفير من هذا السلوك الاجتماعي (التكبر)، فإن النفس السوية لا ترضى أن ترسم في هذه الصورة الزرية وهي تمشي بين الناس، كما تجلي الكناية سمة فنية للقرآن في رسم صورته، وهي توظيفه لعناصر بيئية، وذلك ليكون المشهد أقرب إلى أنفسهم، وأكثر تأثيراً في حسهم (١). كما في هذه الكناية التي يعرقها العرب في بيئتهم.

### في الرؤوس:

ويصور القرآن بهذه الكناية أعراض المنافقين واستكبارهم على نحو مخصوص، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ صَاَلُوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢).

الكناية: ﴿ لَوَّارَهُمْ ﴾ حركة مادية تجسد حالة نفسية خاصة بالمنافقين، يُقال: " ألوى الرجل برأسه ولوى رأسه وأعرض. وألوى رأسه ولوى برأسه: أماله من جانب إلى جانب " (٣). وقال الزمخشري: " عطفوها وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً. والتشديد للتكثير " (٤) والمبالغة. فهي كناية عن استكبارهم وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ للاستغفار لهم. والكناية تدل بالتشديد على أنهم قد اعتادوا هذه الحركة بكثرة، لأن تضعيف العين في الفعل يدل على تضعيف الفعل، أي أنهم قد كرروا هز رؤوسهم وتحريكها مما

(١) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، ص ١٧٣.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٥.

(٣) لسان العرب، مادة (لوى): ١٥ / ٢٦٤.

(٤) الكشاف: ٤، ٤٣٣.

يؤكد دلالة استنكار المنافقين وإعراضهم فضلاً عن استهزائهم، وقد يكون المراد تكثير محال الهز- وهي الرؤوس- أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم استهزاءً واستنكاراً (١)

### التمطي:

وردت هذه الكناية في موضع واحد من القرآن في قوله - تعالى -: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٢٤٤﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ آخِرِهِ، يَتَمَطَّى ﴿٢٤٥﴾ أَرَأَيْتَ لَكَ تَأْوِيلَهُ ﴿٢٤٦﴾﴾

تصوّر الكناية مشيئة الإنسان الكافر الموصوف في هذا النص القرآني (٢) لأن المَطَّ: السَّدُّ يقال: مَطَّوْتُ بِالْمَقُومِ مَطْوًأً إِذَا مَدَدْتْ بِهِمْ فِي السَّيْرِ، وَتَمَطَّى النَّهَارُ: امْتَدَّ وَطَالَ، وَتَمَطَّى بِهِمُ السَّفَرُ: امْتَدَّ وَطَالَ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَدَّدْتَهُ فَقَدْ مَطَّوْتَهُ، وَالمَطْيَةُ مِنَ الدَّوَابِّ: الَّتِي تَمَطَّى فِي سَبِيلِهَا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ المَطْوِ أَيْ المَدِّ: (وَمِنْ دَلَالَةِ المَطِّ عَلَى المَدِّ جَاءَ " التَّمَطِّي " لِيُبدَل عَلَى التَّبَخُّثِ وَمَدِّ اليَدَيْنِ فِي المَشْيِ) (٣) - وأصل ﴿يَتَمَطَّى﴾: يَتَمَطَّطُ فَقَلَبْتَ الطَّاءَ فِيهِ حَرْفَ عِلَّةٍ كَرَاهَةً اجْتِمَاعِ الأَمْثَالِ. وَمَعْنَى يَتَمَطَّطُ: يَتَمَدَّدُ لِأَنَّ المَبْخُثَرَ يَمُدُّ خَطَاهُ، وَهِيَ مَشْيَةٌ المَعْجَبُ بِنَفْسِهِ، وَقِيلَ المَعْنَى: يَمُدُّ مَطَاهُ أَيْ ظَهْرَهُ وَيَلْوِيهِ مِنَ التَّبَخُّثِ (٤). وَالتَّكْلُفُ وَالتَّصْنَعُ وَاضِحٌ فِي مَشْيَةِ هَذَا الإِنْسَانِ الكَافِرِ المَعْرُورِ بِذَلِكَ صَيْغَةً (تَفَعَّلَ) الَّتِي تُفِيدُ هَذَا المَعْنَى (٥)

فالكناية تصوّر التكبير المنبعث من الإعجاب بالنفس من خلال حركة الجسد كله وليس من خلال الرأس و هزه أو تصغير الخد كما في الكنائيتين السابقتين، وبذلك تدعاطم دلالة كراهية هذه المشيئة والسخرية اللاذعة بهذا الذي يتمطي، فضلاً عن أن هذا المشهد يأتي مباشرة بعد مشهد الاحتضار المتصل بمشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِسُورَةِ الأَحْزَابِ ﴿٤٨٨﴾ وَجُودَ بِوَمَهْلِكِ نَاصِرَةٍ ﴿٤٨٩﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٍ ﴿٤٩٠﴾ وَجُودَ بِوَمَهْلِكِ بَاسِرَةٍ ﴿٤٩١﴾ تَقَرَّنَ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٍ ﴿٤٩٢﴾ كَلَّا إِذَا

(١) ينظر: لغة المنافقين في القرآن، د. عبد الفتاح لا شين: ٢ / ٢٤٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٤٤.

(٢) سورة القيامة: ٣٢- ٣٣.

(٣) قيل أنها نزلت في أبي جهل. ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤٨٨. ولباب القول في أسباب النزول، ص ٧٧٦.

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ٢٨٤- ٢٨٥ (مطأ).

(٥) ينظر: الكشاف: ٤ / ٥٣١. والتفسير الكبير: ٣٠ / ٢٣٣.

(٥) ينظر: الألفاظ النفسية في القرآن الكريم، ص ١٦٦.

بَلَّغْتَ آتْرَاقِي ﴿١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٣﴾ وَالْتَفَتَ آتَاقُ بِالسَّاقِ ﴿٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِيَوْمٍ ذَٰلِكَ الْمَسَاقِ ﴿٥﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا  
صَلَّى ﴿٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَلَنَّا ﴿٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَسِكُنَ ﴿٨﴾ (١)

وهذا تصوير على نسق خاص كان ليس بينهما فاصل زمني، ذلك أنه " عرض  
مشهد الاحضرار المقبل، كأنه حاضر الآن! ثم جعل الحداية الحاضرة، كلفها من ذكريات  
الماضي ! ليرى هذا الذي التفت منه الساق بالساق من الهول والرعب، أو من الداء  
والآلم، وبلغت روحه التراقي، وتساءل من تساءل: ألا من راق يرقيه ويرفع عنه هذه الحال،  
وتوقع هو أنه مفارق هذه الدنيا وما فيها.. ليرى صورته هذه، ويستحضر في خياله صورته  
الأخرى. وهو يكذب ويتولى، ويذهب إلى أهله يمتسك، تيهياً وكبراً " (٢)، فمن شأن هذا  
النسق الخاص لامتساق الآء الضوء على هذه الشخصية المغرورة الغافلة في تبخترها  
واعجابها بنفسها فتتكبر وينظرها هذا المصير الذي سيفاجئها بسرعة فهو التيه والضللال  
والغفلة.

### ثني العطف:

ولون آخر من ألوان التكبير في الحركة والشعور تجسده الكناية (ثني العطف) في  
قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٠٢﴾ (٣)

الكناية التصويرية قوله - تعالى -: ﴿ ثَانِي عَطْفِهِ ﴾ تجسد حالة نفسية متعالية متعجرفة  
وذلك من خلال حركة ثني العطف. والعطف: المنكب وعطفا الرجل: جتابه عن يمين  
وشمال وشقاه من لدن رأسه إلى وركه " (٤) وهي حركة تشير إلى معنى " الكبر والخلاء،  
كتصغير الخد وليّ الجيد. وقيل: الإعراض عن الذكر " (٥) وقال الراغب: " ثاني عطفه:  
عبارة عن التنكر والإعراض، نحو: لوى شذقه، ونأى بجأديه " (٦) فهو (التكبر) المنبعث  
عن الإعراض عن آيات الله، وهذا المعنى المكنى عنه هو أقرب إلى السياق.. وهو صورة

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٠ - ٣٣.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن، ص ٦٦.

(٣) سورة الحج، الآيتين: ٤ - ٨.

(٤) لسان العرب، مادة (عطف): ٢٥٠ / ٩. وينظر: المفردات، ص ٥٠٦.

(٥) الكشاف: ١١٥ / ٣.

(٦) المفردات، ص ١١١.

من التكبير شديدة الكراهية لكونها تتعلق بإيات الله والجدال فيها بغير علم بهذا الياعث النفسي الممقوت، وكون الثاني عطفه يجادل ﴿يَجِدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي لا يستند إلى حقيقة يركن إليها، ولا حق يجادل عنه، فإنه يعوض عن فراغه النفسي والعقلي بتلك الحركة الدالة على تكبره وإعراضه، فضلاً عن أنه مضلّ لغيره عن الهدى والكتاب المنير.

### انقراض الرؤوس:

يقدم القرآن بهذه الكناية لونا آخر من ألوان التكبير عن الإيمان باعته التعجب والاستهزاء من فكرة إعادة الحياة بعد الموت وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا لَوْذَا لَسَمِعُواوَنَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يبيدنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِخُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (١)

في النص الكريم كنايةان، الأولى: قوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ والثانية: ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ قال الزمخشري: "لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قيل لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا﴾ فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: انكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحس وعضاضته بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هو عمود خلقه الذي يبنى عليه سائرته، فليس ببديع أن يردّها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر، - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الصسرة والصلابة - لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني أو خلقاً مما يكفر عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه فإنه يحييه" (٢) وهؤلاء الكافرون لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديداً، ولكنها كناية تشير إلى معنى التحدي والتعديز لهم، فضلاً عن توبيخهم ونقريعهم، لأن الكناية بالحجارة والحديد وهما من الجماد الذي لا يحس ولا يشعر فيهما إحياء إلى ما في انكارهم للحياة بعد الموت كما أفاد الاستفهام الإنكاري

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٤٩ - ٥٢.

(٢) الكشاف: ٢ / ٥٢٤. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ١٦٣ - ١٦٤.

بالمهزة: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنَا...﴾ من جمود أو تحجر، أو أكبر من هذا الإحياء وأعمق كما أفاد التعبير بعد الكناية ﴿أَوْخَلَقْنَا مَعًا يَكْبُرُ فِي سُُدُورِكُمْ﴾ والذي يُوحى بتطاولهم واستهزائهم وتكبرهم كما تجسده الكناية ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ وهي كناية حركية بتلك الرؤوس المنعجبة المستهزئة والتي تحمل ذلك التصور المتحجر الجامد، قال الفراء: " يُقال أنغض فلان رأسه إذا حرّكه إلى فوق وإلى أسفل " (١) كالمتعجب من الشيء، وقال الزمخشري: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ﴾ فسبحر كونها نحوك تعجباً واستهزاءً " (٢) فالمكنى عنه هو: التعجب والاستهزاء المبيّح عن تلك الحالة النفسية المتكبّرة عن الإيمان المستنكرة، وتتصاعد دلالة الانكار وتعمق بالاستفهام بالأداة متى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ الذي أفاد الانكار والاستبعاد لليوم الذي يُبعث فيه الموتى للحياة والحساب والجزاء.

### الإعراض والناي بالجانب:

تصوّر هذه الكناية تكبر الانسان حين النعمة والرخاء، ويأسه وقتوطه حين الشدة، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا آمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ اعْرَضَ وَنَا بَاجِبِيهِ وَإِنَّا مَنَّاهُ الشُّرَكَانَ يَتُوسَا﴾ (٣). الكناية في - تعالى -: ﴿اعْرَضَ وَنَا بَاجِبِيهِ﴾ والإعراض والناي بالجانب حركة يُراد منها ما تشير إليه من معنى الاستكبار وباعته الطغيان. وفي الكناية تأكيد لهذا المعنى المكنى عنه، لأن ﴿وَنَا بَاجِبِيهِ﴾ تأكيد للإعراض، قال الزمخشري: " الإعراض عن الشيء أن يوليّه عرض وجهه. والناي بالجانب: أن يولي عنه عطفه ويوليّه، وأراد الاستكبار، لأن ذلك من عادة المستكبرين " (٤)، فالكناية تكشف عن صفة من صفات النفس المستكبرة في حين النعمة من صحة وسعة في الرزق.. فنتصور هذه النفس أنها مستغنية عن الله مستبدة بنفسها، فهي نفس معرضة لا تذكر ولا تشكر، بل هي تطغى وتيطر وتستكبر.. والجزء الأخير من الآية يكشف عن الجانب الآخر المضاد لهذه الحالة النفسية: ﴿وَإِنَّا مَنَّاهُ الشُّرَكَانَ يَتُوسَا﴾ حين الشدة من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَتُوسَا﴾ شديد اليأس من روح الله (٥).

(١) التفسير الكبير: ٢٠ / ٢٢٦.

(٢) الكشاف: ٢ / ٥٢٤. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ١٦٤.

(٣) سورة الاسراء، الآية: ٨٣.

(٤) الكشاف: ٣ / ٥٣٨.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢ / ٥٣٨.

ونلاحظ في حالة يادسة حين الشدة والبلاء حركة خفية تقابل حركته عند تكبيره وبطره، حركة نلمحه فيها مطأطأ الرأس مخفوض الجانب من شدة اليأس والقنوط. فهذا الإنسان في الحالتين: حالة الاستكبار، وحالة اليأس والقنوط مجانب لطريق الله، طريق الهدى.

وبذلك تلمح الآية بمجملها إلى قيمة الإيمان بالله والاتصال به في الحالتين، فهو رحمة في السراء والضراء على حد سواء.

ونلاحظ في الحالتين النفسيتين المتقابلتين على التضاد في هذا النمط من البشر، أن التأكيد والقوة في التعبير تجلّى في التعبير الكنائي عن حالة الاستكبار المنبعثة عن طغيان الإنسان حين النعمة والرخاء أكثر من الحالة الثانية في التعبير عن اليأس والقنوط حين الشدة والأبتلاء، فالقوة التعبيرية في الكناية تمثلت في:

١ - تصوير المعنى المكنى عنه بحركة مادية حسية، والتصوير الحسي للمعنى أكثر تأثيراً

من التعبير الذهني المجرد، شأنه شأن من يأتي بيينة على ما ادعى.

٢ - تأكيد حركة الاعراض بقوله: ﴿وَنَفْسًا يَمِينًا﴾. مما دل على تغلغل هذه الحالة الشعورية وتمكنها من النفس. وهذا لا نجد في الحالة المقابلة لها.

وبذلك تنجلي دقة التعبير القرآني في الكشف عن أسرار النفس الإنسانية في تأثيراتها وتقلباتها وإظهارها بشكل محسوس، فالله الذي خلق النفس الإنسانية هو أعلم بها من حاملها، ويعلم أي الأشياء ترغبها وتتجذب إليها، وأبها مدعاة للذفور والرغبة.. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْنَا تَأْتِيمًا ﴿١﴾ وَمَا تُؤْمِنُ بِهِ فَنَنْسُهُ ﴿٢﴾ وَخَنُوقًا لِّرَبِّهِ ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهًا لَّهُ الْيُسْرَىٰ ﴿٤﴾ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ كَذَبٌ ﴿٥﴾﴾

### المشي على الأرض هوناً:

يقدم القرآن بهذه الكناية صورة وضيفة في معانيها وإحياءاتها تقف على التضاد من الصور الكنائية السابقة التي أشارت إلى ألوان من التكبر على الناس والاستكبار والإعراض عن آيات الله.

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

هذه الكناية تصوّر حُلقاً إيجابياً من أخلاق المؤمنين و هم يمشون بين الناس كما يصفهم بقوله - تعالى - : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١)

والكناية ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ تتكثف الدلالة فيها بالصفة ﴿ هَوْنًا ﴾ فهي تشير إلى معنى الرفق الذي يتطلى به هؤلاء الموصوفون بأنهم ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ بهذه الإضافة التي ترفعهم وتخصصهم. قال الزمخشري: " ﴿ هَوْنًا ﴾ حال، أو صفة للمشي، بمعنى: هينين. أو: متبناً هيناً، إلا أن وضع المصدر موضع الصفة مبالغه. واليهون: الرفق واللين " (٢) والمعنى المكنى عنه: السكينة والوقار والتواضع (٣) فهم لا يضربون الأرض بأقداسهم ولا يشنون أعناقهم ويلوون رؤوسهم.. وإنما هو اللين والتواضع بتجسد في مشيتهم على الأرض برفق، فهم عباد الرحمن واليه ينتسبون، تفيض من نفوسهم الرحمة بالناس والمغفرة لهم ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أي: " قالوا سداداً من القول يسمون فيه من الإيذاء والاثم، والمراد بالجهل: السفه وقلّة الأدب " (٤) فهو الحلم والأدب والصفح الجميل الذي يتصف به عباد الرحمن.

### تشبيات الأقدام:

بصوّر القرآن بهذه الكناية الصمود والنصر الذي يمدحه الله لعباده المؤمنين الذين ينصرون الله ﷻ وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٥)

الكناية التصويرية ﴿ وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي: " أن تنصروا دينه ينصركم على أعدائكم ﴿ وَيُخْرِجْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ أي ويشبّكم في مواطن الحرب " (٦) وحسّدت الكناية المعنى بالأقدام لأدائها آلة الوقوف والمشي و " الثبات والتزلزل يظهران فيها " (٧) فهي التي يركز عليها الجسد

(١) سورة الفرقان ، الآية: ٦٣.

(٢) الكشاف: ٣ / ٢٢٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣ / ٢٠٣.

(٤) الكشاف: ٣ / ٢٣٠.

(٥) سورة محمد ، الآية ٧. وينظر: سورة البقرة ، الآية: ٢٥. وسورة آل عمران ، الآية: ١٤٧.

وسورة النحل ، الآية: ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٢٠٧.

(٧) صفوة التفسير: ٣ / ٢١٥.



وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَّعِ الْجُدُرِ بِأَسْمِهِمْ يَنْتَهُمُ شَدِيدًا تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

قال الزمخشري في هذه الآية: ﴿ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ ﴾ لا يقررون على مقاتلتكم ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متساندين، يعني: اليهود والمنافقين ﴿ إِلَّا ﴾ كالتنين ﴿ فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالخدائق والدروب ﴿ أَوْ مِنْ وَدَّعِ الْجُدُرِ ﴾ دون أن يصحروا لكم ويسارروكم ﴿ بِأَسْمِهِمْ يَنْتَهُمُ شَدِيدًا ﴾ يعني: أن البأس الشديد الذي يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة. لأن الشجاع يجبن والعزير يذل عنه عند محاربة الله ورسوله ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ذوي الأفة واتحاد ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾ متفرقة لا الأفة بينها، يعني أن بينهم إحنًا وعداوت، فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة (٢)؛ وقوله ﴿ لَا يُقَدِّرُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَّعِ الْجُدُرِ ﴾ الذي أعدنناه كناية، وإن كان يشير في ظاهره إلى اتخاذ اليهود والمنافقين أسباب القوة والحيلة والحذر عند مواجهة جنود الله المؤمنين في ساحة القتال، إلا أن بناءه جاء في أسلوب القصر الذي أفاد قصر قتالهم على صورة التحصن بالقرى أو التحصن بالجُدُر لا يذصر إلى صورة غيرها، والمراد به الجبن الذي يتصف به اليهود وحفاؤهم من المنافقين حينما التقى المؤمنون بهم، فالكناية تقرر حالة قائمة في نفوسهم، وحينما انكشف لليهود والمنافقون في أرض المعركة فإنهم يولون الأديار جنبًا وخوفًا من المؤمنين.

وتوحي الكناية من طرف خفي بعث المؤمنين وتشجيعهم على مقاتلتهم لكسر شوكتهم.. وذلك لأن المؤمنين خلاف هؤلاء بملامحهم النفسية التي جلتها الآية الكريمة ﴿ بِأَسْمِهِمْ يَنْتَهُمُ شَدِيدًا ﴾ و ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ﴾، فالمؤمنون متضامنون متعاونون يجمعهم ويقويهم الإيمان بالله، فهم قلب واحد، وقوة واحدة في أفتنهم وتعاضدهم، فهم يرمون عن قوس واحدة.

### الإصعاد واللي:

وردت هذه الكناية في مشهد من مشاهد معركة أحد تجسد حالة الضعف والهزيمة النفسية للأقارب من جيش المسلمين المرتدين عن أرض المعركة إما أصابهم من دهن

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٢) الكشاف: ٤/٤٠٥، ٤٠٤.

وذعر، ترد هذه الكناية إزاء صورة كنادية أخرى على التقابل تجلّي ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في أعلى صورها، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ **إِذْ تَضِعُ دُونِكُمْ وَلَا تَكَوُتُونَ عَلَى أَكْبَادِكُمْ وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ فَأَتَيْتَكُمُ عَمَّا يَتَرَوْنَ لَكِنَّا لَا نَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (١).

فالاية تقابلت فيها كنياتان على التضاد تجلّي حالتين خفيتين في صورة حسية حركية، الأولى: ﴿ **إِذْ تَضِعُ دُونِكُمْ وَلَا تَكَوُتُونَ عَلَى أَكْبَادِكُمْ** ﴾ في وصف المسلمين المقاتلين الذين ارتدوا على أديارهم من أرض المعركة. والثانية: ﴿ **وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ** ﴾ الثابت يدعو إليه المؤمنون الفارين فيمن تأخر سعه في أرض المعركة. والحركة الحسية في الكناية الأولى تمثلت في الارتفاع واللي، والاصعاد: الذهاب في الأرض والابعد فيه، يُقال: سعد في الجبل وأصعد في الأرض (٢). ﴿ **وَلَا تَكَوُتُونَ** ﴾ ولا تقيمون ولا تعطفون ولا تميلون ﴿ **عَلَى أَكْبَادِكُمْ** ﴾ لأن من مال إلى شيء يلوي عنقه إليه (٣). والكناية الثانية: ﴿ **وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ** ﴾ كان يقول: ((لبي عباد الله لبي عباد الله أنا رسول الله من يكره فله الحنة)) ﴿ **فِي أَخْرَابِكُمْ** ﴾ في سفنكم وجماعتكم الأخرى وهي المتأخرة (٤).

فالكناية الأولى في حركتها الحسية، القوية تصور ذلك الإنفعال الحسي القوي المتمثل في الخوف والذعر، فلا يظنّون إلى ورائهم لشدة الدهشة ولا يعطفون على أحد ولا مدافعة.. وإزاء هذه الصورة الكنائية التي جسدت حالتهم النفسية المكروية، تجلّي الكناية المقابلة ﴿ **وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ** ﴾ معناها المكنى عنه المتمثل في ثبات الرسول ﷺ وشجاعته في ذلك الموقف العصيب، فهو الثبات في الصورة والمعنى في أحلك المواقف كما تعمل هذه الكناية على تعميق معنى الهزيمة وتضعيدها في حس الفارين من أرض المعركة وذلك من خلال التضاد في المعنى، فكان يجب عليهم أن يكون لهم أسوة حسنة في الرسول ﷺ في ثباته وصبره وشجاعته، فما يكون لهم أن يفروا ويتركوا رسول الله راغبين بأنفسهم عن نفسه.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

(٢) الكشاف: ١ / ٤٧١.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٣٧٤.

(٤) الكشاف: ١ / ٤٧١.

ولا يخفى ما في ذلك من ابتلاء للمؤمنين: ﴿فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّا يَقْتَرُ﴾ أي: "فجازاكم الله ﴿عَمَّا﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاككم ﴿يَقْتَرُ﴾ بسبب غم أنقتموه رسول الله ﷺ بعضيتانكم له أو غماً مضاعفاً غمّاً بعد غم وغماً متصلاً بغم من الاعتمام ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغوم وتضروا باحتمال الشدائد، فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا على مصيب من المضار" (١). فهو الابتلاء الذي يعمل على إثارة النفوس والقلوب لإزالة الضعف الذي حلّ ضمن المنهج التربوي للقرآن الكريم في معالجة النفوس والقلوب ولا سيما وهي تواجه الأحداث العظام.

### غَضُّ الْأَبْصَارِ وَالضَّرْبُ بِالْأَرْجُلِ :

يُعلم القرآن المؤمنين والمؤمنات القيم الخلقية الإيجابية ويأمرهم بالالتزام بها، لما لها من دور فاعل في بناء المجتمع الذي يهدف إليه القرآن، وبالمقابل ينهاهم عن الأخلاق السلبية التي تعمل على هدم هذا المجتمع وتحطيمه. وهو إذ يُعلم المؤمنين والمؤمنات ويأمرهم وينهاهم، فإنه يخاطبهم بالأسلوب البنائي المؤثر الذي يؤدي المعنى في حيوية وقوة تأثير يظل معها عالقاً في الذهن يحدث الاستجابة الوجدانية التي يبتغيها القرآن.

ومن ذلك الكنيتان الواردتان في قوله - تعالى - خطاباً للمؤمنين والمؤمنات: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْجُلَهُمْ ذَلِكَ أَوْكَى لِمَنْ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَضْمُنْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ أَرْجُلَهُنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِينَ لَوْ ظَهَرُوا عَلَى عَوَاتِبِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢)

ثمة نلاحظ كسائتين، الأولى: ﴿يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ﴾ في مخاطبة المؤمنين و ﴿يَضْمُنْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ في مخاطبة المؤمنات. والثانية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ في نهى المؤمنات عن الضرب بالأرجل والكناية الأولى تشير إلى المعنى

(١) نفسه: ١ / ٤٧١.

(٢) سورة النور، الأيتان: ٣٠ - ٣١.

المكنى عنه عن طريق حركة في العين هي غضها. والغض "التقصان من الطرف" (١) وهي حركة يُراد منها ملزومها وهو (العفة) عن النظر في المحارم. ففي الكناية أدب أخلاقي ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام، كما أن فيها إغلاقاً للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية (٢). لذلك تقدمت الكناية (غض البصر) على حفظ الفروج لأن "النظر يريد الزنا ورائد الفجور، وهو مقدمة في الوقوع في الخطر" (٣). وأن حفظ الفروج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر (العفة)، ومن ثم يجمع بينهما في سياق واحد، بوصفهما سبباً ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع (٤).

ثم تتكرر خطاباً للمؤمنات يأمرهن بغض أبصارهن كما أمر الرجال فلا يرسلن بنظراتهن الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال (٥)، وبذلك يتحقق التوازن في الاستجابة والطاعة من المؤمنين المخاطبين جميعاً فتشيع العفة والطمهارة في المجتمع التي تعمل على عدم تلوثه بالانفعالات الشهوية وعدم ارتكاسه إلى النرك الحيواني الهابط.

ثم تأتي الكناية الحركية الثانية تنهي المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، ويهيج الشهوات الكامنة زيادة في الوقاية والحذر مما يكون سبباً في الوقوع في الفاحشة ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ فالمكنى عنه هو رغبة النساء في اظهار زينتهن جاء في تفسيرها: "أي لا يضربن بأرجلهن الأرض لنلا يسمع الرجال صوت الخخال فيطمع الذي في قلبه مرض، قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالاناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فهي الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان" (٦).

وبذلك تتجلى عناية القرآن الكريم بالمجتمع وحفظه، وذلك من خلال توضيق فرص الغواية والفتنة، وسد الطريق أمام الأسباب التي تؤدي إلى الفاحشة من نظرة أو حركة مقصودة تثير في النفس الشهوة وتزرع في القلب الفتنة. وبذلك تُصان الأعراض

(١) المفردات، ص ٥٤٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٣) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٩٤.

(٦) صفوة التفسير: ٢ / ٣٣٦-٣٣٧.

والمجتمعات من الجرائم والفواحش، ويشيع الأمن والطمأنينة في المجتمع وفي القلوب والنفوس.

### مد العين :

يدعو القرآن بالأسلوب الكنائي إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية، وإلى الصلة بالله والرضى به، كي تحسن النفس بالاستعلاء على زخارف الدنيا الفانية وهي تبهير الأنظار وتجذب النفوس إليها. نلاحظ ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْهُ بِهِمْ أَنْزَلْنَا لَهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ عَمْرًا وَقَبْلًا ۗ ﴾ (١)

الكناية التصويرية ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ فالعين لا تمتد، إنما يمتد النظر، ولكن الكناية تصور المعنى فتجعل العين ذاتها ممتدة إلى المنظور إليه بهذا الاسناد المجازي التصويري، أي إسناد الفعل ﴿ تَمُدَّنَّ ﴾ إلى العيتين فتشير الكناية إلى المعنى المكنى عنه وهو استحسان المنظور إليه والإعجاب به، وتأثيره في النفس يكاد النظر معه لا يرتد. قال الزمخشري: " ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي نظر عيتك، ومد النظر: تطويله، وأن لا يكاد يردّه، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به، وتمنياً أن يكون له.. ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركز في الطباع وأن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملا منه عينيه: قيل ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له وضار به.. ﴿ أَنْزَلْنَا لَهُمْ ﴾ اصنافاً من الكفرة " (٢).

ثم تأتي الاستعارة التصريحية لتجسد ذلك الشيء الذي تمتد إليه العين تجسده غاية في الزينة والبهجة ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فاستعمل الزهرة وهي جذابة بألوانها وتناسقها لزخرف الدنيا وزينتها، وذلك ليكون المعنى مصوراً غاية في الفطنة والتأثير.

ورغم جمال الصورة التي أخرجتها الاستعارة والذي تمتد إليه العين - كما أشارت الكناية استحساناً وإعجاباً - فإنه جمال مناع زائل سريع، كما لمحت الاستعارة إلى ذلك لأن الزهرة رغم جمالها وتأثيرها في النفس سرعان ما تذبل وتزول.. وفوق ذلك فهو للفطنة ﴿ لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ ﴾ على خلاف ﴿ وَرِزْقَ رَبِّكَ عَمْرًا وَقَبْلًا ﴾ فهو رزق للنعمة لا للفطنة، وهو طيب لأنه باق لا يبدع ولا يزول..

(١) سورة طه، الآية: ١٣١. وينظر: سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) الكشاف: ٧٧ / ٣.

والكناية - وإن كانت خطاباً للرسول - ﷺ فإذها تخاطب المؤمنين فلا تمتد أنظارهم ولا تنهاوى نفوسهم أمام زينة الحياة الدنيا وزخرفها، ولا تتخدع بما يتقلب فيه الكافرون من نعم الدنيا وزينتها كما تصور ذلك كناية (التقلب) في موضع آخر في قوله - تعالى - : ﴿لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (١) أي: " لا يخذعك تقلب الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب " (٢)

فالكناية ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيها تصوير حركة على نحو من الكثرة والمبالغة كما أفاد التشديد فيها فدشيز إلى المعنى المكاني عنه وهو فيض الذم والمكاسب التي فيها يتقلبون، فهم يتقلبون من لون من النعيم إلى آخره وكان هذا طابعهم ودينتهم على الحد الذي يغري المؤمن ويخدعه، فينهي القرآن عن عدم التأثر مما هم فيه لأنها نعم زائلة لا تمتد إلى القاعدة الأصلية (الإيمان)، فلا تلبث أن تزول - وإن أغرت وخذعت - قال الزمخشري: " لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أسقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره أقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد، بالتحارات النافعة والمكاسب المريحة، وكنت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقوة الأبد " (٣)

ومن وراء الكناية نلمح القيم الأصلية التي يحتكم إليها القرآن، القيم الباقية المتصلة بالله ﷻ قيماً لا تغترب بمظاهر الحياة الدنيا وزخرفها الزائلة والتي لا تعني شيئاً إذا ما كانت وسيلة للفساد والإفساد.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٦. وينظر: سورة غافر، الآية: ٤.

(٢) صفوة التفسير: ١ / ٢٥٣.

(٣) الكشاف: ٤ / ١١٧.

## التجافي عن المضاجع :

القيمة الأصيلة هي الاتصال بالله والخوف منه والرجاء فيه، فهي القيمة الباقية، والأمل الذي لا ينقطع، وهي الصورة الوضيئة التي يقدمها القرآن الكريم بالأسلوب الكنايي وصفاً لنماذج من المؤمنين في قوله - تعالى - : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١) .

الكناية: ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي: " تتدحى وتتباعد أطرافهم عن الأفرش ومواضع النوم، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة.. قال مجاهد: يعني بذلك قيام الليل " (٢) فهي تشير إلى كثرة العبادة والتبدل إلى الله ﷻ في ظاهرها، ولكنها تجسد تلك الحالة الخفية التي يستشعرها هؤلاء المؤمنون المذقون في معناها البعيد والتي تتمثل في شدة خوفهم من الله وعذابه، وشدة طمعهم ورجائهم في ثواب الله ومغفرته. وهم في خوفهم ورجائهم مخلصون لله بعيدون عن الرياء يدعون ربهم في الأوقات التي يعزُّ فيها الذنوب

لا يراهم فيها أحد من الناس، لذلك فالسياق يبررُ جزاءهم الذي أخفاه الله لهم عن جميع خلانقه، ولا يعلمه إلا هو مما تقرَّ به عيونهم التي لم تنم إلا قليلاً، فيتناسق الجزاء مع العمل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي: " لا تعلم النفوس أي نوع عظيم من الثواب أخفر الله لأولئك وأخفاه عن جميع خلانقه، لا يعلمه إلا هو مما تقرَّ به عيونهم، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمح وراءها، وعن النبي ﷺ يقول الله - تعالى -: ((اعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا أُذِّنُ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، بَلَّهَ مَا أَطْلَعْتَهُمْ عَلَيْهِ، اقْرَأُوا إِنَّ سَنْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)) (٣)

والكناية ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ تجسد حالتهم النفسية مطمئنة الراضية غالية الرضا (٤) والسرور بالجزاء فلا تطمح إلى غيره. وهي حالة نفسية تقابل حالتهم النفسية الخالفة من الله الراجية رحمته التي صورتها كناية التجافي عن المضاجع في حياتهم الدنيا.

(١) سورة السجدة، الآيةان: ١٦ - ١٧.

(٢) صفوة التفسير: ٥٠٤ / ٢.

(٣) الكشاف: ٤١٥ / ٣.

(٤) ينظر هذه الكناية في فصل: (الكناية النفسية) من: ص ١٤٠.

ومن خلال عرض الكنايات الخلقية يتبين وظيفة الكناية التعبيرية والتصويرية في أداء الأفكار والمعاني التي يهدف القرآن تثبيتها في ذهن المتلقي ونفسه، فالقرآن لا يعرض تلك المعاني والأفكار بتعابير ذهنية مجردة، وإنما يوظف الكناية بوصفها أسلوباً حيويًا مؤثرًا إذ يقوم بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تحدث الاستجابة الوجدانية المناسبة في القارئ أو السامع وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يهدف القرآن إلى تثبيتها في نفسه وقلبه أو تغيره منها.



## الفصل الخامس

### الكناية الساخرة



## الفصل الخامس

### الكناية الساخرة

السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر، ويدور في معناها، بل يؤدي معناها عدة ألفاظ أوضحها: التهكم والاستهزاء، ولا شك في أن السخرية أسلوب وسلاح عدائي، مهما كانت دوافعها، ومهما كان مقامها، ومهما صغرت درجاتها في العداء أو كبرت، ويتميز هذا الأسلوب من غيره من أساليب العداء بأنه مصوغ بروح الفكاهة وأسلوبها<sup>(١)</sup>.

وعلماء النفس حينما يبحثون في طبيعة السخرية فإنما يبحثونها كجزء من ظاهرة عامة في الطبيعة البشرية، فيقولون مثلاً: الأبتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا أن هي إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتصق في اللهو وترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتفيس عن الآمها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كذباً ما يتقل كاهلها<sup>(٢)</sup>، وبناءً على هذا يجمع علماء النفس هذه الأنواع وما يشابهها ويجعلونها ظاهرة واحدة، ويجعلون الضحك عنواناً لها، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع، وهو جزء أساس من هدف كل هذه الأنواع، وقد حذرت هذه الظاهرة اهتمام الفلاسفة والباحثين، فعنوا ببحثها ودرستها منذ أفلاطون وأرسطو حتى الباحثين المعاصرين<sup>(٣)</sup>. فهم يرون أن الضحك - الذي جعلوه عنواناً للظاهرة من حيث هي - ناشيء في الأصل عن الشعور بالانتصار في معركة جسمية بدائية<sup>(٤)</sup>، وحينما يقسم علماء النفس هذه الظاهرة إلى أكثر من نوع، فإن الشعور بالانتصار أو التفوق يلايس كل نوع، فيقولون: " الضحك نوعان: إيجابي وهو الضحك المنعش ينبعث عن شعور المرء بتفوقه على خصمه، عن

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣.

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم، ص ٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨. وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣-١٤.

(٤) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص ١٢٣.

شعور المرء بتفوقه على خصمه مسلمي وهو ضحك حزين متجههم، وهو المتولد عن الشعور بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعفه. أعني أنه ضحك الاحتقار والأزدراء<sup>(١)</sup>، وواضح أن النوع الثاني مقصود به (السخرية) لأن "ضحك الاحتقار والأزدراء" هو معنى السخرية. وكذلك يفعل الباحثون الذين يسمون هذه الظاهرة باعتبار مصدرها الانفعالي، فيرون أن نوع الفكاهة يخضع لنوع الانفعال الذي أثارها، ومن ذلك أن "انفعال الغضب يولد الفكاهات العدوانية والسخرية"<sup>(٢)</sup>. فالسخرية إذن نابعة من انفعال عدواني بين خصمين ولكن الخصم الأقوى والأقندر منهما هو الذي يستطيع أن يسخر من الآخر، وهذا أيضاً تأكيد لأن الضحك - عنوان السخرية - مظهر من مظاهر الانتصار والتفوق<sup>(٣)</sup>. فالسخرية في ضوء ذلك أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة، إلا أن هذا الأسلوب لا يتاح نفسياً ولا واقعياً إلا لمن كان بيده زمام الموقف والذي يشعر بأنه القوي القادر على الانتصار<sup>(٤)</sup>.

أما السخرية في القرآن الكريم فقد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تدفق وجمالية القرآن من حيث إنه كلام الله، لذلك لا يسوغون نسبة السخرية بمعناها المفهوم إلى الله ﷻ، لكن يجب القول: إن القرآن يصفته ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومنها (الكنائيات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الإسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقعها<sup>(٥)</sup>. وبذلك يقدم القرآن بصور السخرية من أعداء المسلمين حوافز معنوية وروحانية للمسلمين وهم يدافعون عن الإسلام متحمليين ضرورياً شتى من المشقة والبلاء والإيذاء، فضلاً عن ذلك أتخذ أعداء المسلمين من السخرية سلاحاً نفسياً مؤثراً يريدون به تحطيم عزم المسلمين والنيل من ثقتهم في أنفسهم بدينهم.. إلا أن القرآن يتصدى لهم

(١) م. ن. ص ١٢٣.  
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، ص ١٩١.  
(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٥.  
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٥.  
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٢-١١.

بسخرية أبلغ وقعاً، وأشدّ تحطيماً، وأنفذ سهماً<sup>(١)</sup>، كما سنلاحظ في صور الكنايات الساخرة التي تمثل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن.

على أنه ليس هناك ما يمنع من نسبة السخرية إلى الله سبحانه، يقول الزمخشري: " فإن قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب. فما معنى استهزائه بهم؟ قلت معناه إنزال الهوان والحقارة بهم، لأن المستهزئ عرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة.. وقد كثرت التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وإزدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساحرون ويضحك الصاحكون<sup>(٢)</sup>، ثم يقول عقب ذلك: " وفيه أن الله ﷻ هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه به في مقابلته، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم، انتقاماً للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله " <sup>(٣)</sup>

والسخرية في القرآن الكريم ليست مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن، وهي ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك، وإنما هي وسيلة لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية، أو من الناحية الاجتماعية، ومن ثم فإن القرآن الكريم لم يختار أسلوب السخرية من أعدائه ليكون مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير، وإنما اختاره لأهداف أبعد، وأغراض أعمق.. كما أن القرآن نقل أتباعه فيما يشبه الطفرة من السخرية البدائية أو القريبة من البداوة التي يحدسها علماء النفس في التهكم من العيوب الجسمية أو الفئات الشكلية والمادية إلى السخرية الحضارية المتطورة التي تخفي وراء مظهرها البسيط أغراضاً هادفة إلى نواح معينة تنحصر في الإصلاح ومحاربة الرذيلة، والدعوة إلى المثل العليا والمبادئ القومية والسلوك الصحيح، وبهذا يكون القرآن قد سما باتباعه من اتخاذ السخرية مجرد سلاح للتحطيم والهدم كما كانوا يالفون في الهجاء<sup>(٤)</sup> إلى جعلها وسيلة إصلاح وتهذيب.

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢) الكشاف: ١ / ١٨٦-١٨٧.

(٣) الكشاف: ١ / ١٨٧-١٨٨.

(٤) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٥-٢٦.

وكذلك حينما ننظر إلى الكنايات الساخرة في القرآن الكريم نجدها في طبيعتها سلاحاً يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين المتتوعي الألوان والوجوه.. وهي - في الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون العداء للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة وتفكير وتدبير، لذلك ميّزهم القرآن بتعابير كنادية ساخرة ذنال منهم نيلاً عظيماً بوصفهم خطراً يهدد المسلمين. وقد عرض القرآن الكريم طرفاً من خطرهم وسخريتهم، من ذلك - مثلاً - سخريتهم بالرسول ﷺ بكل ما تحمل هذه السخرية من تهكم لاذع واستهانة بشخصه ﷺ، كما يقول الزمخشري في تفسير قوله - تعالى - ﴿ وَقَالُوا مَا لَئِن آتَى الرَّسُولَ بِأَكْثَلِ الطَّعَامِ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (١) وفي هذا استهانة وتصغير، وتسميته بالرسول سخرية منه ووطنز (٢) كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول.. أي إن صح أنه رسول الله فما باله مثل حالنا يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد (٣).

وسنحاول في هذا الفصل عرض فكرة السخرية في حدود ما وردت في إطار الفن الكنائي بوصفه وسيلة حيوية في التعبير والتصوير تحقق أهدافها ومقاصدها التي يبتغيها القرآن.

### الوسم على الخراطوم :

وردت هذه الكناية التصويرية الساخرة وصفاً للوليد بن المغيرة المخزومي وهو من ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خطورة، وقد بلغ من السيادة والمجد في قومه مرتبة لم يبلغها شخص آخر، وكان له عشرة بنين، فكان يقول لهم وللحمته: من أسلم منكم منعته رقدني (٤) وقد شهد القرآن نفسه للوليد بعمق التفكير، وبعد التدبير، وشهد له بأهم مقومات القوة والسيادة في المجتمع حينذاك منها: كثرة الأموال، ووفرة البنين، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ ذَرَفَ وَمَنْ خَلَقَتْ وَحِيدًا \* وَجَعَلَتْ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا \* وَبَيْنَ شُهُودًا \* وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا \* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ \* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا \* فَأَرْوَاهُ صَعُودًا \* إِنَّهُ فَكَرَ وَفَدَّرَ \* فَعِيلٌ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ نَظَرَ ﴾

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧، وينظر: الإليتين: ٨ - ٩ - ٤ من السورة نفسها، مثلاً.

(٢) الطنن: السخرية. ينظر: لسان العرب: ٥ / ٣٦٩ (طنن).

(٣) الكشاف: ٣ / ٤٠٩.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٧٠. وتفسير الجلالين، ص ٧٥٢. وينظر: لباب الثقول في أسباب النزول، ص ٧٥٣.

﴿ ثُمَّ عَسَّ وَفَسَّرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا جِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ﴿ سَأَصْلِيهِ مَقَرٌ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ ﴿ لَا بُقَىٰ وَلَا نَذْرٌ ﴾ ﴿ تَوَامَةٌ لِّبَشَرٍ ﴾ (١)

وقد استخدم الوليد بن المغيرة سيادته ومجده وقوته وسلطانه في حربته للاسلام والمسلمين، لذلك فالقرآن يهاجمه مهاجمة عنيفة شديدة، تشوه كل مقومات مجده وسيادته، ثم تندب السخرية اللاذعة على شخصه، فهذا الشخص القوي المتسلط صاحب الامال والبنين والفكر والتقدير، الذي يملأ قلوب اتباعه إعجاباً وإكباراً بمظهره وجلاله، ثم سخ الكناية الساخرة هذا المظهر، لتصوير مكانه صورة ساخرة، تشوه منظره، وتثير الضحك والسخرية منه بما يشبه الرسم الكاريكاتيري (٢)، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَلَا تَطِغْ كُلَّ عِلَافِي مَهِينٍ ﴾ ﴿ هَمَّازٌ مَشَامٌ يَنْسِيهِ ﴾ ﴿ مَنَاجٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴾ ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ ﴾ ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ﴿ إِذَا تَنَافَعْنَا قَالَ لِكُلِّ أُسْتَوْبِرُ الْآوَّلِينَ ﴾ ﴿ سَيَسْتَعْمِلُ الْخَرطومِ ﴾ (٣)

الكناية التصويرية ﴿ سَيَسْتَعْمِلُ الْخَرطومِ ﴾ (٤) تُخرج لنا الوليد وقد تشوه منه أبرز موضع في أكرم عضو من الادمسان يشير الى العز والحمية، قال الزمخشري: " الوجه: أكرم موضع والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واستقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف، وحسى أنفه، وفلان شامخ العرنيين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين وإذالة، فكيف بها على أكرم موضع منه " (٥).

فالكناية تكثف دلالة السخرية، فضلاً عن الإذلال والإهانة، بعد أن نال من مقومات اختياله وفخره بالمال والبنين، ومكانته ونسبه، فقد تحول بالكناية الى صورة أشبه بحيوان ذي خرطوم قد وسم بعلامة بشعة منقرة تثير الضحك والسخرية منه.

والكناية توحى بنوعين من الإذلال والإهانة، أولها: الوسم فهو يو سم كما يو سم الحيوان والعبد، فهو عار لا يتمحي عنه، فهو ملازم له، والثاني: جعل أنفه خرطوماً

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ - ٢٩.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٣١.

(٣) سورة القلم، الآيات: ٦٠ - ١٦. حلاف: كثير الحلف بالباطل. همَّاز: عياب، أي مغتاب. مشاء بنميم: ساع بالكلام بين الناس على وجه الإقسام بينهم. عتل: غليظ جاف. رنيم: دعي في قریش. ينظر: تفسير الجلالين، ص ٧٥٢.

(٤) الخرطوم: الأنف. تفسير الجلالين، ص ٧٥٣.

(٥) الكشاف: ٤ / ٤٧٢. وينظر: التفسير الكبير: ٣٠ / ٨٦.



ولنسحبته بها إلى النار" (١) والنسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. ﴿تَأْسِئَ كَذِبًا حَاطِقًا﴾ وصفها بالكذب والخطأ على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، إذ ذكر الجزء (الناصية) وأريد الكل. فالكذب والخطأ في الحقيقة لصاحب الناصية وفيه من الحسن والجزالة والحيوية ما ليس في قولك: ناصية كاتب خاطيء. ﴿فَلْيَتَعَنَّ نَاصِيَةٌ﴾ والنادي: المجلس الذي ينتدي فيه الأوم، والمراد: أهل النادي (٢).

وفي الكناية: ﴿لَنْتَعَمَّ بِالْأَلْيَةِ﴾ تَبْلُغُ السَّخْرِيَّةَ مِنْ أَبِي جَهْلٍ سَبَلْعًا فِي الصُّورَةِ والمعنى، في الصورة نرى أبا جهل وقد قبض على ناصيته بقوة وشدة جذب، ثم يُجَرَّ ويُجذب بقوة وعنف، وهذه الصورة التي عليها أبو جهل تمثل صورة من العذاب لها وقعها وتأثيرها البالغ في مجتمع كالمجتمع العربي، إذ إن أي صورة من صور العذاب أو الهوان أخف وأيسر في وقعها من هذه الصورة التي رسمتها الكناية فتصويره مكثلاً بالأغلال، أو معذباً في جهنم، أو أي شيء من ذلك، لا يبلغ منه ولا يحط من منزلته في المجتمع ما يبلغه التصوير الكنتي هنا، وهو يتناول شخصاً يملأه الغرور، ويسيطر عليه الشعور بالعزة التي لا تُمس، والقوة التي لا تُقهر كأي جهل (٣).

أما المعنى المُكْتَنَى عتِه الذي تَشِيرُ إليه هذه الصورة الزرية فإنه يتمثل في غاية الإهانة والتحقير والسخرية من قوته وجبروته، فضلاً عن ذلته واستكانته واستسلامه. ولا يخفى ما في استخدام أسلوب المجاز المرسل المتصل بالكناية في موضعين من السياق: ﴿تَأْسِئَ كَذِبًا حَاطِقًا﴾ و ﴿فَلْيَتَعَنَّ نَاصِيَةٌ﴾ من زيادة المعنى قوة وتأكيداً، إذ إن إسناد الكذب والخطأ للناصية دون صاحبها يوحي على نحو من التوكيد بتكبره واختياله وعييه وضلاله، كما يوحي بقوة التهديد والوعيد وشدة العذاب الذي ينتظره، ولا يعصمه من هذا العذاب قوته التي يُفَاخِرُ بها ويكابر كما دلَّ المجاز المرسل الآخر ﴿فَلْيَتَعَنَّ نَاصِيَةٌ﴾ إذ ذكر المحل وأراد الذي يحل فيه، وهي القوة التي يركن إليها من أئمة الكفر والشرك من ملأه، وفي هذا المجاز إحياء بشدة القوة التي يركن إليها ويفاخر بها، ولكن فيه من جانب آخر إحياء بشدة عذابه وسوء مصيره، وقد صوّرت الكناية الساحرة جذباً منه.

(١) الكشاف: ٤ / ٦٢٠.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤ / ٦٢٠.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٠٨.

## ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ :

إذا كتبت الكناية السليقة سخرت من أبي جهل غيلة السخرية وتوعنته بأشد العذاب وأفظعه، فبذنا في هذه الكناية التي قيل أنها نزلت في أبي جهل أيضاً<sup>(\*)</sup>، تطلعتنا على العذاب المادي والمعنوي الذي ينتظره هناك في نار جهنم، العذاب المادي الشديد كما يصوره السيق، والعذاب المعنوي من تأديب وسخرية وتزئيل كما تصوره الكناية التي تشكلت في هذا السيق الشديد الإيحاء والتركيب في تصوير عذاب أبي جهل بنوعيه، نقرأ ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ خَذُوهُ وَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاكِهِ الْجَحِيمِ ﴾ ثم صُيِّبُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنَ عَذَابِ الْجَحِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ <sup>(١)</sup>﴾

فالشدة والعنف تتجلى من إيحاء الألفاظ التي تكون صورة العذاب، من ذلك لفظ ﴿ خَذُوهُ ﴾ فإنه يُوحى فوق أخذ الكافر إلى جهنم، فإن فيه تهويئاً من شأنه وذلك بسلب كل ارادة أو كيان معنوي منه، الكافر - كما يُوحى اللفظ - مجرد شيء ينقل من مكان إلى مكان، ثم كلمة ﴿ سَوَاكِهِ ﴾ بما تبرزه في النفس من تصور لوسط الجحيم أو قعره أو تظليه، ثم كلمة ﴿ صُيِّبُوا ﴾ وما فيها من سخرية وشدة بتصوير الصب فوق رأسه من العذاب كما يُصب الماء، ف ﴿ صُيِّبُوا ﴾ استعارة مكنية تصور شدة العذاب الأليم الذي هو فيه، حيث شبه العذاب بالبحيم الأليم الشديد الحرارة، ثم حذف المستعار منه ودل عليه رادفه الفعل ﴿ صُيِّبُوا ﴾ ، فالاستعارة تُوحى بلذع العذاب الشديد الأليم<sup>(٢)</sup>.

وفي ذلك مفارقة في تصور المقابلة بين صب الماء وصب العذاب، والحرف ﴿ مِنْ ﴾ الذي يُوحى بالتجرع البطيء للعذاب<sup>(٣)</sup>، ويتركز إيحاء شديد بالعذاب والإهانة باللفظ ﴿ فَاَعْتَلُوهُ ﴾ يقال: " عدله جره جراً عنيفاً وخذبه.. وقيل: العتل: أتم تأخذ بتأديب الرجل فتعدله أي تجره إليك ونذهب به إلى حبس أو بليّة.. ويقال: لا أعتل سلك شبراً أي لا أبرح مكاني، والعتلة: المترة الكبيرة تنقلع من الأرض، والعصا الضخمة من حديد لها رأس مُقْلَطَح تكون مع البناء يهدم بها الحيطان، والهراوة الغليظة"<sup>(٤)</sup>، فمادة اللفظ تدور حول الشدة والعنف، وتُوحى بصورة من العذاب مخيفة مفرعة يُؤخذ بها الكافر.

(\*) ينظر: لياب التقول في أسباب النزول ، ص ٦٥٩.

(١) سورة النخان ، الآيات: ٤٧ - ٤٩.

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ، ص ١١٦.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ٤٤١.

(٤) لسان العرب: ١١ / ٤٢٣ - ٤٢٤ (عتل).

وفوق هذا العذاب المقرح المخيف تأتي الكناية: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وفيها سخرية بالغة وتهوين من شأنه وتأييد وترذيل، قال الزمخشري: "على سبيل الهزؤ والتهمك بمن كان يتعزّز ويتكرم على قومه. وروي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جيلها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً" (١).  
والسخرية البالغة بأبي جهل تتكثف من بذية الكناية القادمة على عكس ما يؤلف استعمال الألفاظ فيها، وذلك بأن يستعمل اللفظ الدال على معنى على ضده ونقيضه، وقد ورد مثال هذا الاستعمال الكناني كثيراً في القرآن كما في قوله - تعالى -: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢) وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣) وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤) ومنه قوله - تعالى - على لسان الذين كفروا من قوم شعيب ﷺ: ﴿... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٥) ومن شأن هذا الأسلوب القرآني تحقيق دلالاته البلاغية المؤثرة في المتلقي، إذ إن التضاد الحاصل عن طريق العكس في الكلام يحقق إيصال معنى الآية على نحو أشد وقعاً، وأكثر إيغالاً في النفس المثقلة لما فيه من الإبدال التهامي والسخرية اللادعة، لأن "البشارة يصح التعبير بها في مواطن الخير والكرامة، لا في مظاهر الشدة والعتاء، وليس العذاب من مواطن الخير، حتى يبشّر به العاصي، ولكنه تعالى أطلقه عليه تجوزاً من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر للكناية والتشفي، أو السخرية والتهمك" (٦).

ودلالة السخرية في الكناية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تتصاعد أيضاً بالاستعارة السكنية ﴿ذُقْ﴾، فالنوق هو فعل الحاسة المعروفة، وتستعمل عادة فيما يؤكل من المطاعم والمشارب، ولكن القرآن يستعيره لغرض تقريب المعنى باليأسه ثوباً حسيماً في تذوق نار شديدة التوهج والانتقاد، وربما وظّف القرآن هذه الحاسة (النوق) من دون الحواس

- (١) الكشاف: ٤ / ٢٢٣.  
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٨.  
(٣) سورة التوبة، من الآية: ٣.  
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٤. وينظر: سورة التوبة، الآية: ٣٤. وسورة لقمان، الآية: ٧.  
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٨. وسورة الانشقاق، الآية: ٢٤.  
(٦) سورة هود، من الآية: ٨٧.  
(٦) مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد علي الصغير، ص ١٤٧.

الأخرى لأن حس الذائق لإدراك ما يتذوقه قوي<sup>(١)</sup>، فهي أشد الحواس وأقواها إدراكاً في تذوق الأشياء عند الإنسان والله أعلم.

ولما كانت نار جهنم ليس لها طعم ليتذوقه الكافر حينئذ تتجلى السخرية منه على نحو جلي، فالاستعارة فيها قائمة على تشبيه العذاب بشيء يُذاق ثم حذفه وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الفعل ﴿ذُق﴾ على سبيل الاستعارة المكنية وذلك ليعمق درجة الإحساس بالعذاب وألمه ومن ثم تأثيره في النفس.

ومن وراء هذا التركيب الكنائي الذي أشار إلى السخرية اللاذعة، فضلاً عن شدة العذاب وعنفه الذي يُلَاقيه عو الأسلام والمسلمين أبو جهل، فإن التركيب الكنائي أبعد مدى من فرد نزلت فيه الآية، فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول المفسرون وأهل الأصول<sup>(٢)</sup> فالصورة تدم دلالاتها فتشمل كل من يعادي الله ورسوله والمسلمين على مدار الزمان.

### الضرب على وجوه الكافرين وأدبارهم:

تصوّر هذه الكناية ما ينتظر الكافرين من عذاب عند موتهم، وهو نوع من العذاب تتكف فيه السخرية والإهانة والإذلال، نقرأ ذلك في قوله - تعالى - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾<sup>(٣)</sup> الكناية الساخرة هي: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، قال الزمخشري: "وعن مجاهد: وأدبارهم: أستاههم، ولكن الله كريم يكني، وإنما خصوهما بالضرب لأن الخزي والنكال في ضربيهما أشده"<sup>(٤)</sup>.

ومشهد ضرب الكافرين على وجوههم وأدبارهم من قبل الملائكة الذين يتوفونهم كما تصوّره الكناية مشهد يصوّر نوعاً من العذاب المهين، لذلك فالآية تُلَفت انتباه المتلقي إلى أن يتصوّره ويتأمله ويدل على ذلك استهلال الآية بالأسلوب الخبري اللافت للنظر: ﴿

(١) ينظر: كتاب الصناعتين، ص ٢٧٥.

(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، للطوسي: ٣ / ٩٣. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣٢. والاتقان في علوم القرآن: ١ / ١١٠. انظر: منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) سورة الأنفل، الآية: ٥٠. ينظر: سورة محمد، الآية: ٢٧.

(٤) الكشاف: ٢ / ١٧٩.

وَلَوْ تَرَىٰ.. ﴿١﴾ فهو توجيه خطاب لكل من يرى هذا المشهد البارز وكأنه حالة دائمة كلما توفت الملائكة الكافرين، وهو مشهد مروع يدل على ذلك حذف جواب (لو) وتقديره: " لرأيت أمراً فظيماً منكراً " (١)، حيث يترك لخيال المتلقي أن يتخيله فتذهب نفسه كل مذهب في تصور، ثم يتحول الأسلوب في الآية على سبيل (الالتفات) من الغيبة في الإخبار عن الكافرين إلى خطابهم في أسلوب إنشائي في ختامها: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ليرد المشهد حاضراً مؤثراً في النفوس، فضلاً عن تصعيد دلالة السخرية في الكناية بالاستعارة المكنية ﴿وَذُوقُوا﴾ أي " ذوقوا عذاب الحريق أي مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به " (٢)، فالاستعارة الحسية تعمق تمثيلهم للعذاب، فضلاً عن إردافها هذا النوع من العذاب بالسخرية والتهكم بهم.

ودلالة الكناية فيما هو ظاهر لا تهدف إلى بيان شدة العذاب البدني الذي يلاقيه الكافرون عند الموت فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى التمهيد لعذاب أشد في الآخرة مجسّد في تصوير حسّي حي يشي بالسخرية ذلك أنه اختير مكانان للعذاب عليهما، وهما الوجه الذي يعد الضرب عليه من أفسى وسائل الإهانة والإذلال، والذبر الذي لا يلجأ إلى الضرب عليه إلا في الحالات النادرة وفي أقصى حالات الهوان والاحتقار، فهذا المعنى المتمثل في تحقير الكافرين والسخرية منهم هو الهدف البارز الذي تؤديه الكناية في الآية (٣) وهو المعنى الذي يتعمق باستعارة الذوق، وكان عذاب السخرية والإهانة بالضرب على الوجوه والأدبار هو تمهيد لعذابهم بالنار.

### تولية الأدبار:

ويسخر القرآن بهذه الكناية في مواضع كثيرة من الكافرين كلما واجهوا المؤمنين في أرض المعركة. ففي كناية " تولية الأدبار " سخرية بالغة من الكافرين وتحقير لهم، فضلاً عن تصوير خوفهم وذعرهم وهزيمتهم النفسية بحركة تولية الأدبار المادية المشاهدة كلما التقوا

(١) نفسه: ٢ / ١٧٤.

(٢) نفسه: ٢ / ١٧٤.

(٣) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٣٧.

بالمؤمنين. وهذه سنة الله لا تتغير ولا تتبدل كما يُخبرنا القرآن بذلك: ﴿وَلَوْ تَسَوَّغَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِوَلُوا الْأَدْبَارَ لَمَا يَجِدُوكُمْ وَإِنَّا وَلاَ نُنصِرُكُمْ﴾ ﴿سُحَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدَحَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَكَانَ يُعْدِلُ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (١)  
الكناية: ﴿لَوْ لَوْا الْأَدْبَارَ﴾: والدُّبْرُ: "نقيض القَبْلِ، ودُبْرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُهُ ومؤخره والادبار لغوات الحوافر والظَّلِّ والمَخْلَبِ؛ ما يجمع الأست والحياء، والحياء من كل ذلك وحده دُبْرٌ" (٢)، فالادبار كناية عن (الاستاء) (٣)، فهي تشير إلى معنيين هما:  
١ - الهزيمة والفرار من مواجهة المؤمنين.

٢ - السخرية اللاذعة منهم بالكشاف ادبارهم للمؤمنين.

وفضلاً عن ذلك فإن الكناية تقر هذه الحقيقة الكبيرة، حقيقة نصر المؤمنين المخلصين على أعدائهم الكافرين حيثما التقوا، وإن أبدى الكافرون شدة و ضراوة في بعض المعارك، إلا أن مصيرهم التخاذل والهزيمة والانتكاس بالمعنى الذي يلازم الصفات المذكورة، فضلاً عن أنه يفضحهم ويسخر منهم كما صورته الكناية.

وما ذلك إلا لأن الكافرين محجوبون لا يفقهون ولا يعلمون، قلوبهم خلوية لا تستمد القوة من مصدر القوة الحقيقية التي يعتمد عليها المؤمنون ويتطلعون، وقد صورت الكناية نفسها حقيقة الكافرين هذه في موضع آخر في قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُوا وَلَوْ عَلِمَ آدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤)

﴿لَوْ لَوْا عَلَى آدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ كناية عن فرارهم وهزيمتهم، وهم لا يقرون من عدو يطاردهم في أرض المعركة، وإنما هي الهزيمة الروحية والنفسية من استماع آيات القرآن التي تدعوهم إلى التوحيد والهدى والحقيقة التي هم عنها غافلون، لذلك يسخر منهم بهذه الكناية من حبههم واعتزازهم بآلتهم المزعومة التي بها يشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا على أدبارهم نفوراً (٥) كاشفين عن أدبارهم التي تفضحهم وتثير السخرية منهم.

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٢ - ٢٣، وينظر: السور الآتية: آل عمران، الآية: ١١١، المائدة، الآية: ٢١، والأحزاب، الآية: ١٥، والقمر، الآية: ٤٥، والحشر، الآية: ١٣.

(٢) لسان العرب: ٤ / ٢٦٨ (دبر).

(٣) ينظر: الكشاف: ٢ / ١٧٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٦. وينظر في هذه الكناية: الادبار عن آيات القرآن السور الآتية: النمل، الآية: ٨٠، والروم، الآية: ٥٢، ومحمد، الآية: ٢٥، والمعارج، الآية: ١٧، والمنثر، الآية: ٢٣، والنازعات، الآية: ٢٢.

(٥) ينظر: الكشاف: ٢ / ٥٢٣.

## خَرْقُ الْأَرْضِ وَبِلْوَعُ الْجِبَالِ طَوْلًا:

ترد هذه الكناية الساخرة لتَصَوِّرَ تلك المشية الخاصة التي يصطنعها بعض الناس والتي تُعد مظهرًا من مظاهر الانفصال النفسي في المجتمع، والكناية تطبع هذه المشية بطابع التكلف والتصنع وتنبئ عن ترفع صاحبها عن عامة الناس زهواً وخيلاء، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكُن تَبْلَعُ الْجِبَالَ طَوْلًا﴾ (١).

فالسخرية والتهكم بمن اعتاد هذه المشية تتجلى من هذا التعبير الكنائي، والمرح: شدة فرح ونشاط (٢) ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لَن تجعل فيها خرقاً بدوسك لها وشدة وطانك ﴿وَكُن تَبْلَعُ الْجِبَالَ طَوْلًا﴾ بتناولك، وهو تهكم بالمختال " (٣).

والسخرية والتهكم تَدُضِحُ في هذه الصورة الكنادية الساخرة من خلال ضعف هذا الإنسان الموصوف بهذه المشية التي ترسمها له كأنه يخرق الأرض بدكه إياها، وكأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفع هامته إلى السماء، وليس أحد يظن أن هذا المتعالي المترفع أنه سيخرق الأرض بمشيته، ولا أن يبلغ الجبال بطوله، ولكنها الكناية التصويرية التي تَقْرِنُ هذه المشية بهذه الصورة الشديدة السخرية، سواء في نفس من يريد أن يمشيها، أو في نفس من ينظر إليه (٤). وبهذا التصوير الساخر المؤثر يحدق القرآن هدفه في النهي عن هذه المشية التي تخالف مبادئ الإسلام بقدر لا يحقّقه النهي المجرد الأضعف الأثر في الحس والوجدان، فالتنهي بالكناية يظل عالماً في الذهن والنفس بما يتلبسه من مظاهر مادية في صورته المتهممة المثيرة للضحك والتحقير من كل من تراوده نفسه أن يصطنع هذه المشية وينكلفها.

ولا يخفى ما في الكناية من إحياء يدعو إليه القرآن بها يتمثل هذا الإحياء بالتعاطف النفسي بين أفراد المجتمع جميعاً، حيث يجعلهم يقفون على قدم متساوية، وصف متكفي، لا يترفع بعضهم على بعض وذلك من خلال سخرية القرآن سخرية شديدة من كل وضع يخالف مبادئ الإسلام كهذه المشية التي حاربها بالكناية الساخرة.

(١) سورة الإسراء ، الآية: ٣٧.

(٢) أساس البلاغة ، ص ٤٤ (مرح).

(٣) الكشف: ٥٢٢ / ٢.

(٤) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٨١.

## الصدف عن آيات الله :

ويُسخر القرآن بالتصوير الكناهي من المكذبين بآيات الله المتكبرين عنها سخرية بالغة، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِقُونَ ﴾ (١)

الكناية الساخرة ﴿ يَصْدِقُونَ ﴾ قائمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث سببه المتكبر عن آيات الله المعرض عنها ببعير مصاب بداء الصدق، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الصدق، وفي هذا التصوير الاستعاري يرتسم الذي يصدق عن آيات الله بصورة البعير الذي يعميل في مشيته، جاء في أساس البلاغة: " صدف عن الشيء صدوقاً: أعرض عنه من الكناية: رجل صنوف: أبخر لأنه كلما حدث صدف بوجهه لنلا يوجد بخره " (٢)، وقال الراغب: " صدف عنه: كصدف الجبل أي جانبه " (٣). والإعراض الشديد ملحوظ في الصدق، لأن المكذب بآيات الله المعرض عنها قد عرف صحة الآيات وصدقها ثم صدف عنها، قال الزمخشري: " ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ بعدما عرف صحتها وصدقها، أو تمكن من معرفة ذلك ﴿ وَصَدَّقَ عَنْهَا ﴾ الناس فضل وأضل ﴿ سَتَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُنُّهُمْ عَذَابًا قَوْفًا الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (٤)

ومن وراء هذه الصورة القائمة على الاستعارة بتواري خلف سجعها معنى مكنى عنه يثير السخرية من هذا المتكبر عن آيات الله المعرض عنها يتمثل في حيوانية هذا النمط من البشر في تلك الصورة التي أخرجتها الاستعارة وهي ميل البعير في مشيته المثيرة للضحك.

## شر الدواب :

(١) سورة الأنعام ٦ من الآية: ١٥٧.

(٢) مادة (صدق) ، ص ٢٥١.

(٣) المفردات ، ص ٤٠٨.

(٤) سورة النحل ، من الآية: ٨٨.

(٤) الكشاف: ٦ / ٦٤.

يتصل هذا التعبير الكنائي بالكناية السابقة من حيث المعنى المتمثل في حيوانية ذمط من البشر يعمل على إثارة سخرية المتلقي وإزدرائه، نلاحظ ذلك في قوله - تعالى - ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾<sup>(١)</sup> فهؤلاء الكافرين المصرون على الكفر وقد لجأوا فيه فلا يرجى منهم إيمان، هؤلاء شرٌّ من يدب على وجه الأرض.

إن ﴿ **شَرَّ الدَّوَابِّ** ﴾ كناية ساخرة عن حيوانية الكافرين على الرغم من أن لفظ ﴿ **الدَّوَابِّ** ﴾ يشمل كل ما دب على وجه الأرض<sup>(٢)</sup>، لكنه قد غلب على ما يركب من الدواب<sup>(٣)</sup> في عرف العامة، فإطلاقه في هذا السياق يلقى ظل البهيمية على الذين كفروا، فهم قد حرموا أنفسهم من الإيمان لأنهم عطلوا أجهزتهم التي وهبهم الله إياها، وهي وسائل الإدراك والتعقل كما وصفهم القرآني موضع آخر: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾<sup>(٤)</sup>. قال الزمخشري: " **﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾** أي أن شر من يدب على وجه الأرض. أو أن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها " <sup>(٥)</sup>. فالتعبير كناية عن بهيميتهم، بل هم شر من البهائم<sup>(٦)</sup> لأنهم مسلوبو العقل والوعي كما جسد التصوير الاستعاري ﴿ **الصُّمُّ الْبُكْمُ** ﴾ حالهم وحققتهم وهم ليسوا صمّاً وبكماً في الحقيقة، ولكنه التصوير المطابق لواقعهم وحالهم عند انتفاء كل تفكير أو وعي عندهم، فهم لا يسمعون سماع هدى وإيمان ولا ينطقون بالحق، كما يشير هذا التصوير إلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه فلا يرجى منهم إيمان ولا يتوقع.

ولا يخفى ما وراء الكناية ﴿ **شَرَّ الدَّوَابِّ** ﴾ التي أخرجتهم في صورة الحيوان من اثره للسخرية والضحك منهم وهم يدبون على الأرض.

لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون:

ويرسم القرآن صورة كاريكاتيرية كنادية تتضمن دلالة ساخرة من المنافقين تصور بحرکتهم المادية المضطربة حالتهم النفسية المذعورة الخائفة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٥. وينظر: الآية: ٢٢ من السورة نفسها.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١ / ٣٦٩ (دبب).

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٧٠ (المادة نفسها).

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٢.

(٥) الكشاف: ٣ / ١٦٣.

(٦) ينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: ١٧٩. والفرقان، الآية: ٤٤.

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِتِنكُرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿١٠٠﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا أَوْ  
مَعْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿١٠١﴾ (١)

الآية: ﴿ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ تعبير كناي  
يشير إلى الخوف الشديد الذي يميز المنافقين من غيرهم، فهمز يتطلعون دائماً إلى مكان  
يلتجئون إليه وذلك لشعورهم الدائم بالمطاردة لأنهم يخفون جريمة كبرى أجرمواها وهي  
(النفاق) فيدور في نفوسهم دائماً: عن ملجأ أو مغارة أو نفق، أو أي مكان يحتمون به  
ويستترون فيه (٢). قال الزمخشري: " ﴿ مَلْجَأًا ﴾ مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس  
جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿ أَوْ مَعْرَبَاتٍ ﴾ أو غيراناً أو ﴿ مَدْخَلًا ﴾ أو نفقاً يندسون فيه  
وينجحرون " (٣). فالخوف الشديد من طبيعتهم يسيطر عليهم سيطرة تفقدهم الأتزان،  
ويصور شدة خوفهم الخاص بهم، ويعمقه الاستعارة المكنية ﴿ يَجْمَحُونَ ﴾ حيث شبيههم في  
خوفهم الذي يدفعهم إلى الهروب بالفرس الجموح ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى  
شئناً من لوازمه عليه وهو (الجموح) على سبيل الاستعارة المكنية، قال الزمخشري: " ﴿  
يَجْمَحُونَ ﴾ يسرعون إسراعاً لا يرُدُّهم شيء، من الفرس الجموح، وهو الذي إذا حمل لم  
يردُّه اللجام " (٤). ففي الاستعارة تصوير لتلك الاحالة النفسية المزعورة الخائفة التي تحس  
بالمطاردة تملك عليهم كل حواسهم فيسرعون إسراعاً إلى مذبأ يحتمون به من حصن أو  
مغارة أو نفق.. فهم يتسابقون لا إلى خير أو طاعة، وإنما يتسابقون من فزعهم الداخلي  
ورعبهم لالتماس المهرب والاختفاء.

ولا يخفي ما في هذا التصوير في الآية من سخرية بالغة وهي ترصد حركاتهم  
المادة (الجموح) تجسداً لما يعتري المنافقين من الخوف الشديد بوصفه طبيعة نابعة من  
دخيلة نفوسهم فهي ملازمة لهم.

## دوران العين:

تختص هذه الكناية الساخرة بتصوير الحالة النفسية للمنافقين، كما اختصت بهم  
الكناية السابقة، إلا أننا نلاحظ في هذه الكناية أثر الخوف والرعب أكثر بروزاً ووضوحاً وهو

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٥٦ - ٥٧.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٣٢٠.

(٣) الكشف: ٢ / ٢٢٠.

(٤) نفسه: ٢ / ٢٢٠.

يرتسم بحركة دوران أعينهم، وذلك حينما يتعرّض المنافقون لموقف مخيف يضطرب له نفوسهم وقلوبهم خوفاً ورعباً. نقرأ هذه الكناية في قوله - تعالى: ﴿ قَدِيمًا اللَّهُ الْمَعْرِفِينَ يُنْكِرُ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ **أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِنَّا جَاءَ لَلنُّفُوفِ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِنَّا ذَهَبَ لَلنُّفُوفِ سَأْفُوكُمْ بِالسِّنِّ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَئِنْ بَرَأْتُمْوَا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١﴾**

﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ هذا التعبير القرآني يجسد حالة نفسية واضحة المعالم، تلك الحالة التي تعترى المنافقين عند الشعور بالخطر، حالة الخوف والرعب وهو يواجهون (القتال) ولكن القرآن يسميه (الخوف): ﴿ فَإِنَّا جَاءَ لَلنُّفُوفِ ﴾ وذلك لتصوير القتال في صورة الخوف الذي تكون منه حركة وسجيء، وفي ذلك يتجلى وقع القتال في النفوس المنافقة الفزعة الخاوية (٢) وتأثيره الذي يرتسم في أعينهم في صورة بارزة كما تصوّره الكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ المتواشجة مع التشبيه ﴿ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ في إخراج المعنى.

والكناية ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ متواشجة مع المجاز العقلي تصوّر أعينهم كلها تدور، والحقيقة: تدور أحداقهم في أعينهم باسناد الفعل ﴿ تَدُورُ ﴾ إلى المكان ﴿ أَعْيُنُهُمْ ﴾ ولكن شدة الدوران وسرعة تقلبها خيل أن العيون كلها تدور، فليس الدوران دوران المحاجر والأحداق، ولكنه دوران العيون حتى الجفون والأهداب، وفي كل ذلك تصوير لقوة أعينهم الدائبة (٣) وبذلك تشير هذه الصورة الكنازية بقوتها التعبيرية المحسوسة إلى مقدار صفة خوفهم ورعبهم، فضلاً عن ضعفهم وتخاذلهم وفتورهم، وهي المعاني التي تصوّر ها المشبه به ﴿ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ فهي سظهر الموت والاستسلام. فالصورة التشبيهية ترسم عيني المنافق حيث يشعر بالخطر على حياته، بأنهما أشبه بعيني شخص يغشاه الموت فتشل منه كل حركة، ويسكن منه كل عضو، إلا عينيه فجئها يدوران، دوران الأضعف والاستكانة والرعب والفزع، ومشاعر وانفعالات كثيرة تُوحى بها الصورة التشبيهية، حين تصوّر حالة شخص يعاني سكرات الموت، ولكن البارز في نظرة المنافقين هو تعلقها بشخص الرسول

(١) سورة الأحزاب، الآيةان: ١٨ - ١٩. وينظر: سورة محمد، الآية: ٢٠.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، د. محمد أبو موسى، ص ٧٨.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٧٩.

﴿ كَانَهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِ مُسْتَغِيثِينَ مِنْ سَخِرَ بِهِنَّ مِنْ شِدَّةِ مَا يَرَاوُدُهُمْ مِنْ فِرَاقِ ﴾<sup>(١)</sup> فهو الصراع النفسي الرهيب في نفس المنافق بين حرصه على اظهار غير حقيقته، وحرصه على حياته يكشفها القرآن ويجليها من خلال عيني المنافق التي منهما يطل كل ما يدور في نفسه من انفعالات ومشاعر.

ولا شك في أن الصورة الكنازية فضلاً عن الصورة التشبيهية اللاتين جسدتنا ذلك المشاعر النفسية والانفعالات تثير السخرية من المنافقين بوصفها هدفاً من أهداف هذا التعبير التصويري الهادف إلى ردع النفوس عن هذا التصرف بهذه الصيغة المحسوسة التي يمكن أن يتابعها الخيال يتملاً ها، وتتصاعد دلالة السخرية منهم عندما ينقلب خوفهم إلى خلافه حينما يحسبون بالأمن ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ لَظْفُوكُمْ بِالسِّنِّهِمْ إِذَا هُمْ فِي حَالَتَيْنِ مَتَدَابِحَتَيْنِ أَشَدَّ التَّبَايُنِ ﴾ فبعد ذلك الخوف والفرح والموت والاستسلام إذا هم حين مجيء الأمن يتسلطون على المؤمنين إيذاءاً بالسنتهم سناً وشنماً بالصورة التي تعبر عنها الاستعارة ﴿ سَلْفُوكُمْ ﴾ ، والسلق: " الضرب. وملكه بالسوط وملكه أي نزع جلده.. وملك الشيء بالأماء الحار يسلقه سلقاً: ضربه. وملك البيض والبقل وغيره بالنار: أغلاه.. ويقال: سلق اللحم عن العظم إذا أنتجته عنه " <sup>(٢)</sup> فاستعير السلق في الآية للإيذاء والعيب والإهانة بالقول، فشبه الإيذاء والعيب بالسلق. يجمع قوة التأثير والإيذاء، وفي ضوء ذلك يكون وصف الألسنة بالحداد من قبيل الترشيح لاستعارة السلق <sup>(٣)</sup> فتجلى الاستعارة شدة إيذائهم للمؤمنين بعد ذهاب الخوف، وارتفاع أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفاخ أوداجهم بالعظمة، وانتفاشهم بعد انزوانهم، وادعائهم في غير حياة ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة، والاستبسال <sup>(٤)</sup> بعد ذلك الخوف والموت والاستسلام المثير للسخرية منهم حين تصور هذه المفارقة الضاحكة.

## الخوالف:

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١١١، ٣٢٢، ٣٩١. وينظر: الكشف: ٤١٩ / ٣.  
(٢) لسان العرب: ١٠ / ١٦٠ وما بعدها (سلق).  
(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٨٠.  
(٤) في ظلال القرآن: ٦ / ٥٥٧.

تستهدف هذه الكناية الساخرة المنافقين أيضاً فنثير الضحك والسخرية منهم، وتجسد حالتهم النفسية المستكينة الخادفة من القتال والتي تجعلهم يخلقون المعاذير ليتخفوا عن مشاركة الرسول ﷺ والمسلمين في الجهاد، فتتكشف دخيلتهم في ضوء النهار في صورة بالغة السخرية، وذلك في قوله - تعالى - ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْبِلُوكَ وَهُمْ**

**أَعْيُنَاءٌ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (١) قال الزمخشري: " فإن قلت: ﴿ **رَضُوا** ﴾ ما موقعه ؟ قلت: هو استئناف كأنه قيل: ما بالهم استأنفوا وهم أعنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والاضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾ يعني أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم " (٢) "

والكناية الساخرة تتمثل في قوله - تعالى - ﴿ **رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ** ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة التصريحية حيث عني بالخوالف وهي - الأعمدة التي تكون في أواخر بيوت الحي - النساء، فشيبهن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت (٣) وفي ذلك توبيخ للمنافقين وتقرير، فقد اختاروا بأن يكونوا مع النساء ومع المرضى والعجزة المتخلفين عن الجهاد بعذر، فمن ضعفهم واستكانتهم يحتمون بالنساء الخوالف مؤثرين الراحة والدعة على المشقة والجهاد، والاستعارة ليست غاية بذاتها وإنما هي وسيلة فاعلة في تقريب صورة الكناية وإبراز دلالتها الساخرة في الكشف عن جبنهم وخوفهم من القتال الذي يدفعهم إلى الاحتماء والاستتار خلف النساء والمرضى والعجزة، وبذلك تتجلى السخرية منهم، لأن تصور المنافقين وهم يحتمون بهؤلاء هو تصور طريف يثير السخرية منهم.

### أكل الطعام :

يسخر القرآن من الذين يعدقون ألوهية المسيح ﷺ بكناية ساخرة مهذبة سامية تتجافى عما تنفر منه النفوس، والتسامي في التعبير هو أحد خصائص الكناية القرآنية حيث تتجنب دائماً زبوا الألفاظ، وقبح المعنى فتسمو باللفظ والمعنى وتحقق هدفها في صورة

(١) سورة التوبة ، الآية: ٩٣. وينظر: الآية ٨٧ من السورة نفسها.

(٢) الكشاف: ٢ / ٢٣٦.

(٣) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص ١٤٨. وينظر: صفوة التفاسير: ١ / ٥٥٦.

مؤثرة، نلاحظ ذلك في قوله - تعالى - : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ  
الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظَرَكُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ  
أَنْ يُؤْفَكُونَ ﴾ (١)

الكناية الساخرة ﴿ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ وهي كناية سامية تترفع عن التصريح  
(٢) عن المعنى المقصود، فترسم بظاهاها المسيح وأمه - عليهما السلام - وهما يأكلان  
الطعام بوصفه حاجة ضرورية للبشر. فالمسيح وأمه لا علاقة لهما بالالوهية قط، وأنهما من  
البشر، يجري عليهما، ويصدر منهما سائر ما يجري وما يصدر من البشر، وبخاصة في  
أشد الأمور التي لا يمكن تصورهما مع الالوهية - كما أوحى الكناية في لازم معناها  
المقصود وهو ((قضاء الحاجة)) (٣) كالبول والغائط وسائر السلوك والغرائز البشرية التي  
كنى عنها بـ ﴿ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ ترفعاً ودينامياً يسخرية القرآن أن تنزل إلى مستوى  
سخرية البشر، فالقرآن يرمز لذلك بشيء واحد ﴿ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ لأن أكل  
الطعام يتبعه أشياء كثيرة، يتسامى القرآن عن ذكرها، ويكتفي الإشارة إليها (٤) فالقرآن  
يسمو في لفظه ومعناه عما تجفوه النفوس، ولو جاءت الآية الكريمة مصرحة بالتعبير عن  
قضاء الحاجة لتولد في نفس المتلقي انفعال منفرد ومفرد، للانطباعات المركزة في ذهنه  
عنها، إذ منتقله إلى تلك الصورة التي اختزنها في مخيلته عنها (٥) في حين إن الكناية في  
دلالاتها الإيحائية، فضلاً عما ولدته من انفعال إيجابي محيٍب في المتلقي وملائم لتقبل  
الصورة (٦) فإنها ركزت على " المضمون وعلى الهدف، والتركيز على المضمون هنا  
واضح رغم بساطة التعبير في ظاهره، لأن القضية هي ادعاء بعض الناس نسبة المسيح  
إلى الالوهية، وغاية السخرية ممن يدعون ذلك ويعتقدونه، أن يقال لهم تصوّروا أن الهأ يأكل  
الطعام، ثم يأتي الغائط، وسائر ما يأتيه الناس، ومجرد رسم هذه الصورة في مقام ادعاء  
الالوهية بالغ الرد والتهم بقائلي هذا القول والهدف واضح، وهو ردهم إلى المنطق السليم

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٣٣.

(٣) ينظر: المنتخب من كليات الأدباء وأشعار البلغاء، ص ٦. والعمدة: ١ / ٢٦٨. وينظر: الإحسان  
في علوم القرآن: ٣ / ١٤٤.

(٤) ينظر: الكشاف: ١ / ٥١٧-٥١٨. ومن بلاغة القرآن، ص ٢٢٧.

(٥) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٣. وينظر: التعبير الفني في القرآن، ص ٢٠٢.

والتفكير القويم " (١) ويتجلى الهدف في التعليق على الصورة: ﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ بَيَّنَّتْ لَهُمُ  
الآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّ يُؤْمَكُونَ ﴾ .

ففي الكناية تحشد تلك المعاني والإيحاءات على بساطتها وإيجازها في تنفيذ اعتقادهم  
الفاقد في صورة تثيير السخرية منهم والضحك.

### الأخذ بالنواصي:

وفي سياق قصة عاد قوم هود عليه السلام يقدم القرآن كناية تصويرية تسخر من عاد  
الجبارين الظالمين، وذلك في قوله - تعالى - على لسان نبيهم مخاطباً لهم: ﴿ إِنِّي قَوْلْتُ عَلَى اللَّهِ  
رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَآ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢)

جاء في تفسير هذه الآية: " ولما ذكر توكّله على الله وثقته بحفظه، وكلاءته من  
كيدهم، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم، من كون كل دابة  
في قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بناصيتها، تمثيل لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ ﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده  
سعتصم به " (٣)

الكناية قوله تعالى: ﴿ مَآ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ وهي صورة حسية تُوحي  
بمعناها المكنى عنه المتمثل في قدرة الله العظيمة التي تقهر كل شيء، فهو في قبضتها  
سقهوراً، وسلطانه الشامل في ملكه لا يند عنه شيء، كما تُوحي الكناية بعدالة الله المطلقة  
في ملكه القائم على الحق.

إيحاء العدالة والحق في الكناية، فضلاً عن القدرة القاهرة التي تأخذ بناصية كل  
دابة - بما فيهم قوم عاد - تتجلى في صورة واضحة وعلى نحو حسي غليظ وهو ما يناسب  
السياق مع قوم عاد في غلظتهم وشدهم، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم كما أخبر عنهم  
القرآن: ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ  
هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَلُونَ ﴾ (٤)

(١) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ١٢٧.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٣) الكشاف: ٣ / ٣١٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ١٥.

كما أنّ لفظ دابة في الكناية - وإن كان يشكل كل ما يدب على وجه الأرض - إلا أنها في هذا السياق تلقي ظلها، ظل اليهيمة على قوم عاد، فهم كالبهائم بل أضلّ سبيلاً، فهم قد عطّلوا ما وهبهم الله من وسائل للهداية والإيمان من سمع وأبصار وأفئدة، كما أخبر عنهم القرآن في موضع آخر ﴿... وَحَمَلْنَا لَهُمُ مَنَعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغَفَىٰ عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَبْصَرَهُمْ وَلَا أَفْئِدَتَهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١)

ومن وراء هذه الصورة الكنائية التي تصوّر - من ضمن ما تصوّر - قوم عاد الغلاظ الشداد نواب من تلك الدواب المأخوذ كل منها بناصيتها فهي مقبورة مغلوبة، نلاحظ إحياء السخرية والتهمك بهم، تسخر منهم ومن قوتهم.. والكناية تسخر كذلك من كل متجذّر عابّ غليظ وهو مأخوذ بهذه الصورة القاهرة الساخرة. وهذه هي سنة الله في الكافرين الظالمين ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢)

وبذلك يتجلى من خلال الكنايات الساخرة التي عرضها الفصل أن الكناية الساخرة هي ليست مجرد أسلوب تعبيرى وتصويرى يبعث على الضحك أو مجرد تهجم أو هجاء أو تهوين شأن من الخصم فحسب، وإنما هي - أيضاً - وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية، سواء من الناحية النفسية أو من الناحية الاجتماعية.. وهي (الكناية الساخرة) في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين.. وهي - في الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون العداة للإسلام والمسلمين بكل ما أوتوا من قوة.. لذلك ميّزهم القرآن بتعابير كنائية ساخرة تنال منهم نبالاً مولماً، إذ قامت الكناية بوصفها أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً حيوياً بذصبيها الفني في أداء المعاني والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو أن تعابير حقيقية أخرى غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختارها القرآن.

(١) سورة الأحقاف، من الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، من الآية: ٥٦.



## الفصل السادس

### الكنائيات المعرفية



## الفصل السادس

### الكنائيات المعرفية

نقصد بالكنائية المعرفية تلك التراكيب الكنازية المتعلقة بالحواس من سماع وبصر وقواد، والتي بها يتم تحصيل العلم والمعرفة بوصفها أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ فيذماز الانسان بها من المخلوقات الأخرى.

وقد حث القرآن الكريم حثاً كبيراً على استخدام هذه الحواس بوصفها وسائل لتحصيل المعرفة في كثير من آياته الكريمة، وأعطى لهذه الحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال: النظر والتأمل والمعرفة والتجريب (١) فقال:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٢) بل القرآن يخطو خطوة أعمق في حث الناس على استخدام بصائرهم وهي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية، وبصرية، ولمسية، لا حصر لها، وذلك من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة تواميس الكون والخليقة (٣).

وتطالعنا في القرآن آيات كثيرة تحث على تحريك العقل الذي منحه الله لبني آدم (٤)، وآيات تدعو الانسان إلى التفكير العميق بكل ما يحيط به من موجودات (٥)، وما يُقال عن التفكير يمكن أن يُقال عن (التفقه) (٦) والتفقه: " خطوة (عقلية) أبعد مدى من التفكير، إذ هي الحصيلة التي تنتج عملية التفكير، وتجعل الانسان أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً

(١) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص ٧١. وينظر: نصوص قرآنية في النفس الانسانية، د. عز الدين اسماعيل، ص ١٥٢ وما بعدها. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة، ناجي حسين جودة، ص ٦٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٣٦.

(٣) ينظر: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٧٦. وينظر: السور الأدبية: الإبداع، الآية: ١٩٤، والقصاص، الآية: ٧٢، والذاريات، الآية: ٢١.

(٤) ينظر: السور الاحتمية: البقرة، الآية: ١٧١ و ٢٤٢، والحكيات، الآية: ٤٣.

(٥) ينظر: السور الاحتمية: البقرة، الآية: ٢٦٦، والأنعام، الآية: ٥٠، والروم، الآية: ٨٧.

(٦) ينظر: السور الاحتمية: النساء، الآية: ٧٨، وهود، الآية: ٩١، وظه، الآية: ٢٨.

لأبعاد وجوده وعلانته في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً، مستعداً للتجاوز المسؤول عن كل ما يعرض عليه من أسئلة وعلامات " (١)

والحواس بوصفها منافذ للتعقل والتفكير والتفقه ومن ثم المعرفة هي التي تعطي الانسان قيمته وتفردته، وتبؤنه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفة لله في الأرض (٢). وبالمقابل نعى القرآن على الذين لا يستخدمون حواسهم وعقولهم وبصائرهم، الذين ينساقون الانسياق الأعمى وراء أي شيء، لذلك كان القرآن المعجزة العقلية الكبرى، يقول السيوطي: "وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسبة.. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية.. لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية (القرآن) ليراها ذوو البصائر" (٣)

ومن ثم كانت للمعرفة مكانة عظيمة في الاسلام الذي يدعو الى التفكير لتحصيلها ومعانيها، ونعى على الذين لا يحاولون التفكير والتأمل ولا يستخدمون حواسهم وطاقتهم لما خلقت له فهي معطلة لا تؤدي وظيفتها المرجوة التي يهدف إليها القرآن بوصفها وسائل هادية إلى الإيمان، فإذا ما تعطلت تؤدي بالانسان إلى الضلال والكفر، فهم على هذه الحال بمنزلة البهائم والانعام بل أضل ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ كَذِبُونَ أَلَمْ نَكُنْ بِهَا أَولِيكَ كَالَّذِينَ بَلَّغْنَاكَ بِلِّغَتِكَ لِسَانَ قَوْلِهِمْ أَفَلَا تَفْقَهُونَ﴾ (٤)

وقد صور القرآن بالأسلوب الكناهي الموحى حال الذين عطّلوا حواسهم وعقولهم وبصائرهم من الكافرين والمنافقين والمشركين فهم يزرعون في ضلال وعمى وكنهم قد سلّبوا هذه الوسائل، ووسائل الإدراك والمعرفة، فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام (٥) وبذلك تجلي هذه الكنايات التصويرية عالم الكفر والاضلال أجلى بيان، وبالمقابل تجلي كنايات تصويرية أخرى عالم الإيمان والهدى، فيتقابل أمام الفكر والنفس عالمان

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص ٨٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) الاتقان في علوم القرآن: ٤ / ٣. وينظر: المعرفة الصوفية دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة - ص ٢٤ وما بعدها.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. وينظر: سورة الفرقان، الآية: ٤٤. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠. وسورة هود، الآية: ٢٠. وسورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٥) ينظر: سورة محمد، الآية: ١٢. وسورة المرسلات، الآية: ٤٦.

متناقضان في دلالاتهما في صورة بيانية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إحلوها.

وسنحاول توزيع هذه الكنايات كل على انفراد ثم نحاول بيان دلالاتها وإيحائها التي تهدف إليها.

### الأكنة والوقر والحجاب:

ترد هذه الكنايات الثلاث في سياق إعراض الكافرين وعلى لسانهم خطاباً منهم للرسول ﷺ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ (١).

نلاحظ في الآية الكريمة ثلاث كنايات وصفية متواشجة في إخراج المعنى المكنى عنه الذي يجلي العالم الداخلي والنفسي وللكافرين، ويكشف عن موقفهم وسفاهتهم إزاء ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ، فهم يصمون أنفسهم بقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ ﴾ و﴿ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ و﴿ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، بهذا الترتيب الذي يدل على تصميمهم على الكفر وإصرارهم عليه، إذ جعلوا قلوبهم في أكنة ابتداءً فغطوا عن الإدراك، وإذا ما تعطلت القلوب فمن البدهي، أن تكون الأذان معطلة عن السمع، فضلاً عن حاسة البصر التي دلت عليها الكناية ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ وبذلك يتجلى إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه.

والأكنة: الأغطية جمع كنان (٢) وهي كناية تصور المعنى المراد بأسلوب مجازي، فليس ثمة أغطية محسوسة على قلوبهم أو عقولهم، وكذلك الكناية ﴿ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ فليس ثمة في أذانهم على الحقيقة، والوقر: الثقل في السمع، يُقال: "بأذنه وقرٌ: ثقل، وأذن وقرّة وموقورة، وقد وقرت أذني، ووقرت عن استماع كلامه" (٣) فهو التصوير الذي يشع بدلالاته إذ يجعلنا نتخيل قلوبهم وهي مغلقة بأغطية محكمة لا ينفذ إليها شيء مما يقوله الرسول ﷺ ويدعوهم إليه، فيكون التصوير كناية عن نيو قلوبهم وإعراضهم عن تقبل الحق

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٢٥، وسور الإسراء، الآية: ٤٦، وسورة الكهف، الآية: ٥٧، في كناية الأكنة. وينظر: كناية (الوقر) سورة لقمان، الآية: ٧، وسورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) ينظر: لسان العرب: ١٣ / ٣٦١، (كنن)، وينظر: المفردات، ص ٦٦٤.

(٣) أساس البلاغة، ص ٥٠٦ (وقر).

الذي يدعوهم إليه، وإصرارهم على الكفر إصراراً كبيراً لا سبيل للإيمان إليه كما تُوحي الكناية به.

وفوق الأكنة التي غطت قلوبهم تغطية سائرة لها، في أذانهم صمم فهي لا تسمع ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ لا تسمع سماعاً يؤدي بهم إلى تفكير وتفقه ينتهي بهم إلى الهدى والإيمان، فضلاً عن ذلك فإن في هذه الكناية إيحاء السخرية منهم، وهو إيحاء يأتي من استعمالات الـ

المادة ﴿وَقْرٌ﴾، فالأصل في استعمالها في النواوب - بكسر الواو - ﴿وَقْرٌ﴾، ثم استعملت في ثقل السمع - بفتح الواو ﴿وَقْرٌ﴾ - والوقر: هو الحمل الذي يُحمل على الدابة، ويقال: أوقر البغل أو الحمار.. واستوقرت الأبل شحماً: أثقلها السممن.. ووقرت الدابة، ووقرت فهي موقورة ووقرة في حافرها هزيمة<sup>(١)</sup> فهو إيحاء مقصود يجري على ألسنتهم صفة لهم، فضلاً عن أنه يملأ نفس المتلقي سخرية منهم وازدراء.

تكتمل الصورة التي تبين حالهم بالكناية الثلاثة التي يدمغون بها أنفسهم بالعمى فأعينهم لا ترى، فبينهم وبين الداعي محمد ﷺ حجاب كثيف منع من الرؤية ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ قال الزمخشري: "كان بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه: حجاباً سائراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي"<sup>(٢)</sup> وهو حجاب كثيف كما أفاد الحرف (من): "فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فائدة؟ قلت: نعم، لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى: أن حجاباً حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها"<sup>(٣)</sup> فهم يسخرون من أنفسهم، إذ الكناية تجعلنا نتخيل فيها الكافرين وقد أقاموا بينهم وبين الرسول ﷺ الذي يدعوهم إلى سماع الخير ورؤيته حجاباً كثيفاً مانعاً خوفاً من أن يصل كلامه إلى أذانهم وقلوبهم.

وبذلك تتعطل لديهم وسائل المعرفة والعلم بهذه الحجب الثلاثة التي صورتها الكنايات: حجاب الأعطية التي تلف قلوبهم وتغطيها بإحكام، وحجاب الصمم في أسماعهم، وحجاب العمى في أبصارهم. وباجتماعها تتعمق دلالة المعنى المكنى عنه: عنادهم وتصميمهم

(١) أساس البلاغة، ص ٥٠٦ (وقر). وينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(٢) الكشاف: ٤ / ٢٤٤.

(٣) ج. ن: ٤ / ١٤٤-١٤٥.

على الكفر وإصرارهم عليه، ويتصاعد هذا المعنى تمكناً من قلوبهم بما انتهت به الآية الكريمة

﴿ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴾ فهو الإصرار على ما هم عليه من كفر وعناد، أي: " اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، واستمر على دينك فإذنا مستمرين على ديننا " (١). فهو الإمعان في العناد يراد منه تئيس الرسول ﷺ من استجابتهم له ولما يدعوهم إليه. ولا يخفى ما في الآية من إحياء قوي دال على صبر الرسول ﷺ على ما كان يلقاه من معاناة وآلام وهو يدعو هذه النفوس الكافرة الكارهة للخير والهدى والإيمان. ولا يخفى أيضاً أثر هذه الصور الكنائية المتتابعة في نفس المتلقي من حيث ترسيخ المعاني والصفات بإكسابها ثوب الماديات المحسوسة، وكنائه وقف على القضية مشفوعة بدليلها، وعلى الدعوى في طبي برهاتها.

### غُلف:

تختص هذه الكناية التصويرية بوصف حال اليهود، وقد وردت في موطنين من القرآن - وعلى لسانهم - منهما قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَمَّ يَسْمَعُ اللَّهُ كُفْرَهُمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ كناية تصويرية تجسد فعل اليهود إزاء دعوة الرسول ﷺ بهذا القول الغليظ الذي يتجحون به.

وهذه الكناية قائمة في بنيتها على الاستعارة وفيها تشبيه قلوبهم بشيء مغلف ثم حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه (الغلاف) على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك لتعميق دلالة عدم استجابتهم، لأن قلوبهم لا تعي شيئاً فهي مغشاة بغلاف لا ينفذ إليها شيء فهي لا تعي الحق ولا تقبله. والاستعارة هنا ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة تعبير تقودنا إلى معنى مكنى عنه آخر يتوارى خلفها، ويتمثل هنا في عنادهم وإصرارهم على ما هم عليه من ضلال وكفر وتصميمهم عليه، فضلاً عن تئيس للرسول ﷺ من إيمانهم بما يدعوهم إليه.

وقد أورد الراغب لهذا التعبير الكنائي القائم على الاستعارة معاني أخرى، يتجلى فيها جانب من شخصية اليهود التي تمتاز بالتكبر والتجح والاستهزاء والتكذيب. قال

(١) صفوة التفسير: ٣ / ١١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٨، وينظر: سورة النساء، الآية: ١٥٥.

الراغب: "قيل: هو جمع أغلف كقولهم سيف أغلف - أي هو في غلاف. وقيل معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل معناه: قلوبنا مغطاة. وقيل: قلوبنا غُلف، هي جمع غلاف، أي هي أوعية للعلم تنبئها أننا لا نحتاج أن نتعلم منك فلنا غنية بما عندنا" (١).

فقلوبهم أوعية للعلم - كما يزعمون - يوحى بتكبرهم وتكذيبهم، فهم لا يرضون أن يدعوهم إلى خير وهدى أحد، فهم شعب الله المختار وأخباؤه كما يزعمون (٢).

وقلوبهم أوعية للعلم فلا يحتاجون أن يتعلموا من الرسول ﷺ غنية بما عندهم يوحى - أيضاً - بالنجح والإدعاء، فضلاً عن الاستهزاء بمن يدعوهم وتبئسه من أسلامهم.

وكلها معانٍ وإدعاءات تُسَمَّع من هذا التعبير التصويري تتجمع فتجلى صفات تميّز اليهود من غيرهم كفرةً وتكبراً وتكذيباً ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يقع الإيمان إلا لقلّة قليلة منهم، ليس لتصور في إفهامهم كما زعموا يقولهم - قلوبنا غلف - ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وحجبهم عن الإيمان وأسبابه.

### الختم:

ورد الختم في القرآن في عدة مواضع من ذلك قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشًوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

ثمة نلاحظ كتابتين تصويريتين، الأولى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وهي قائمة في بنيتها على الاستعارة، حيث شَبَّهت قلوب الكافرين التي لا تستجيب للحق، وأسماعهم التي لا تسمع داعي الحق، شَبَّهت بالوعاء المخبوم عليه فلا يصل إليه شيء (٣) فهي قلوب وأسماع معطلة كما حسنتها الاستعارة على حقيقتها فهي لا تنتفع بالخير، نقول على حقيقتها - وإن كانت في واقعها غير ذلك - ولما كانت لا تنتفع بهذه القلوب انتفاع الخير الذي يؤدي بها إلى الإيمان ولا تنتفع بأسماعها سماع الهدى والحق، كانت في حقيقتها كما

(١) المفردات، ص ٥٤٦. وينظر: لسان العرب: ٩ / ٢٧٠ (غلف).

(٢) ينظر: سورة المائدة، الآية: ١٨. وسورة الجمعة، الآية: ٦ مثلاً.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦ - ٧. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٤٦. وسورة يس، الآية / ٦٥.

وسورة الشورى، الآية: ٢٤. وسورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٣) ينظر: البحر المحيط: ١ / ٥١، وصفوة التفسير: ١ / ٣٣.

صورتها الاستعارية، فكأنهم بها مسلوبو وسائل الإدراك والمعرفة، ويزداد حالهم ظلاماً بالتعبير الاستعاري الآخر ﴿وَعَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ غَشْوَةٌ﴾ وفي الاستعارة تشبيهه أبصارهم لعدم رؤيتها نور الهداية بشيء مغطى بغشاء يمنع الرؤية، فهي في ظلام لا ترى شيئاً ولا تبصر، وبذلك تتعطل وسائل المعرفة عند الكافرين بالختم على القلوب والأسماع، والتغشية على الأبصار.

وحالتهم هذه التي أخرجتها الاستعارتان تمثل صورة من صور العذاب المعنوي، إذ لا يمتنعون بقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لما خلقت له، فهم في غمرة من جهل وضلال نتيجة الكفر، وفوق عذابهم هذا العذاب الذي أخبرت به الآية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الذي يناسب طبيعتهم التي استوى عندها الإنذار وعدم الإنذار.

والآية بما فيها من تصوير استعاري ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ و﴿وَعَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ غَشْوَةٌ﴾ يخفي وراءه معنى مكنى عنه، فضلاً عما أوحى به من معانٍ تصويرية، أي يكون التعبير الاستعاري هنا وسيلة تعبيرية وتصويرية تقودنا إلى المعنى المكنى عنه، وبذلك يكون التعبير الاستعاري بمجمله كناية عن صفة تتمثل في تصميم هؤلاء على الكفر والإصرار عليه<sup>(١)</sup>، يتناسب في قوته مع قوة التصوير الاستعاري الذي صور قلوبهم الذي استوى عندها الإنذار وعدم الإنذار.

### الطبع:

ورد الطبع في القرآن الكريم في عدة مواطن، من ذلك قوله -تعالى- في وصف المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ كناية قائمة في بنيتها على الاستعارة كالختم، حيث شبه قلوب المنافقين التي آمنت بالوعاء المطبوع عليه فلا يدخل إليه شيء، فقلوبهم مغلقة عن الإيمان، فاقدة أي استعداد له.

وفي استعارة (الطبع) إيهامات تناسب طبيعة المنافقين. قال ابن منظور: "الطبع، بالسكون: الختم، وبالتحرير: التئس، وأصله من الوسخ والتئس يغشيان السيف، ثم استعير

(١) ينظر: التبيان في البيان، للطبسي، ص ٢٢٧.

(٢) سورة المنافقين، الآية: ٣. وينظر: السور الآتية: النساء، الآية: ١٥٥. والأعراف، الآيتان: ١٠٠ - ١٠١. والتوبة، الآيتان ٨٧، ٩٣. ويونس، الآية: ٧٤. والفصل، الآية: ١٠٨. والروم، الآية: ٥٩. وغافر، الآية: ٣٥. ومحمد، الآية: ١٦.

فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح.. والطبع ملوك السقاء حتى لا مز يد فيه من شدة ملئه " (١). فالطبع ذو إحصاءات أوسع من الختم، لذلك قال الراغب: " الطبع هو أعم من الختم " (٢) فقلوب المنافقين تناسبها استعارة (الطبع) دون الختم (٣) فهي قلوب قد ملئت بالأوزار والآثام وغيرهما من المقلح، وقد أشار إليها القرآن في تعبير استعاري آخر وهو (المرض) في مواضع شتى لبيان حال المنافقين كما في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَسُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠١﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْذِبُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. فقوله: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ استعارة تصريحية بدلاً من " في قلوبهم ذفاق " (٤). وذلك لأن " المرض في الأجسام حقيقة وفي القلوب استعارة، لأنه فساد في القلوب، كما أنه فساد في الحقيقة، وإن اختلفت جهة الفساد في الموضوعين " (٥)

وذهب الزمخشري إلى جواز استعمال المرض في القلوب حقيقة ومجازاً، يقول في قوله - تعالى -: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ واستعمال المرض يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يُراد الألم، كما تقول في جوفه مرض، والمجاز أن يُستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد، والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى، والجنون، والضعف، وغير ذلك مما هو فساد وأفة تُشبهه بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقاض ذلك " (٦)

وتوجيه (المرض) على التصوير الاستعاري أولى لما في الإحصاء بالمعني التي ذكرها الزمخشري، ولعلها المقصود من الاستعارة، فضلاً عن تواجدها مع استعارة (الطبع)، كما أن تشبيه الحالة النفسية المريضة للمنافقين بالمرض الذي يعتري الأجسام فيه

(١) لسان العرب: ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٣ (طبع).

(٢) المفردات، ص ٤٤٩.

(٣) لعل لذلك لم يستخدم القرآن (الختم) مع المنافقين.

(٤) سورة البقرة، الآيات: ٨ - ١٠. وينظر السور الآتية: المائدة، الآية ٥٥. والأنفال، الآية: ٥٠. والتوبة، الآية: ١٢٦. والحج، الآية: ٥٣. والنور، الآية: ٥٠. والأحزاب، الآيات: ١٢، ٣٢، ٦٠. والمنشر، الآية: ٣١.

(٥) وقد تأتي استعارة (المرض) تعبيراً عن الكفر أو الشرك كما في قوله تعالى من سورة الأنفال:

﴿ إِذْ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَنَّا هَكَذَا وَيَقُولُونَ ﴾ من الآية ٤٩. وكذلك في سورة

الأحزاب، الآيات: ١٢، ٦٠.

(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن - ص ١١٣.

(٦) الكشاف: ١ / ١٧٥ - ١٧٦.

تصوير حسي يجسد حقيقة قلوبهم المعطلة وظيفتها المطبوع عليها أمام العين والفكر لينتمى المعاني. فالمرض الجسدي يعني التلف والفساد وتعطيل القوي، فضلاً عما ينطوي عليه من بعد نفسي يلم بالمتلى بهذا المرض الجسدي، فإن المرض القلبي الاستعاري كذلك يحقق لنا هذه الدلالة ولكن على نحو أعمق وأشمل وذلك لاقتران المرض بالقلب دون سائر الأعضاء الجسدية، إذ إن القلب هو العضو الرئيس في البدن، ومرضه وفساده يعني مرض الجسد كله وفساده، ونستأنس في هذه الدلالة الشاملة بما روي عن الرسول ﷺ (( ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ))<sup>(١)</sup>. وفساد الجسد بفساد القلب الاستعاري يعني تعطيل حواسه السمعية والبصرية فهي لا تؤدي وظيفتها الحقيقية، فهي معطلة ميتة<sup>(٢)</sup>، ولعل في هذا تفسيراً لاستعارة الطبع على قلوبهم، فهي قلوب مريضة لا تُرجى منها إيمان.

واستعارة (الطبع) التي صورت قلوب المنافقين المريضة التي ملوها الأثام والأوزار وغيرهما من المقايح فهي مريضة فاسدة يتوارى خلف سجعها معنى مكنى عنه فتكون الاستعارة كناية عنه ويتمثل في فقدان نفوس المنافقين وقلوبهم الاستعداد للإيمان والهدى، وهذا المعنى راجع أساساً إلى طبيعة النفس المنافقة التي تتردد بين الإيمان والكفر، لا اعتقاداً فيهما، ولا اعتقاداً لهما، وإنما تحقياً بهما عن أعين الناس وعقولهم، وكل منا يظهره المنافقون ويتمثلون فيه من الإيمان والكفر إنما هو تلون يكذونه ليلبغوا بيه أهدافهم كما يقول ﷺ عنهم: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾<sup>(٣)</sup>. ويقول الزمخشري في تفسير ذبذبة المنافقين: "ومعنى مذبذبين يذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون، وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين: أي يناد و ينفع فلا يقر في جانب واحد، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب، كان المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه (ذلك) إشارة إلى الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا مذسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ ولا مذسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين"<sup>(٤)</sup>، وفي هذا تصريح بمعنى فقدان المنافقين لمبدأ الاعتقاد سواء أكان اعتقاداً

(١) صحيح البخاري: ١ / ٢١.

(٢) ينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٨٧-٨٨.

(٣) سورة النساء، من الآية: ١٤٣.

(٤) الكشاف: ١ / ٥٧٤.

صحيحاً وهو الإيمان، أم خاطئاً وهو الشرك، فالنفاق شذوذٌ على الطبع السوي، ولذلك اختار القرآن لفظ ﴿مُذَبِّذِينَ﴾ المشتق من الذب بمعنى الذود والدفع، وحيث كان المنافقون في صيغة اسم المفعول ﴿مُذَبِّذِينَ﴾ فهم الذين وقع عليهم الذود من جانب المؤمنين والمشركين كليهما (١). فقلوبهم مطبوع عليها لأنها خارجة على الطبع السوي، فلن يصل إليها إيمان ﴿فَهُمْ لَا يَتَّقُهُمْ﴾ (٢) بهذا الاطلاق كما أفاد حذف المفعول به، أي لا يفقهون أي شيء قط نتيجة الطبع على قلوبهم.

### الأقفال:

وردت (الأقفال) في موطن واحد من القرآن الكريم، وهو قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (٣)

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ كناية قادمة في بنيتها على الاستعارة المكذبة، حيث شذبت قلوب الكافرين بالأبواب المقفلة فلا يدخل إليها شيء من معاني القرآن، وأكد معنى الاستعارة الاستفهام بالهمزة الذي أفاد تقرير النفي والانكار وفيه بيان حال قلوبهم وتصويرها بالصورة التي أخرجتها الاستعارة وتسجيلها عليهم، قال الزمخشري: "﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ وأم بمعنى بل وهمزة التقرير، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر" (٤). وقال في تكبير القلوب وإضافة الأفعال إليها في الصورة: "أما التذكير: إن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو إضافة الأفعال، فلأنه يريد الأفعال المختصة بها، وهي أفعال الكفر التي استغلقت فلا تفتح" (٥). والاستعارة تجعل المثالي يتخيل هذه الصورة الغريبة المختصة بتصوير قلوب الكافرين التي ضربت عليها الأفعال فهي مغلقة. فالكفر في الآية يتجسد في صورة الأفعال التي تغلق القلوب الكافرة فلا يدخل إليها شيء فهي معطلة عن تدبر آيات القرآن، لذلك تبدأ الآية بالاستفهام الإتكاري التوبيخي ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ﴾ فهو انكار لوقوع التدبر من هذه القلوب، لذلك ينتقل الحديث بأم التي تفيد

(١) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٢٥٩.

(٢) سورة التوبة، من الآية ٨٧، وسورة المنافقون، من الآية ٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٤) الكشاف: ٤ / ٢٥٨.

(٥) المصدر نفسه: ٤ / ٢٥٨.

الاضراب يقرر حقيقتهم وحالهم، والاضراب هو: الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه (١). أي: الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتفريع، وهي الحالة التي رسمتها الصورة الاستعارية المتخيلة التي تشي بقسوة تلك القلوب التي لا تضيء المعرفة جوانبها ولا ينور الإيمان طريق وظانفها قال الرازي: "إن القلب خلق للمعرفة فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف، وهذا كما يقول القائل في الإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان هذا وحش، وهذا ليس بقلب هذا حجر" (٢).

ومن وراء سجع الاستعارة نلمح معنى مكاني عنه ويتمثل في إصرار هؤلاء على الكفر وتصميمهم عليه وإعراضهم عن تدبر آيات القرآن المعجز المبين.

### الأضلال:

ويدغم القرآن صورة حسيّة غليظة تخرج المشركين في صورة غريبة: أيديهم قد شدت إلى أعناقهم وموضوعه تحت أذقائهم، فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى لا يخفضونها وضرب من أمامهم سد ومن وراءهم سد، فجعلت أعينهم مغطاة فهم لا يبصرون. نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْآذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾ (٣)

ومعنى الآية كما قال ابن كثير: "إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالاشقاء كمن جعل في عنقه غل وجمعت يده مع عنقه تحت ذقنه (٤) فارتفع رأسه مقمحاً" (٤). وقال أهل اللغة: الإقماح: رفع الرأس وعض البصر، يُقال: أقمَح البعير إذا رفع رأسه عند الحوض وامتدح من الشرب (٥). "يقال: قمح البعير فهو قماح، إذا روى فرفع رأسه، ومنه شهراً قماح، لأن الليل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان" (٦). وتكتمل صورة الكافرين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ قال أبو السعود: "و هذا تامة للتمثيل وتكميل له، أي: وجعلنا من أمامهم سداً عظيماً، ومن

(١) ينظر: البلاغة فنونها وأغنائها علم المعاني - د. فضل حسن عباس، ص ١٢٧.

(٢) التفسير الكبير: ٦٦ / ٢٨.

(٣) سورة يس، الأيتان: ٩٠ - ٨١.

(٤) الذقن: مفرد الأذقان وهو مجمع اللحيين، ينظر: لسان العرب: ١٣ / ١٧٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٤٢.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣ / ٥٦٦ - ٥٦٧ (قمح).

(٧) الكشاف: ٤ / ٤.

ورأنهم سداً كذلك ﴿فَأَعَشَيْنَهُم فُهْمًا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي فغطينا بهما أبصارهم فهمم بسبب ذلك لا يبصرون شيئاً أصلاً، لأنهم أصبحوا بين ستين هائلين، وهذا بيان لكمال قضاة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات " (١)

وهذا التصوير الذي رسمته الآيات صورة بالغة السخرية والتهمك بالمشركين، ويتجلى ذلك من خلال تصويرهم مغلولين في أعناقهم بأطواق من حديد، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة، ولا يستطيعون أن يؤمنوا إلى أسفل، وإنما تظل أعناقهم ووجوههم مرفوعة إلى أعلى، لا يتحرك منها إلا عيونهم التي لا تبصر شيئاً (٢). فضلاً عن تشبيههم بالابل حين تُروى من الماء فترفع أعناقها ورؤوسها إلى أعلى فهم في تصويرهم هذا ممنوعون عن النظر والرؤية للاهتداء بالدلائل والآيات بسبب تلك الأغلال والحواجز والسدود التي غشيت أبصارهم وهذه العوائق الحسية تشير إلى الأغلال النفسية والفكرية والعقلية التي كتلوا بها أنفسهم فهم لا يهتدون.

والتصوير بمجمله يتحول إلى كناية موحية بالمعنى المكاني عنه الذي يتوارى خلف سجنه، وقد أشار الزمخشري إليه بقوله: "تصميم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى إرغوانهم في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم لــــه. فــــي أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعاسون عن النظر في آيات الله" (٣) فهو الإعراض والإمعان في الكفر عن إرادة وتصميم يوديان إلى إغلاق منافذ المعرفة ومن ثم فما لهداهم وإيمانهم من سبيل، وأي صورة يمكن لها أن تجلّي هذه الصفات وتجسّد هذه المعاني غير صورة الكناية القرآنية المعجزة بلفظها الوجيه ونظمها المحكم ورسمها الراسخ في أعماق النفس المتلقية.

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٠ / ٧.

(٢) ينظر: أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص ٣٦٠.

(٣) الكشاف: ٤ / ٣٠٤.

وفي كناية الأغلل تسلية للنبي محمد ﷺ وتسرية عن نفسه فهو لم يقصر في إنذارهم، فهم المانعون أنفسهم من الإيمان، فقد جعلهم الله خطاباً للآثار (١) بسبب إعراضهم وإصرارهم على الكفر.

## الغطاء:

يرد الغطاء في موطنين من القرآن وفي سياق مشهدين من مشاهد يوم القيامة، والذي يهمننا قوله - تعالى -: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠٢﴾ (٢)

نلاحظ التعبير الكناتي التصويري ﴿ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ يخرج الكافرين عمياً عن النظر في آيات الله الدالة على قدرته ووحدانيته، سواء المقصود بها النظر في آيات القرآن وتأمل معانيها وتبصرها - أو الآيات التي يبني عليها القرآن والمبثوثة في السموات والأرض والكون التي إذا ما نظرت فيها دلّت على قدرته ﷻ ووحدانيته فيذكر بالتعظيم (٣). فأعينهم محجوبة عن النظر في آيات الله بهذا الغطاء المانع فهي معطلة، وفوق هذا العمى لا يستطيعون السمع ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ يعني: " وكانوا صماً عنه، إلا أنه أبلغ، لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صحح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع " (٤). فهم عمي صمّ كما وصفهم في موضع بقوله - تعالى -: ﴿ مُمْ بِكُمْ عَمِّي ﴾ (٥) وغيرها من الآيات الكريمة التي تلتف الانتباه إلى عطب حواس الكافرين وموتها من سمع وبصر وأفئدة (٦)، وكلها تعابير استعارية تحسد حالهم، حيث يُسلبون البصر والسمع، وهم في حقيقتهم يبصرون ويسمعون، لكنهم لا يبصرون بصر هداية بآيات الله، ولا يسمعون صوت الحق سماع رشّد ويقين، فكانهم معطلو حاسة

(١) ينظر: التصوير البياني، حفتي محمد شرف، ص ٢٤٨.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٠ - ١٠١. وينظر: سورة ق، الآية: ٢٣.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٥٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٥٨٥.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ١٨.

(٦) ينظر: السور الآتية: البقرة، الآية: ١٧١. الأنعام، الآيتان: ٢٥، ٣٩. الأنفال، الآية: ٢٢.

يونس، الآيتان: ٤٢، ٤٣. هود، الآية: ٢٠. الرعد، الآية: ١٥. الإسراء، الآية: ٤٩.

الكهف، الآية: ٥٧. الأنبياء، الآية: ٤٥. فصلت، الآيتان: ٥، ٤٤. الزخرف، الآية: ٤٠.

السمع والبصر لأنهم حرموا أنفسهم من وظيفتهما الحقيقية التي خلقنا من أجلها بل إن القرآن يصور هؤلاء الكافرين في حالة موت كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الْقَهْرَ الدُّعَاءَ إِنَّا وَلَوْ كُمْرِينَ ﴾ (١)، فالكافرون موتى بهذه الاستعارة التصريحية حيث استبدل لفظ الكافرين "بالموتى" لجامع عدم التبصر والوعي في الاثنين، فهم مسلوبو الحياة الحقيقية التي يبعثها الإيمان بالله الذي يحيي القلوب والأبدان، لأن المقصود من الحياة " الإدراك والعقل فإذا غُدمًا فقد غُدمت الآثار المطلوبة من الحياة فتصير تلك الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة والموت أولى بذلك فتنزل الحياة منزلته " (٢).

فالغطاء على أعين الكافرين ﴿ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ وعدم استطاعتهم السمع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ فضلاً عما أشار إليه بهذا التصوير الحسي المؤثر من معنى العسى عن آيات الله المشاهدة بالأبصار إلى عسى بصائرهم، وعدم سماعهم صوت الحق سماع هداية وإيمان، فإنهما يوديان إلى معنى مكنى عنه يتوارى خلف تلك الألفاظ يتمثل في إعراض قلوبهم عن ذكر الله في حياتهم الدنيا عن إرادة وتصميم، وهو معنى يتسق مع مشهد عرض جهنم لهؤلاء الكافرين ﴿ وَرَضَّا جَهَنَّمَ بَوْمِيذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴾ ، فالكافرون الذي أعرضوا عن ذكر الله حتى لكان على عيونهم غطاء، ولكان في أسماعهم صمماً، تُعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها، كما كانوا يعرضون عن ذكر الله، فاليوم لا يستطيعون إعراضاً، لقد نُزع الغطاء عن عيونهم نزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعسى جزاءً وفها، فالتعبير القرآني يتسق بين الإعراض والأعرض متقابلين في المشهد، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق الفني في القرآن (٣).

وفي ضوء ما تقدم من الكنايات التي صورت موانع الإدراك عند الكافرين والمشركين والمنافقين التي حالت بينهم وبين المعرفة التي يدعوهم إليها القرآن الكريم يتجلى عالم الكفر والضلال وما فيه من جهل وتقليد أعمى، عالم تُلغى فيه إنسانية الإنسان إذ تعطل وسائل الإدراك والمعرفة عنده فلا يفترق حينئذٍ عن البهيمة لأنه أصبح كمن لا عقل له فهو والبهائم سواء.

(١) سورة الروم، الآية: ٥٢. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٣٦. وسورة القمل، الآية: ٨٠.  
(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ١٢٩ - ١٣٠. والقوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ٤٥ - ٤٦.  
(٣) في ضلال القرآن: ٥ / ٤١٤.

وأزاء عالم الكفر والضلال الذي يبرز فيه الكافرون يجلي لنا القرآن بالتقابل عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين أو لي الأبواب التي تفتحت وسائل الإدراك والمعرفة لديهم واحتيت بالنور والهدى الإلهي فتيفقت حواسهم حتى التيقظ وهي تستقبل دعوة الإيمان بآياته الكريمة بوعي وإدراك.

ويصور القرآن بالأسلوب الكناني الموحى حال المؤمنين ومشاعرهم في بعض آياته التي تتخذ منها شواهد تجلي عالماً مضاداً لعالم الكافرين في السلوك والمشاعر والإحساس. لم يخروا عليها صنماً وغمياناً:

تجلي هذه الكناية التعريضية سمة من سمات عبد الرحمن في قوله - تعالى -

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا آذَنُوا وَنُفِيَ اللَّصْمُ وَالْعَمَىٰ، كَمَا نَقُولُ: لَا يَدِقَانِي زَيْدٌ مُسْتَلماً هِيَ نَفْسٌ لِلسَّلَامِ لَا لِلقَاءِ. والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكور بها، وهم في أكبابهم عليها، سامعون بأذان واعية، مبصرون بعيون واعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمناققين وأشباههم " (٢) فالكناية تعريضية تنفي الصم والعمى عن عباد الرحمن (المؤمنين) وتثبتته للكافرين والمناققين وأشباههم.. وهي كناية قادمة في بنيتها على استعارتين تصريحيتين:

﴿ سَمَاءٌ وَعَمِيَانَا ﴾ حيث أنه شبه الكافر أو المنافق (المستعار له) بالأصم (المستعار منه) ثم حذف المستعار له (المشبه) وأبقى المشبه به (المستعار منه) على سبيل الاستعارة التصريحية، وبذلك يبدو الكافر أو المنافق في هيئة شخص أصم لا يسمع شيئاً فهو معطل حاسة السمع، وهذه هي حقيقة الكافر كما تجسدها الاستعارة، وإن كان يسمع الأصوات في حقيقته ولكنه لا يدرك معانيها ولا يعي، كما يصفهم الله في موضع آخر: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْسِيِّ إِذْ يُعَاذُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعْوَاهُ وَنَذَاهُ صُمٌّ بِكُمْ غَمٌّ فَأَنْتُمْ لَا تَتَفَقَهُونَ ﴾ (٣) وهم لا يسمعون فحسب، وإنما

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٣.

(٢) الكشاف: ٣ / ٢٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧١. وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٢. وسورة هود، الآية: ٢٠.

هم عديان كما تشير الاستعارة الثانية، حيث استعمل للكافر (الأعمى) فهو معطل حاسة البصر وإن كان في الظاهر يرى الأشياء، ولكنه لا يعتبر بما يرى من الآيات المبتوثة في الكون أو لا يعتبر بآيات القرآن التي تؤدي إلى الاستبصار والإيمان والهدى، هم كما يفهم الله في موضع آخر على سنبل التعريض بهم: ﴿ **أَمَّنْ يَمَلُؤُا أَنفُسَهُمْ كِبًا مِن بِلَى اللَّهِ أَن يُذِكرُوا آيَاتِهِ** ﴾ (١)

هم كما أوحى الكناية معطولو وسائل الأحساس والمعرفة، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه وهو المعنى المكنى عنه الذي يقودنا إليه التعبير الكنايني القائم على بنية التشبيه.

ومن خلال اثبات هاتين الصفتين (الصم والعسى) للكافرين، فإبها تدفي عن المؤمنين صراحة ﴿ **لَرَجِصُوا عَلَيْهَا صَبَآءًا وَعَمِيَانًا** ﴾ فهم يسعون سماع هدى وإيمان، وهم يرون آيات الله المبتوثة في كل مكان بأبصارهم فيعقلون معانيها ويدركون مرادها فتر يداهم إيماناً مع إيمانهم.. ومن ثم فإن الكناية تنطوي على معنى مكنى عنه يخصهم ويتمثل في استجابتهم لآيات ربه حرصاً على استماعها بأذان صاغية وقلوب خاشعة. فهم قد أفادوا ممّا وهبهم الله من حواس حية تؤدي وظيفتها التي خلقت من أجلها، تلك الوظيفة التي خلق الله الإنسان من أجلها ليحقق بها انسانيته فيسمو بها على المخلوقات الأخرى حيث معارج النور والهدى، لأن قلوبهم احتيت بالعلم والحق النازل من السماء، كما تصوره الكناية على سنبل التمثيل في قوله - تعالى -: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيًا بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا زَبَابًا وَمَعًا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ وَبَدَّ بِذَلِكَ كَذَابًا** ﴾ يعثر الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاً وأما ما يبتغى الناس فيمتك في الأرض كذلك يعثر الله الأمثال ﴿ (٢)

ففي الآية الكريمة ثلاث كنايات تتمثل في قوله - تعالى -: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيًا بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا زَبَابًا** ﴾ قال ابن الأثير: " هذه الآية من باب الكنايات التي لفظها يجوز حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، فإنه يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط الأرض وعلى القلوب، وحمل

(١) سورة الرعد، الآية: ١٩. وينظر: سورة يونس، الآية: ٤٣. وسورة الإسراء، الآية: ٧٢. وسورة الفل، الآية: ٨١. وسورة الروم، الآية: ٥٣. وسورة الزخرف، الآية: ٤٠.  
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

الزبد على الغشاء الرابي الذي تَدَفُّفه السيول، وعلى الضلال " (١) " ففي الآية كناية بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال، والذي جَوَّز هذه الكنایات وجود الوصف الجامع بين الماء وهو المعنى الظاهر القريب والمعنى المكنى عنه البعيد (العلم) فكلاهما يقوم بوظيفة الإحياء، فالماء يحيي الأرض بعد موتها، والعلم يحيي القلوب والعقول بعد موتها بالجهل، وكذلك بين الأودية وبين القلوب فكلاهما يجتمع عنده ويستقر ما يسبب الحياة وكذلك بين الزبد الرابي وبين الضلال فكلاهما من الأوضار الضارة التي تَضْمَحَلُّ بسرعة وتزول فلا حقيقة لها ولا ثبات.

بهذا العلم الذي أنزله الله احتبَّت قلوب المؤمنين فخلص الإيمان في نفوسهم، واستقر التوحيد في قلوبهم فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة (٢) فامتازت حياتهم من حياة الكافرين التي غدت موتاً بما أصابهم من صمم عن سماع الحق، وعمى عن رؤية طريق الهدى.

### البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرُج إلا نكداً:

يقدم القران بهذا التعبير الكناني الموحى على سبيل التمثيل حال المؤمن من جهة وحال الكافرين من جهة أخرى وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

فالآية يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن أن الأرض الطيبة الكريمة التربة يخرج نباتها سريعاً حسناً وافية، وأن الأرض السبخة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا قليلاً لا خير فيه (٤). أما المعنى الكناني البعيد فيفهم من خلال فهم الآية على أنها مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، كما قال ابن عباس (٥) و عن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فانبثت، والكافر بخلاف ذلك (٦)، والذي يرجح هذا التمثيل ويقويه السياق قبل الكناية إما ذكر من

(١) المثل السائر: ٣ / ٦٣.

(٢) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٨٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣. والكشاف: ٢ / ٨٨. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣٧٦ / ٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٣.

(٦) الكشاف: ٢ / ٨٨.

الماء النازل من السماء على البلاد الميتة وإخراج الذمات به ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا  
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَقًا لَأَسْقِنَهُ لِيَكْلُمَ مَيِّتًا فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ  
كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

فالتعبير الكنائي ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾  
يصور حقيقتين مختلفتين: حقيقة المؤمن الذي يؤمل منه الخير، ويؤثر عنه الهدى، ويُرْجى  
فيه الصلاح، وأن الكافر لا يؤمل خيره، ولا يُحتمل نفعه، ولا يؤتمن شره (٢) وخبثه،  
فالمؤمن طيب كما دلّت الكناية وكما يصفه القرآن في مواضع شتى (٣) لأنه استجاب لأيات  
ربه التي أنزلها حياة للقلوب والنفوس، فهو مفتّح القلب والبصيرة. أفاد من آيات الله علماً  
ومعرفة فتتجسد ثمراته بالأعمال الصالحة النافعة في بناء الحياة والمجتمع. فالكناية قادمة  
في بنيتها على التشبيه الضمني الذي يعقد موازنة لطيفة بين الآيات النازلة من الله وبين  
الأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده من جهة وبين الإنسان المؤمن الطيب القلب  
وبين البلد الطيب التربة من جهة أخرى، فكلاهما يفيد مما أنزله الله، فالمؤمن يأخذ الآيات  
ببصر وبصيرة فيستفيد منها سعادة الدارين (٤) والبلد الطيب يفيد من الماء النازل فيعطي  
نباته المبارك بإذن ربه وأما الكافر فهو الخبيث كما تخرجه الكناية وكما يصفه القرآن في  
مواطن أخرى (٥) لأنه لم يستجب للآيات النازلة من الله ﷻ فهو معطل القلب والبصيرة، فلم  
يسمع سماع هدى، ولم يبصر بصر إيمان، فهو ميت القلب والحواس، فهو يشبه كما دلّت  
الكناية بالتشبيه الضمني الأرض السبخة الجدياء التي لم تتأثر بالماء النازل من السماء فهي  
خبيثة نكدة لا يُرْجى خيرها، ولا يُحتمل نفعها، كذلك الكافر لا يُرْجى منه الخير، ولا يؤتمن  
شره وخبثه، بل تتجسد أعماله الشريرة في الواقع والحياة خبيثاً ونكداً، لأنه لم يؤمن ولمن  
يهتد بالهدى الذي يحركه ويوجهه إلى الأعمال الصالحة النافعة، فهو قد تنكب عن طريق  
الخير والصلاح إلى طريق الشر والفساد.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٦٤.

(٣) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٨٧٩. وسورة المائدة، الآية: ١٠٠. وسورة الأنفال، الآية:

٣٧. وسورة النور، الآية: ٢٦.

(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ٣٧٦.

(٥) ينظر: سورة آل عمران، الآية: ١٧٩. وسورة المائدة، الآية: ١٠٠. وسورة الأنفال، الآية: ٣٧.  
وسورة النور، الآية: ٢٦.

وفي ضوء ذلك نلمح أثر الكناية في أداء المعاني بالصورة الحسية المؤثرة القريبة إلى الحسن والوجدان والغنية بإحساءاتها.

الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظنّ والحرور، والأحياء والأموات:

ترد هذه الكنايات المتضادة في معانيها في قوله - تعالى - ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٥﴾ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٦﴾ (١)

فهذه الآيات الكريمت يمكن حملها على جانبي الحقيقة والمجاز، والمعنى الحقيقي القريب الذي يتبادر إلى الذهن يتمثل في أن هذه الأشياء والمتبادنة المختلفة لا تستوي، كالأعمى والبصير لا يستويان فيبينهما فرق وبون كثير، وكذلك لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، ولا تستوي الأحياء ولا الأموات (٢) فهي عوالم متضادة مختلفة.

أما المعنى الكنائي البعيد فيفهم من خلال فهم الآيات على أنها مثل للكافر والمؤمن كما قال بذلك المفسرون (٣) وبذلك تمتحن الكنايات ﴿ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ و ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ و ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ و ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ دلالاتها من خلال التصوير الحسي العميق بإحساءاتها.. فالمعنى الظاهر المباشر للأعمى هو تعطيل الحاسة البصرية لدى (الكافر)، فدلالة (الأعمى) هي انطفاء نور البصر في العين، وهي كذلك تشخص دلالة أيضاً على عطل الحواس الأخرى التي يتم عن طريقها الإدراك لدى الإنسان، والقران عن طريق العمى في الحاسة البصرية يعمق دلالة المعنى المكنى عنه المتمثل في انطفاء نور البصيرة في العالم الداخلي للكافر فتتجمد حقيقته بهذا التصوير ليثير مشاعر المتلقي وأحاسيسه حتى ينفذ إلى تأمل حقيقة الكافر الداخلية وإن بدا في الظاهر يبصر بعينيه الأشياء ويرى. وعلى الضد من هذه الصورة المظلمة للكافر تُقف صورة (البصير) التي تشير في معناها الظاهر إلى نور البصر في العين الذي يتم عن طريقه رؤية الأشياء وإدراكها وعن طريق هذا المعنى الظاهر تتعمق دلالة المعنى المكنى عنه والمتمثل في تيقظ

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٩ - ٢٢.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠.

(٣) ينظر: الكشاف: ٣ / ٤٨١، وتفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٣٠. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤١٣ / ٦.

البعصيرة في العالم الداخلي للمؤمن الذي تتجسّد حقيقته المشرقة بنور الإيمان المحيي للأبصار في الرؤية وممن ثم الاستجابة والإدراك في البصائر.

والإيمان المحيي للأبصار والبصائر، والكفر والاضلال المميت للأبصار والبصائر بالمعنى الكنائي المصوّر يتجسّدان في الكناية التالية (الظلمات والنور) في صورة حسية تشير إلى حقيقتيهما العميقة الموحية، إذ إن ﴿الظلمت﴾ تشير إلى معناها المكنى عنه وهو الكفر أو الضلال، و﴿النور﴾ يشير إلى معناه المكنى عنه وهو الإيمان أو الهداية، وبذلك تضمّنت الكنيتان في صورتيهما الحسينيتين إichاءات عميقة دالة على تباين نوعين من الحياة تفرقان في طبيعتهما بهذا التصوير الكنائي في الحس والتفكير، وهذا التباين أو التمايز بين الحياتين تنقله الكنيتان بدقة بيانية معجزة. ففكرة (الكفر) تتلبس في صورتها الكنائية الحسية (الظلمات) بصيغة الجمع دلالة على أضرار الحياة الكثيرة التي تحجب الأبصار والبعصيرة، وكذلك " الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان " (١) على حين إن الإيمان (النور) جاء بصيغة المفرد، وفي هذا حكمة بالغة عبّر عنها صاحب تفسير المنار بقوله: " وقد أفرّد النور وجمعت الظلمة هنا، وفي كل آية قُوبل فيها بين النور والظلام سواء كان ذلك في الحسي أو المعنوي، بل لم يذكر النور في القرآن إلا مفرداً، والظلمة إلا جمعاً، وحكمة ذلك: أن النور شيء واحد، وإن تعددت مصادره، ولكنه يكون قوياً ويكون ضعيفاً، وأما الظلمة فهي تحدث بما يحجب النور من الأجسام غير النيرة، وهي كثيرة جداً، وكذلك النور المعنوي شيء واحد، في كل نوع من أنواعه أو جزئي من جزئياته، ويقابل كل منهما ظلمات متعددة، فالحق واحد لا يتعدد، والباطل الذي يقابله كثير " (٢) فالظلمات بوصفها تعبّر عن الكفر، فهي تصور طبيعة الكفر وفعله المدمر للحياة في أدق تصوير، فهو ليس (ظلمة) واحدة، وإنما (ظلمات) تسد منافذ الرؤية والبعصيرة بكل جهاتها في الحياة فتدجب الانسان عن ممارسة الحياة الطبيعية، لأن الحيرة والقلق هما الشعور، والتخبط هو الحركة المسيطرة على فعل الانسان في تلك الظلمات المتباعدة بعضها فوق بعض، فالكناية تنطوي على طاقة إichائية وتصويرية في أداء المعنى.

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص ٦٢.

(٢) تفسير المنار: ٧ / ٢٩٤.

ويقابل كناية (الظلمات) كناية (النور) التي تصور طيبة الإيمان وفعله الاباني للحياة، لأنه يفتح منافذ الرؤية والبصيرة بكل جهاتها في الحياة، ومن شأن التقابل بين الكنائيتين أن يعمق معناهما في الحس والوجدان.

ويَدَّحُولُ الإِيمَانَ وَالْكَفْرَ فِي التَّعْبِيرِ الْكِنَائِيِّ (الظل والحُرور) إلى صورة حسية جديدة موحية تراها العين وتتدسَّنَ بها النفس، وتَفْتَحُ منافذَ عدة للتفكير لتَمَلِّي هاتين الصورتين إذ تَبْعَثُ الكِنَايَةُ (الظل) في جنبات النفس الارتياح والتروح، فالإيمان هو الباسم الذي ترتاح إليه النفس وتُسْتَقِرُّ في رحلة الحياة الدنيا وهي تواجه المتاعب والآلام والمشقات فيجد المؤمن في ظلِّه الطمأنينة والسعادة والأمن، فضلاً عن الثواب في الحياة الأخرى، أما الكفر والضلال فهو (الحُرور) بالتصوير الكِنَائِيِّ، ومن المعاني الحسية للحُرور (السموم)، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحُرور بالليل والنهار<sup>(١)</sup>، فالكفر يتجسَّدُ بهذه الصورة الحسية من العذاب المستمر المتَّصِل، وذلك لأن النفس الكافرة خاوية من نعمة الإيمان؛ فهو العقاب في الحياة الدنيا، فضلاً عن العقاب في الحياة الأخرى، لذلك فالكافرون (أموات) ليس أمواتاً بالمعنى المألوف للموت وهو الهلاك والفناء كما قد يبادر، وإنما أموات بالمعنى الكِنَائِيِّ الجديد إزاء المؤمنين (الأحياء): ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ الكافرون موتى لأنهم منطفئو الروح والبصيرة والإدراك، فهم والموتى سواء كما يقول القرآن، وكأن غاية الحياة وجوهرها كما يفهم من التعبير الكِنَائِيِّ يتمثل في الاستقامة والتبصر وتيقظ الروح، والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن الموت بمفهومه الكِنَائِيِّ ربما كان " انغماس النفس في ظلمة الحيوانية، ويقاء الروح مكفوفة الإدراك تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية " (٢)؛ لأن الطاقة الروحية معطلة، فالكافرون يخيون في حياتهم ويتقلبون مثل أي كائن حي دون تميز أو تفلوت إذ يفقدون معنى الحياة المقصود، لأن المقصود من الحياة الإدراك والعقل فإذا عُدِمَا تصير الحياة مساوية للموت في عدم الفائدة المطلوبة فتتزلَّ الحياة منزله (٣).

(١) الكشاف: ٣ / ٤٨٠. وينظر: لسان العرب: ٤ / ١٧٧ (حرر).

(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٢١٠.

(٣) ينظر: نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، ص ١٢٩ - ١٣٠. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ٤٥ - ٤٦.

فالكناية بثت الحياة في مفاصل الصورة وجذبت معاني الكلمات في دلالات جديدة موحية مؤثرة في الحس والوجدان.

وبذلك يتجلى بالكنائيات المعرفية عالمين متضادين: عالم الإيمان والهدى، وعالم الكفر والضلال على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، إذ تحقق الكناية دلالات عميقة في الحس والأشعور، وعلى بساطة التراكيب الكنائية ووضوحها تمنح الفكر والنفس قوة العطاء وعمق الإيحاء في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أما الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بيبادية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص رموزاً لا ينقطع إبحارها بما أخرجت المعاني والأفكار بخصوصية وحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيان الإنسان لتتملى معانيها وأفكارها، ولتترسخ معطياتها في الفكر والنفس.



## الفصل السابع

# الكناية التعريضية



## الفصل السابع

### الكناية التعريضية

الكناية التعريضية لون من ألوان الكناية " فالكناية تنقسم إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك " (١). والتعريض هو " اللفظ الدال على الشيء من طريق مفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إني لمحتاج، وليس في يدي شيء. وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دلّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (٢). فالتعريض هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق (٣) وقرائن الأحوال، وما يشير إلى هذا قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٤). والتعريض في الخطبة هو: أن يقول راغب الزواج للمعتدة بعد انتهاء عدتها، مثلاً: عسى الله أن يهين لي زوجة سالحة. أو: لعل الله أن يرزقك بعلاً صالحاً وإن النساء لمن حاجتي وأشباهه من الكلام (٥). فهو إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض (٦). وهو رغبته فيها، والزواج ليس مدلولاً لهذه الألفاظ حقيقة ولا مجازاً، لأن المتكلم ذكر شيئاً دلّ به على شيء لم يذكره، ومن هذه الناحية افترق التعريض عن الكناية، لأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولنا: طويل النجاد لطول القامة، وكثير الرماد للمضيف. والتعريض: " أن نذكر شيئاً ندل به على شيء لم تذكره كما

(١) مفتاح العلوم، ص ١٦٠. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٢) المثل السائر: ٣ / ٥٦. وينظر: الطراز: ١ / ٣٩٧. ٣٩٨. وينظر: الزهرمان في علوم القرآن: ٣١١ / ٤.

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، ص ٣٥٠.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٥.

(٥) ينظر: الكناية والتعريض، للشعالبي، ص ٥٧. وينظر: القوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان،

ص ١٣٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، ص ٢٧٦.

(٦) الكشف: ١ / ٣٧٣. والمنتخب من كليات الأدباء وإشارات البلغاء، ص ٥٦، ٥٧.

يقول المحتاج للمحتاج إليه: جنتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم<sup>(١)</sup>، وهو يعرض بطلب الصدقة.

ورغم هذا الإفتراق بين الكناية والتعريض فإنهما يعدّان من طرق الفن الكنائي، لأنهما يدخلان في إطار عام وهو الإشارة إلى المعنى المراد من بعد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ لعلاقة بينهما<sup>(٢)</sup>. هي علاقة اللزوم في الكناية، وعلاقة يستدل عليها العقل في قران الأحوال ومقتضيات السياق في التعريض.

وقد توافر القرآن الكريم على هذا النوع من الكناية التعريضية التي تمثل بالإيجاز في التعبير عن المعاني والأفكار التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً ثم تصل إلى الغرض الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال كما ذكرنا من غير أن تذكر الطرف المقابل المعروض به، وبالعدول من التصريح إلى التعريض يكون وقع المعنى في النفس مؤثراً وأقدر على إحداث الاستجابة النفسية المناسبة، وذلك بسبب التلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من عرض الكلام وجانبه ونقل المتلقي إليه بعد معاناة وتفكير، ومن هنا فإن التعريض الذي لا يقع إلا في التركيب على خلاف أقسام الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب<sup>(٣)</sup>. يفيد القول بلاغة تفوق بلاغة أنواع الكناية الأخرى وذلك لأنه يشير بخفاء ومن دون وسائل ولوازم إلى معنى بعيد، مع إقراره في نفس السامع من طريق سياق القول ومقتضياته.

وفيما يأتي نستعرض الآيات القرآنية التي احتوت كنايات تعريضية، ثم نحاول تحليلها وبيان خصائصها وأثرها في سياق الآية الكريمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

### إنما يتلذذ أولوا الألباب:

يستعمل القرآن هذا التعبير في موطنين على سبيل التعريض بالكافرين، أحدهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾<sup>(٤)</sup> قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ تعريض بالكافرين، فليس الغرض من هذا القول - كما يقول عبد القاهر الجرجاني - أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يدّم الكفار

(١) ينظر: الكشاف: ١ / ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٧. وينظر: البلاغة العربية بالمعاني والبيان والبدع، ص ٢٤٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٩. وينظر: سورة الزمر، الآية: ٩.

وإن يقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذئ عقل وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب" (١). فالمعنى الظاهر للكناية التعريضية معلوم حكمه لا يجهله أحد، أي المؤمنون أصحاب القلوب

الواعية التي تنتفع بما ترى، وتعلم أن الذي أنزله الله هو الحق فتتبعه. ومن هنا تأتي الموازنة بين الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل ليتجلى المعنى ويتعمق في الحسن والـ

﴿أَمَّنْ يَمَلَأُ آتَمًا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لَمَّا كُنَّ هَوَآءَ عَمَى﴾ والاستفهام بالهمزة يفيد إنكار تشابه حال الفريقين، وهو تشبيه مستنكر، وهو عميق في دلالاته وحقيقته، فالمؤمنون هم أصحاب البصر والبصيرة على خلاف الكافرين. كما يخرجهم التعبير الاستعاري التصريحي القائم في بنيته على التشبيه ﴿كَمَنْ هُوَ آمَى﴾ فشبه الكافر بالاعمى وذلك يجمع عدم البصر على سبيل الاستعارة التصريحية. والكافر ليس أعمى في الحقيقة، وإنما هو أعمى بهذا التصوير الاستعاري بمعناه الجديد الذي يصوره القرآن، إذ العمى عمى القلب والبصيرة، كما قال - تعالى -: ﴿فَاتَّبَعَهَا لَا تَمْسَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَمْسَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢). فالكفر عمى والكافر أعمى لأنه عطل وسائل إدراكه ومعرفته عن العمل في ما خلقت له فهو لا يرى العلم الذي أنزله الله وهو الحق الذي يعلمه أو لو الألباب شأنه في ذلك شأن الأعمى الذي لا يميز الأشياء.

وهذه الاستعارة القائمة في بنيتها على التشبيه تصعد معنى التعريض المستفاد من ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الذي جاء بأسلوب القصر بإتمام، حيث قصر صفة التذكّر على الموصوفين بـ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم المؤمنون لا تتعدى إلى غيرهم وهم الكافرون المعرض بهم فهم لا يتذكرون ولا يتدبرون الحق الذي أنزله الله، فالقصر "ليبيان الواقع وحصر التفكير والتذكر المستقيم في أولي الألباب والعقول الخالصة" (٣).

(١) دلالات الإعجاز، ص ٣٣٣، ٣٣٤. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٤. وينظر: من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. عبد العزيز عرفة: ٢ / ٦١. وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ٣٠٠.  
(٢) سورة الحج، من الآية: ٤٦.  
(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٥٠٤.

وبذلك تنال هذه الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ من الكافرين عن طريق مفهوم سياق الآية وتذمهم وتخرجهم في حكم من ليس له بصر وعقل من غير أن تصرح بتكريمهم.

وتتكرر هذه الكناية التعريضية في موطن آخر معرّضة بالذين لا يعلمون (الكافرين)، بعد أن تثبت للمؤمنين الذي يعلمون ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سلوكاً عملياً شاكراً لله، فعلمهم يتخذ مجاله وصورته الشاكرة العاملة، وذلك في قوله - تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ؕ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقِيَامًا يَسْتَدْرَأُ الْآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً رَبِّهِمْ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١)

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ تعريض بالكافرين بعد أن قررت المعنى الظاهر المعلوم وهو إثبات صفة التذكّر للمؤمنين أو لي الألباب دون غيرهم على وجه التخصيص. ويبرز سياق الآية هؤلاء المؤمنين الذين يعلمون ويعملون بمقتضى علمهم المستقر في النفوس والقلوب بهذا السلوك الخاشع: أثناء الليل، والسجود والقيام، والحذر من عذاب الآخرة، ورجاء الرحمة من ربهم بهذا الجهد العامل الشاكر الذي يبذله هؤلاء العالمون العاملون. والكافرون المعرّض بهم يجهلون الحقيقة التي من أجلها خلّقوا، فهم لا يعلمون فلا يستوي حالهم مع هؤلاء المؤمنين في صورتهم الوضيئة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام هنا إنكاري ينفي أن يستوي حال الفريقين ويقرر واقعاً ناصعاً في دلالاته المجازية فهو لا يحتاج إلى جواب، لوضوح حال الفريقين، ولكنه استفهام يهدف إلى إقرار حقيقة وتوكيدها، ويقرّع ويعرّض بالكافرين الذين لا يعلمون ازاء أولئك العالمين العاملين، والتقابل على سبيل التضاد من شغفه تعميق حال الفريقين في الحس والذهن.

ويمكن أن يفهم التعريض في الآية من جانب آخر بالعالمين غير العاملين في دلالاته العامة، قال الزمخشري: " وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازراء عظيم بالذين يفتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون" (٢).

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) الكشاف: ٩٠ / ٤.

وبذلك يستوي في دلالة التعريض الشاملة الكافرون الذين لا يعلمون ولا يعملون، والعالمون غير العاملين بما يجب عليهم من الطاعة، فهم جهلة على صعيد واحد مع الكافرين.

وفي ضوء ذلك يتجلى الأيجاز في الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فليس المراد منها المعنى الظاهري المعلوم وهو قصر التذکر على المؤمنین القننین فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى معنى آخر يمثل الهدف الذي تلوح به على سبيل التعريض.

وفي ضوء ذلك يمكن أن يفهم التعبير القرآني: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ على أنه كناية تعريضية، والوارد في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا نُزِرْ وَأَزِيدُ وَزِدْ أَخْرَجَ وَإِن تَدْعُ مَثْقَلَةً إِنَّا جَمِلْهَا لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِنَّمَا يَرْكَبُ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup>

فالتعبير القرآني ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يتجاوز معناه الظاهر الذي يدل عليه إلى التعريض بالذين ليس لهم هذه الخشية، قال الزركشي: "المقصود التعريض بدم من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أن فرط عناده كأنه ليس به أنن تسمع، ولا قلب يعقل، وأن الانذار له كلا انذار، وأنه قد أنذر من له هذه الصفة، وليست له"<sup>(٢)</sup>.

فالكناية التعريضية تتال من الكافرين على نحو خفي لطيف وكاشفة عن حالهم الذي تساوي عداهم الانذار وعدم الانذار لفرط عنادهم وتصميمهم عليه جهلاً وضللاً، فهم لم يفيدوا من الانذار لأنهم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل فقد عطلوا لديهم وسائل الحس والادراك، فلم يتأثروا بالانذار، ولم يستجيبوا له، فهم لا يؤمنون ولا يخشون ربهم على خلاف المؤمنين الذين أفادوا مما أنعم الله عليهم من سمع وبصر وأفئدة فأفادوا بالانذار واستجابوا فكان دينهم الخشية من الله ربهم.

(١) سورة قاطر، الآية: ١٨. وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٣٢٤.

## فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ :

ترد هذه الكناية التعريضية على لسان سيدنا ابراهيم عليه السلام يعرض بها بقومه وبما كانوا يعبدون حين كثر أصنامهم وذلك في قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَطَمَتْ هَذَا بِحَالِنَا يَا بَرِئُومُ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ثُمَّ لَكُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ حَلَمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ (١)

الكناية التعريضية قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ، والبادي من هذه الكناية التعريضية أن سيدنا ابراهيم عليه السلام لم يرد بها اثبات نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما أراد اثبات الفعل له بالأسلوب التعريضي كي يلزمهم الحجة والبرهان على نحو من الاستهزاء بهم والتبكيت. قال الزمخشري: " هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه أن قصد ابراهيم ( صلوات الله عليه ) لم يكن إلى أن يندسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وأثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيقي وأنت شهير بحسن الخط: أنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط فقلت له: بل كتبتك أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك بهذا الاستهزاء به، لا نفيه عنك وأثباته للامي. لأن اثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وإثبات للقادر " (٢).

وأشار ابن الأثير إلى معنى آخر أبعد من الأول لهذه الكناية التعريضية بقوله: " وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الأصغار فكسرها، وغرض ابراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله - تعالى - من هو دونه، فإن من هو دونه مخلوق من مخلوقه، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثلاً لما اراده " (٣) وما رآه ابن الأثير يسلك في التمثيل، فيعمق الكناية.

(١) سورة الأنبياء ، الآيات: ٦٢ - ٦٥.

(٢) الكشاف: ٣ / ٩٨، وينظر: المثل السائر: ٣ / ٧٢. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١١.

(٣) المثل السائر: ٣ / ٧٢. ينظر: القوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، ص ١٣٤، ومن بلاغة القرآن: ٢٢٨.

وفي كلا المعنيين فإن إبراهيم عليه السلام يعرض بهم وبآلهم التي يعبدونها من دون الله عن جهل وظلم، وتقليد أعمى لأبائهم (١) يسيطر على أفكارهم ونفوسهم ويوجه سلوكهم فيصبحوا بلا عقل ولا تفكير، لأنهم يرون بعقول أبائهم حتى ولو علموا بأن آباءهم جاهلون. من هنا يأتي التعريض بهم وبآلهم أسلوباً بليغاً حياً يعمل على إيقاظ نفوس قومه وقلوبهم لإزالة غشوة التقليد الأعمى الذي غطى على الحقيقة التي غفلوا عنها. فالتعريض يحطم تلك الأغلال النفسية التي رانت على قلوبهم لتتجلى لهم الحقيقة، وليرد القلوب إليها والنفوس، وقد صور السياق لحظة رجوعهم إلى نفوسهم متدبرين متفكرين حين ألزمهم الحجة ﴿ فَرَجَعْنَا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّمَا أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي لسا ألزمهم الحجة وأخذ بمخالفتهم، رجعوا إلى أنفسهم متدبرين ومتفكرين فقالوا: انتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قاتم: ﴿ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) فهم يدينون أنفسهم وما هم فيه من سخف، وما في عبادتهم من ظلم - حين رجعت أنفسهم إلى الحقيقة الناصعة - إلا أنهم ارتدوا تلك الردة النفسية كما يصورها القرآن بالأسلوب الكنائي المجسد، ارتداد نفوسهم إلى عبادة الأصنام ﴿ ثُمَّ نَكْسُوا عَنْ رُؤُسِهِمْ لَمَّا عَلِمَتِ مَا هُمْ يَفْعَلُونَ ﴾. فالكناية ﴿ ثُمَّ نَكْسُوا عَنْ رُؤُسِهِمْ ﴾ حركة مادية غليظة تشير إلى ذلك المعنى النفسي وهو انقلابهم من الحقيقة الناصعة وهي بطلان عبادتهم وشركهم، وقد استشعروها لحظة عندما ألزمهم سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجة والبرهان، انقلبوا إلى الشرك والمجادلة عن أصنامهم بالباطل والمكابرة، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجمعوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة، مضرة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين ذفوا عنها القدرة على النطق" (٣). ويمكن أن نفهم الكناية ﴿ ثُمَّ نَكْسُوا عَنْ رُؤُسِهِمْ ﴾ على الحقيقة، أي نكسوا رؤوسهم حقيقة، فنكون بذلك كناية عن خجلهم وانكسارهم أمام الحقيقة التي بهتهم بها إبراهيم عليه السلام وقد أشار الزمخشري إلى هذا الفهم بقوله: "أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط أطرافهم خجلاً وانكساراً وانحزلاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام فقد

(١) ينظر: سورة الشعراء، الآية: ٧٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ٣ / ٩٨، وقولهم هو الآية ٥٩ من السياق نفسه.

(٣) الكشاف: ٣ / ٩٨.

أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم " (١) فهي الحجة القوية التي يلزمهم إياها. وفي التوجيهين للكناية ينكشف معنيان تشير إليهما على نحو جلي:

أولهما: مجادلة هؤلاء القوم لتبنيهم إبراهيم بالباطل والمكابرة على الرغم من استشعارهم الحقيقة في قرارة أنفسهم.

وثانيهما: عدم استنادهم إلى حجة يجادلون بها، فليس لهم إلا الإطراق، حجلاً وانكساراً أمام الحجة الواضحة والبرهان المبين.

### نبا الخصم:

يأتي هذا التعبير ضمن سياق تعريضي بسيدنا داود عليه السلام وهو قوله - تعالى -:

﴿ وَعَلَّ أَنْتَ نَبْؤَ الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا بِالْحِرَابِ ﴿١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاثْمَرَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا نُسْطِطُ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَرَبِّيَ أَحْسَنُ مِنْكَ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى يَمَلِكِهِ وَإِنْ كَبِيرًا مِنَ الْمَفْلُوقِ يَنْبِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٥﴾ بِنَدَاوُدَ إِذْنَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَسْرَابُ ﴿٦﴾ سَوَاءٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٧﴾ (٢)

من خلال هذه القصة يمرر التعريض بالنبي داود عليه السلام والتعريض هنا وسيلة سهدبية مؤثرة، فضلاً عن إيجازه، فهو " أبلغ في التوبيخ، من قيل أن التأمل إذا آتاه إلى الشعور بالمعرض به، كان أوقع في نفسه، وأشد تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتمامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة " (٣).

وقد ذهبت بعض التفاسير في تفسير هذه الآيات إلى ما يجانب الأصواب جريباً مع الأسرائيليات في التفسير بما لا يتلاءم مع طبيعة النبوة (٤).

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٩٨.

(٢) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٦.

(٣) الكشاف: ٤ / ٦٣.

(٤) ينظر مثلاً: الكشاف: ٤ / ٦٢.

## والنظر في هذه الآيات يلحظ :

- أن تسوّر الخصم المحراب والدخول على داود عليه السلام قد تمّ في صورة غير طبيعية.

ابن عباس: " إن داود عليه السلام جزأً زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً يجمع بني اسرائيل فيعظّمهم ويديكهم، فجأوه في غير يوم القضاء ففرع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه " (١). فتسوّرهم المحراب ودخولهم عليه كان بطريقة عجيبة ممّا سبّب فرحاً للذبي داود عليه السلام ﴿فَفَرِحَ بِهِمْ﴾ والذي يؤكد كونه من الأدباء العجيبة الاستفهام بـ، (هل) في قوله: ﴿وَعَلَّ أَتْنَكَ نَبْرًا الْخَصْمِ﴾ فظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه " (٢). وتسوّر المحراب بهذه الطريقة يوحي بأن الخصم ليس من البشر بل هما من الملائكة، قال الزمخشري: " تصدوا سورة ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع.. روي أن الله - تعالى - بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلوا عليه، فوجده في يوم عبادته، فمنعهما الحرس فتسوّروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بيمن يديه جالسان " (٣). فضلاً عن أن طريقة حوارهما مع النبي داود يؤكد بأنهما من الملائكة ﴿... فَتَعَكَّرَ يَتَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِلُ﴾ أي " ولا تجر. أي ولا تبعد عن الحق، وهي مجاوزة الحد وتخطي الحق " (٤)

- في سياق القصة رمز حيوي يشير إلى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ تَعْلَمُ وَإِنَّ كَيْدًا مِّنْ لِّقَاطِلِهِ لَبِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

- يلاحظ من سياق القصة أن سيدنا داود عليه السلام قد حكم لأحد الخصمين وهو الذي أدلى

بقوله وحجته: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ دون أن يمنح الخصم الآخر فرصة للدلاء بقوله وحجته - وهو النبي الملك الذي ولّاه الله أمر

(١) الكشاف: ٤ / ٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٦٣.

(٣) الكشاف: ٤ / ٦٣.

(٤) المصدر نفسه: ٤ / ٦٣.

الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، ومن هنا يتجلى امتحان النبي داود وابتلاؤه فيعرض به السياق تعريضاً مؤثراً، لأنه لم يبين الحق قبل إصدار الحكم، على الرغم من أن الخصم " قد اختاراً أن يعرضاً عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكون القاضي عليه ألا يستأثر، وعليه ألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، ويتكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً" (١). والتعقيب القرآني بعد ذلك يؤكد هذا المعنى التعريضي ويقويه، ويكشف عن طبيعة تلك الفتنة التي ابتلاه الله بها ﴿ فَفَعَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴾ ﴿ يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ... ﴾. كما يحلى من هذه القصة التي عرضت بسورة يٰۤاٰدٰمُ ﴿ يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْاَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ... ﴾

القضاء وأهميته في حياة الناس.

ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَنَ فِى الْاَرْضِ:

ترد هذه الكناية معرضة بالمسلمين على ما فعلوه في شأن أسرى معركة بدر، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَخَنَ فِى الْاَرْضِ فَرِيْدُوْكَ عَرَضَ الَّذِيْنَآ وَآلَهُ فَرِيْدُ الْآخِرَةِ وَآلَهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ (٢)

والإتخان هو " كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أتخنته الجراحات إذا أثبتته حتى تنقل عليه الحركة. وأتخنه المرض إذا أثقله من التخالة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله ويعز الإسلام ويقويه بالإستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك، ومعنى ﴿ مَا كَانَتْ ﴾ ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر" (٣).

فالإتخان بالمشركين في المعركة هو الذي كان يجلب على المسلمين أن يفعلوه وذلك لإضعاف قوة المشركين وكسر شوكتهم وبخاصة أن معركة بدر هي أول معركة مع المشركين، وأن المشركين كانوا كثرة والمسلمين قلة، فكان ينبغي على المسلمين أن ينقصوا عدد المحاربين المشركين بالقتل والمبالغة فيه لا أن يأسروهم ويستبقوهم ويطلقوهم بالفتية كما حدث، فعرض الله بالمسلمين على فعلتهم، وكشف عن دافع ذلك وسببه: ﴿

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٩٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٣) الكشاف: ٢ / ١٨٤. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٣ (تخن).

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴿١﴾ ، أي: حطامها، سمي بذلك لأنه حدث قليل اللبث، يريد الفداء ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يعني ما هو سبب الجنة من اعزاز الإسلام بالإتقان في القتل " (١).

وفي ذلك تقابل بين ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ وهو أخذ الأسرى وإطلاقهم بالفداء وبين ثواب ﴿الْآخِرَةَ﴾ الذي يريده الله للمسلمين والذي يسميه الأخوان في قتل المشركين الذي فيه اعزاز للمسلمين ونصرهم، قال الزرخسري: "والله يريد عرض الآخرة على التقابل، يعني ثوابها ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً وبطلق لهم الفداء، ولكنه ﴿حَكِيمٌ﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزوا وهم يعجلون" (٢) ومن شأن هذا التقابل أن يجلي ذلك المعنى الكبير الذي يجب أن يحرص عليه المؤمنون وهو أن يريدوا ما يريد الله لهم، وهو الباقي الذي لا ينفد وفيه عزهم في الدنيا والآخرة، وأن يتجردوا من عرض الدنيا القليل الذي ينفد وفيه ذلهم إذ يشدهم إلى الأرض ويؤخرهم عن الإنطلاق.

المثل بامرأة نوح وامرأة لوط:

يعرض القرآن من خلال هذين المثلين ببعض زوجات النبي محمد ﷺ في سورة التحريم وأولها: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَمْحَرِمٍ مَا أَسَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّىٰ مَرْثَاتٍ أَرْوَحَكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ قَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحْمِيلَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأْتِنِي إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاحِ سِدْرِيَا فَلَمَّا نَبَأْتُ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ وفي ختام السورة الكريمة يأتي المثلان على سبيل التعريض الذي يلوح بمعناه من بعيد محذراً سُدُوراً أَسَىٰ الْمُؤْمِنِينَ (حفصة وعائشة) - رضي الله عنهما - والتعريض بأم المؤمنين حفصة أرحح (٤)، والمثل هو قوله - تعالى -: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ تُوْجٍ وَامْرَأَتٌ لُّوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ فِرْعَوْنُ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

(١) الكشاف: ٢ / ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ١٨٥.

(٣) الآيات: ١ - ٤. ومما روي في أسباب النزول: "دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سرية، بيت حفصة فجاهت فوجنتها معه فقال يا رسول الله في بيتي تون بيوت ذنانك، قل: فدعا علي حرام أن

أسها يا حفصة واكتمى هذا علي فخرجت حتى أتت عدشة فأخبرتها فنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَمْحَرِمٍ﴾

الآيات. ينظر: لياق النقول في أسباب النزول، ص ٧٤٥-٧٤٦.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٥٨.

وَيَجِيءُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيَجِيءُ مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظُّلُمَاتُ ﴿١١﴾. جاء في التفسير: "مثل الله ﷻ حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم و عداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إيقاء ولا محابيات ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لخدمة نسب أو وصلة صهر، لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجنبي وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبياً من أنبياء الله، بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نالقتنا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج اغناء ما من عذاب الله ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ﴾ سائر ﴿الذَّالِمِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخلها من اخوانكما من قوم نوح وقوم لوط" (١)، ثم قال في المثل الثاني: "ومثل حال المؤمنين - في أن وصلة الكافرين لا تصرفهم ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله - تعالى - مع كونها أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمية، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أن قومها كانوا كفاراً" (٢). ففي طي هذين المثلين تعريض بالغ التأثير يأتي المؤمنين (رضي الله عنهما) المذكورتين في أول السورة على ما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وفي هذا التعريض تحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه، وذلك لأن في التمثيل ذكر الكفر ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوْحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ﴾ على الرغم من أن قوله ﷻ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو من لطائف التقويد، أي أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وفي هذا احتراس من أن يُحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه" (٣). وفي المثل الثاني إشارة إلى أن تكونا في الاخلاص والكمال كمثل هاتين المؤمنتين: ﴿أَمْرَاتَ فِرْعَوْنَ... وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ...﴾ وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ فإن ذلك لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، فهذه امرأة لوط أفضت عليه كما أفضت حفصة على

(١) الآيات: ١٠، ١١.

(٢) الكشاف: ٤ / ٤٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٤٥٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٧٤.

رسول الله ﷺ، وامرأة نوح قالت لقومها: إنه مجنون، فكلاهما تظاهرتا على الرسولين الكريمين بنفاقهما وإبطانتهما الكفر فكانت تعريضةما دخول النار مع الداخلين (١).

فالمثلان في ضوء ذلك يعدان كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي من بعيد والذي يفهم عن طريق الإشارة المهذبة التي تصون النفس الانسانية المخاطبة من الأذى وبخاصة - وهي تعرض بأبي المؤمنين فتحفظ لهما مقامهما الكريم في بلوغ المراد. وهذا من خصائص التعريض في القرآن الكريم فهو من " الأساليب البيانية يحتمه الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهذبة، تقويماً للخلق، وصيانة للنفس من العبث والغبط والآثارة المؤذية (٢).

يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً:

ترد هذه الآية الكريمة على سبيل التعريض بالسيدة الطاهرة مريم (عليها السلام) من قبل قومها وذلك في سياق سيدنا عيسى ﷺ، قال - تعالى -: ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ. قَالُوا يَا عَرِيضَةَ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيضًا ﴿١٠٠﴾ يَا أختَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْماً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٠١﴾ (٣)

والمعنى الظاهر القريب للآية: ﴿يَا أختَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْماً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٠١﴾﴾ كما جاء في التفسير: " أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الرجل الصالح المشهور.. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً، وقيل: رجل صالح مشهور في بني اسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى ﷺ، والمراد بالأخت المشابهة والمماثل في التقوى، ما كان أبوك امرأ صاحب سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانت أمك بغياً أي زانية. والأصل إذا كان زكياً فالغالب أن الفرع يكون كذلك، فمن أين لك هذا الولد؟ " (٤).

الأ أن الآية يمكن عدها كناية تعريضية تلوح بمعناها البعيد الذي يقصده قومها على سبيل التعريض بها، على الرغم مما تحمله الآية من معنى نبيل يقرّر طهارة السيدة مريم (عليها السلام) وصلاح سيرتها يعترف به قومها، ولكن يسم في الآية التعريض (بالزنا)، فهم لم يواجهوها صراحة بالمعنى، وإنما عرضوا بذلك تعريضاً قوي التأثير وبالغ، وذلك من خلال نفي السوء عن أبيها والبغي عن أمها، وندائها بأنها أخت هارون المشهور عندهم

(١) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٥٨.

(٢) أصول البيان العربي، ص ١١٩.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٢٧ - ٢٨.

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٥ / ٣٢١. وينظر: الكشاف: ٣ / ١١.

بالصلاح، فضلاً عن الاستفهام الضمني المفهوم من السياق بعد النفي (من أين لك هذا الولد ؟) الذي يفيد (التعجب) التعجب من هذا الشيء الذي جاءت به ولا يعرف مصدره، فمن خلال النفي والاستفهام يُمرَّر المعنى التعريضي الذي أشاروا إليه وهو (الزنا) يتَّهمون به الفئة الطاهرة النقية.

أفحسبئتم أنما خلقناكم عبثاً:

ويُلمح الأسلوب التعريضي البعيد إلى المكذبين بالآخرة، وهم المحجوبون عن التبصّر بحكمة النشأة الأخرى، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١).

والمعنى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: "عابثين، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم ترجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿عَبَثًا﴾ أي للعبث، ولترككم غير مرجوعين" (٢) هذا هو المعنى الذي توضحه الآية وتقرره، فحكمة البعث والنشور من حكمة الخلق، محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها، وما للبعث والنشور إلا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تماسها، ولا ينكر الحياة الأخرى ويغفل عنها إلا الكافرون المحجوبون عن حكمة الله الكبرى، المتجلية في صفحات الكون المبنوثة في أطواء الوجود (٣) ففي الآية تعريض بهؤلاء على أغلظ وجه وأشدّه لإذكارهم هذه الحقيقة التي غفلوا عنها وحسبوا أنهم لا يرجعون إلى الله ولا يحاسبون على أعمالهم.

ما هذا إلا بشرٌ مثلكم:

ترد هذا العبارة على سبيل التعريض بسيدنا نوح عليه السلام على لسان الكبراء من قومه، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسُحِبْنَا بِهِ فَإِنِ ابْتَدَأَ بِالسَّمَاءِ السُّفْلَى لَغَوَّابٌ﴾ (٤)

(١) سورة المؤمنون ، الآية: ١١٥.

(٢) الكشاف: ٣ / ١٦٢. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٣٢١-٣٢٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ٥٠.

(٤) سورة المؤمنون ، الآية: ٢٤. وينظر: سورة هود ، الآية: ٢٧.

وهذه قولة الكبراء من القوم يطلقونها من هذه الزاوية الضيقة ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> واسلوب القصر بالنفي والاستثناء يؤكد تلك النظرة الضيقة التي ينظرون منها، فهم ينظرون إلى شخص النبي بوصفه رجلاً لا يفترق عنهم بشيء بقصر (الموصوف: النبي الرسول) على (صفة: البشرية) فحسب، دونما نظر إلى ما يدعوهم إليه من دعوة كريمة عظيمة مجردة عن الأشخاص والذوات، فالرسول في نظرهم بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم ﴿ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي: " يطلب الفضل عليكم ويرأسكم " (١)، وأنتم أنتم فلا تخلوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه ﴿ وَكَوَسَّاءُ اللَّهُ ﴾ إرسال الرسول ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي رُسلاً منهم ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر ﴿ فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴾ يدل على فرط جهلهم بأحوال الأمم الماضية، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهوراً معهوداً معلوماً، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده " (٢). فهو الكذب والعناد والمكابرة، وإلا فإن إرسال الرسل من البشر إلى البشر لا من الملائكة هو رحمة من الله ورعايته بالبشر، فضلاً عن تكرمهم، فالنبي البشر هو من جنسهم وطبيعتهم يحسن احساسهم ويشعر شعورهم، يالفهم ويألفونه.. فهو أقدر على إبلاغهم الرسالة بكل تكاليفها من غيره، كالملائكة، كما يقترحون، فالملائكة جنس من غير جنسهم، وطبيعة من غير طبيعتهم، فلا يألفونهم ولا يذسجون معهم كالرسل من البشر، ولكنها المكابرة التي يتوارى معنى آخر يفهم عبراتهم ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ على سبيل التعريض " بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ " (٣)، ويقوي هذا المعنى التعريضي قولهم: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، بالنبوة التي هم أحق بها منه كما يزعمون لأنهم يملكون الجاه والرياسة والأمال والقوة.. وهو ذات المعنى الذي قصده الكافرون والمشركون على عهد الرسول ﷺ بقولهم الذي حكاه القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٤) فهو لاء كؤلئك يحسبون بحساب المادة والتجارة والقوة، وينظرون بذواتهم الصغيرة تلك النظرة الضيقة التي تحجب عنهم جوهر الرسالة

(١) الكشاف: ٣ / ١٤٤.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٢٤.

(٣) المثل السائر: ٣ / ٧٢. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤. وينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص ٢٢٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

وطبيعة النبوة وأهدافها التي تتغيا اصلاحهم وإبراز انسانياتهم المطموسة " فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها، وذواتهم الصغيرة الضئيلة تحجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها، وإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم، يُريد أن يتفضلَ عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم " (١).

### أولوا الأيدي والأبصار:

تتواشج الكناية والتعريض في تركيب واحد، نلاحظ ذلك في وصف الله ﷻ لأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) بأنهم: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرُ عَبْدًا آتَيْنَاهُ الْإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٢). قال الزمخشري في قوله - تعالى -: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾: " لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، وعلى ذلك ورد قوله ﷻ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم المرضى الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكّنين منهما " (٣). وبذلك يكون التعبير القرآني: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية عن العمل الصالح بالأيدي الذي هو مصدر قوة لصاحبه، فضلاً عن العمل الصالح بالنظر الصائب والحكمة والفكر السديد بالأبصار، وكلا المعنيين متصل بالآخر ومنبثق عنه ويكمّله، فهو المعنى الأشمل للعمل الصالح المستقر في النفس مشاعر وأفكاراً ومن ثم يتجسد في الواقع حركةً وبناءً، وبذلك يكون مظهراً من مظاهر القوة والبناء، كما تلمح الكناية إلى ذلك بالأيدي والأبصار، لذلك يجعلها القرآن نعمة تستحق الذكر الحسن والثواب الكريم.

ومن جانب آخر يمكن عدّ التعبير ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي من بعيد، فضلاً عن معناها الظاهر المعلوم. المعنى البعيد تعريض

(١) في ظلال القرآن: ٦ / ٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٥.

(٣) الكشاف: ٤ / ٧٦-٧٧.

بالذي لا يعمل صالحاً فهو كالذي لا يد له، وبالذي لا يفكر تفكيراً سليماً صانئاً فهو كالذي لا عقل له ولا نظر (١)؛ فهو أعمى القلب والبصيرة لا يتفكر ولا يتدبر لأنه يفقد الإيمان بالله الذي يبعث قوى النفس على التبصر الذي يوجهه إلى العمل الصالح، وفي ذلك تقابل ضمني بين الإيمان بوصفه معلماً من معالم القوة والبناء، وبين الكفر الذي هو ضعف وانحلال وفساد للانسان والحياة.

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صنماً وعمياناً:

يُقدم القرآن أمودجاً من الذين لا يسمعون سماع الهدى والإيمان ولا يبصرون بصر الهداية على سبيل التعريض، بهذه الآية التي يسجل بها سمة من سمات عبد الرحمن الذي إذا ذكروا بآيات ربهم حرصوا على استماعها بأذان واعية وعيون راعية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٢)

فهذه سمة من سمات عباد الرحمن التي ذكرها السياق (٣) فهم يتلقون آيات الله بالفهم والاعتبار، فيخرون لله من غير صمم وعمى، قال الزمخشري "﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ ليس بنفي للحرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بأذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم" (٤).

وَدَعَدَ الآية كناية تعريضية تتجاوز معناها الظاهر المعلوم إلى ما تلوح به من معنى تعريضي يستهدف المشركين الذين يتكبرون على آياتهم وأباطيلهم دون إدراك أو تفكير، فهم صم وعميان لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس (٥). وفي الكناية التعريضية تصوير لحركة الإنكباب على الوجه بلا سمع ولا بصر حركة تشير إلى معناها، ويتمثل في الجهل والتعصب الأعمى لما يتكبرون عليه على خلاف عباد الرحمن الذين يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في آيات الله من صدق فيؤمنون إيماناً واعياً

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٠٣ / ٧.

(٢) سورة الفرقان: ٧٣.

(٣) ينظر: الآيات: ٦٣ - ٧٤.

(٤) الكشاف: ٣ / ٢٣٣.

(٥) ينظر: سورة النجم، الآية: ٢٣.

بصيراً، لا تعصياً أعمى ولا انكباباً على الوجوه، وإنما يؤمنون بإيمان الاعراف المدرك البصير<sup>(١)</sup>. ومن خلال الكناية التعريضية يتقابل الفريقان على سبيل التضاد ليتجلى حال الفريقين: المشركين والمؤمنين، فينتعمق المعنى في ذهن المتلقي وحده، بين حال المؤمنين في صورتهم الوضيئة: إيماناً وإدراكاً ومعرفة.. وبين حال المشركين المعرض بهم في صورتهم المظلمة: عمياً وصماً وجهلاً.. فهما صورتان متضادتان تجلي عالَمين مختلفين.

وما هي من الظالمين ببعيد:

ترد هذه الكناية التعريضية في سياق تصوير العذاب الذي حلّ بقوم لوط في قوله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مَّنْضُورٍ ﴿٦٠﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٦١﴾ <sup>(٢)</sup>

وهي صورة مروعة من العذاب. والمروي في التفسير " أن جبريل عليه السلام قلع المدائن بيده بالقدرة المودعة له، في صورة بركان هزّ المدائن وقلعها من محلها وطيرها إلى ارتفاع بقدر ما شاء الله، فقلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان " <sup>(٣)</sup> وفوق هذا العذاب المروع الأليم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وذلك زيادة في نفضيع حالهم <sup>(٤)</sup> وتحقير شأنهم

﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ قيل: " الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمزون بها في مسائرهم حيث جديشيء بعيد " <sup>(٥)</sup> فهي قريبة في مشهدها الذي يحكي العذاب الأليم الذي حلّ بقوم لوط، وفي عذابهم آيات للمعتبرين الذين يخافون العذاب الأليم كما قال - تعالى - في موضع آخر تعقيباً على مصرع قوم لوط: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا لِسَبِيلِ مُقِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(٦)</sup> ولكن الظالمين لا يعتبرون بمصارع الغابرين.

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) سورة هود، الآيات: ٨٢، ٨٣، سجيل: حجارة من طين. ومسومة: معلمة. ينظر: تفسير الجلالين، ص ٣٠٣.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤. وينظر: الكشاف: ٢ / ٣٢٥.

(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤.

(٥) الكشاف: ٢ / ٣٢٥.

(٦) سورة الحجر، الآيات: ٧٥، ٧٧. وينظر: سورة الذاريات، الآية: ٣٧.

ويُفهم التعبير القرآني: ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ على أنه كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي الذي يستهدف الظالمين ويؤوِّدهم ويهدِّدهم بعذاب أليم بنيس كعذاب قوم لوط، فكلاهما ظالم يستحق العذاب، وسنة الله لا تحابي أحداً، فهي سنة لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ<sup>(١)</sup>، وإن اختلف نوع العذاب وشكله الذي يحل بالظالمين.

وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير لما وهنوا لما أصابهم...:

يعرض القرآن بالمسلمين المقاتلين في معركة أخذ بما أصابهم من الوهن والاندسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم في مجاهدة المشركين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ﴿١٠٠﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ نَوَافِلُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾

والمعنى الظاهر للآية كما جاء في التفسير: "وكثير من نبي قاتل وجاهد وحارب الكفار معه ربيون أي أناس علماء زهاد أتقياء منسوبون إلى ربهم نسبة الاختصاص والإخلاص، أو قاتل معه جمع كثير من أتباعه، وأصيبوا في سبيل الله بجراحات ومصائب من قتل الآباء والأولاد والحواشي والتهاب الأموال ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما حصل لهم الفتور في الجهاد ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في الدين ولا في مقابلة العدو ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا لهم، والله أحبهم لأنهم كانوا صابرين على الأذى في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾" <sup>(٢)</sup>

وما كان قولهم مع الجهاد في سبيل الله وقبول مصائبه وجراحاته ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم رباتين هضماً لها واستقصاراً والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو وليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع أقرب إلى الاستجابة ﴿فَكَانَتْ لَهُمْ نَوَافِلُ الْآخِرَةِ﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب

(١) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص ٢٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦-١٤٨.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢٧٠-٢٧١. وينظر: الكشاف: ١ / ٤٦٩.

الآخرة بالدحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عنده " (١) يجزي به عباده المؤمنين الصابرين.

غير أن الآية الكريمة: ﴿ وَكَانَ مِنْ نَجْمِ قَتَلٍ مَعَهُ رِيُونَ كِهْدٌ فَمَا وَهَتُوا لِنَا أَصَابِيَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ﴾ نفهم على أنها كناية تعريضية تدطوي على معنى يعرض بالمتهمين من أرض المعركة في أحد بسبب الضعف الذي أصابهم في مجاهدة المشركين وانكسارهم واستكانتهم للمناققين المرحفين يقتل رسول الله ﷺ، قال الزمخشري: " وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانتكسار عند الارجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم " (٢). والتعريض بالمسلمين المنهزمين الذي يبين ضعفهم واستكانتهم ذو بعد تربوي نفسي يهدف إلى بناء تلك النفوس الضعيفة الإيمان من خلال كشف ضعفها لتجاوزها ، فما ينبغي للنفوس المؤمنة المتصلة بالله أن تضعف وتستكين في مجاهدة الكافرين، والله مولاها وناصرها وهو خير الناصرين.

وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ:

ترد هذه الكناية العريضية في قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ

قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّكُمْ لَمَّا هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٣).

ثمّة نلاحظ الآية تأمر الرسول ﷺ بتوجيه سؤال إلى المشركين ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وفي توجيه السؤال من الرسول ﷺ ثم الإجابة عنه بدلاً من المشركين " إشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به، لأن الذي تمكّن في صدورهم من العناد وحبّ الشرك قد أجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوّوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما بالكم لا تعبدون من يرزقكم وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق" (٤)، وفي ذلك تبيّنت للمشركين والزام بالحجة الواضحة التي لا تحتاج إلى البيان.

ومن ثم تأتي الكناية التعريضية بعد الزامهم بالحجة والجامهم بها ﴿ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ

لَعَلَّكُمْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ والمعنى: " وإن أحد الفريقين من الذين يوحسون الرزاق من

(١) الكشاف: ١ / ٤٦٩.

(٢) الكشاف: ١ / ٤٦٩.

(٣) سورة سباء، الآية: ٢٤.

(٤) الكشاف: ٣ / ٤٥٨.

السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، على أحد الأمرين من الهدى والضلال" (١). وليس في العبارة القرآنية إيهام بعدما أزمهم الحجة التي تقرّ بها قلوبهم، وبعدها قدم من التقرير النبليغ بما فيه من دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكنه " التعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، واهجم به على الغاية، مع قلّة شعب الخصم وفلّ شوكته بالهويّنا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومثلك، وإن أحننا لكاذب " (٢). فالكناية التعريضية تهدف إلى تبييتهم وتسفيه ما يعيدون بالأسلوب الهادي الذي يأخذ بخناقهم، وإلا فإن الهدى واضح بيّن، وصاحبه على الحق مستعلٍ والضلال واضح بيّن، وصاحبه كأنه منعّمس في ظلام، كما صور ذلك الحرفان، " على وفي ﴿ لَمَلَأْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ " لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منعّمس في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجه " (٣). ففي الحرفين اخراج للمعنى في صورة تشخيصية حيوية مؤثرة تمنحنا دلالة مصوّرة، نرى فيها الرسول ﷺ والمؤمنين على الهداية، في حين إنّ المشركين المجادلين في الضلال، وفي ذلك تقرّيب معنى الحق وأصحابه، وتقرّيب معنى الكفر والشرك وأصحابه، فصاحب الحق لظهور حجته وقوة إيمانه وتمكّنه من دينه كأنه مستعلٍ ظهر جواد يهديه كيف يشاء، و(على) دالة على الاستعلاء موحية بهذا المعنى، أما أصحاب الباطل المعرّض بهم، فهم لشركهم وكفرهم ومكابرتهم كأنهم منعّمسون في ظلمة ليس فيها بصيص من نور، و (في) الدالة على الظرفية تدل على هذا الانغماس في ظلمات الضلال (٤).

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٢) الكشاف: ٣ / ٤٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٤٥٩. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ٠ ص ٩٨.

(٤) ينظر: الكشاف: ٣ / ٤٥٩. والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠٣. وينظر: نظرية الحروف

العامة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، هادي عطية مطر الهلالي، ص ١٦٨.

(\*) هو حبيب بن إسرائيل النجار (صاحب يس)، ينظر: الكشاف: ٤ / ٧. وتفسير الجلالين، ص ٥٨٣.

ومالي لا أعبدُ الذي فطرنِي وإليه ترجعون:

يعرض القرآن بالمشركين على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى<sup>(١)</sup> وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٤﴾ إِنْ أَرَادْتُ إِذًا لِي ضَلَالِي مُبِينٌ ﴿٥﴾ إِنْ أَرَادْتُ بِرَيْبِكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٦﴾ ﴾<sup>(١)</sup>

والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أي من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٌ ﴾ وهو حبيب ﴿ يَسْعَى ﴾ أي يسرع في مشيه حرصاً على نصيح قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ أي ثابتون على الحق والاهتداء ﴾ وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴿ تَلَطَّفَ في إرشاد قومه بإيراد الكلام في معرض المناصحة ﴾ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ مبالغة في تهديدهم بتخويتهم من الله الذي يرجعون إليه وهو شديد العقاب ﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿ إِنْ أَرَادْتُ إِذًا ﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لِي ضَلَالِي مُبِينٌ ﴾ أي واضح فإن أشركت مالا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال ﴿ إِنْ أَرَادْتُ بِرَيْبِكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك " (٢)

وقوله - تعالى -: ﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ينطوي على معنى تعريضي<sup>(٣)</sup> فضلاً عما قررره من معنى قريب، فهو تعريض بقومه، والمراد: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم<sup>(٤)</sup>، ولولا التعريض لكان المناسب أن يقال: الذي فطرنِي وإليه أرجع<sup>(٥)</sup>، فهو يعرض بقومه وبما يعبدون من دون الله وما يقوي التعريض ويجليه قوله بعد ذلك، فقد ساقه ذلك المساق: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾، والمراد: أنتخذون من دونه آلهة " (٦) إلى أن قال: ﴿ فَأَمَّا إِنْ بِرَيْبِكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ دون (ربي) و (فاسمعوه)<sup>(٧)</sup>

(١) سورة يس، الآيات: ٢٠ - ٢٥.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٢، والاتقان في علوم القرآن: ٣ / ١١٨.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤ / ٨، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٢.

(٥) ينظر: الكشاف: ٤ / ٨، والبرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٢.

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٣١٢.

(٧) ينظر: المصدر نفسه والمكان نفسه.

وبذلك يتجلى المعنى التعريضي بهم وبآلهتهم، ينال منهم بطريق خفي إذ يسفه ما هم فيه حال كونهم ضالين عن الصراط المستقيم لا معذّل عنه، فهم يعبدون من لا تصح له العبادة، لأنهم عطّلوا عقولهم وقلوبهم، فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع، ولا تدع شفاعتهم شيئاً، ولم يمكّنوا من أن يكونوا شفعا عن الله، ولم يقدروا على انقاذهم، فهم في عبادتهم في ضلال بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز<sup>(١)</sup>، فالتعريض يكشف عن حالهم بعمق، وينال منهم بهذه الطريقة التعريضية اللطيفة، إذ سلك المتكلم كلامه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، فهو يتضمن اعلامهم على صورة لا تقضى مواجعتهم بالخطاب المنكر، وكنهه لم يعنهم، وبذلك يكون المعنى أدعى للتأثير في انفسهم والقبول له، فضلاً عن أن هذا التعريض يدل على محاسن أخلاق المتكلم وتواضعه حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.. وفي ذلك تعليم في الخطاب للذين يعقلون<sup>(٢)</sup>.

لا تُسئَلونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسألُ عَمَّا أَجْرَمْنَا:

ويقهم التعريض بالكافرين من هذه الآية كالأية السابقة<sup>(٣)</sup> وهي قوله - تعالى -:

﴿ قُلْ لَا تُسئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسألُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

فلولا القصد بالآية التعريض بحال الكافرين وما هم عليه من إجرام في أعمالهم من كفر ومعاص، لكان حق الحال من حيث الظاهر أن يُقال: (لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون)<sup>(٥)</sup> ولمكنه أسند (الإجرام) إلى المتكلم، والعمل إلى المخاطبين، على سبيل التعريض بهم، فيكون التعريض "أدخل في الإنصاف وأبلغ"<sup>(٦)</sup> لأنه يحقق المقصود على سبيل التلطّف<sup>(٧)</sup> بهم، وهو التأثير في انفسهم لقبول ما تهدف إليه الآية في استدراجهم إلى الإذعان والتسليم، فالتعريض يكشف عن حالهم وما هم فيه من إجرام وتنكّب عن الصراط المستقيم، وينال منهم في صورة خفية لطيفة، فضلاً عما يدل عليه من محاسن أخلاق المتكلم في الدعوة والخطاب وهو يواجه النفوس المجرمة للكفر والمعاصي والآثام فيتلطّف معها

(١) ينظر: الكشاف: ٨ / ٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ٨ / ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢، والاتقان في علوم القرآن: ٤٨ / ٣.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٥.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٦) الكشاف: ٤٥٩ / ٣.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

هذا التلطف لعلها تتأثر وتستجيب لما يدعوهم إليه من خير، فتقلع عمداً هي فيه من إجرام وأثام.

لَوْ أُنزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ:

ورد هذا التعبير في المثل القرآني، وهو قوله - تعالى - ﴿لَوْ أُنزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

وبنية هذا المثل القرآني قادمة على التصوير المجازي في نسبة الخشوع والتصدع والخشية إلى الجبل الأصم، "وليس من شأن الجبل أن يخشع ولا أن يخشى والخشوع والخشية، كلاهما من أفعال القلوب التي لا تصدر عن جماد، إلا أن يكون ذلك من صنع البيان إذ يثبت الحياة في الصخر الأصم" (٢)، والمعنى "أن الجبل لو كان مما يعي القرآن، ويعرف البيان، لخشع في ساعه، ولتصدع من عظم شأنه على غلظ إجرامه، وخشونة أكفاه، فالإنسان أخف بذلك منه، إذ كان واعياً لقوارعه، وعالمماً بصوادعه" (٣) وفي ذلك بيان منزلة القرآن وعظمته، وشدة تأثيره في النفوس (٤).

غير أن هذا التعبير القرآني يمكن عده كناية تعريضية بالإنسان الذي لا يخشى ولا يخشع، وقد كشف الزمخشري عن معناها بقوله: "والغرض توبيخ الإنسان على فسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجه" (٥).

فإذا كان الجبل الأصم يخشع ويتصدع من خشية الله، فمن باب أولى أن يخشى هذا الإنسان ويخشع وهو المعنى بالخطاب، وبذلك تتجلى الدلالة النفسية التي يهدف القرآن إلى إحداثها في الإنسان المؤمن بخاصة وهو يتلقى آيات القرآن بالتدبر والتفكير فيتأثر ويستجيب خاشعاً من الله خاشعاً له.

ضَرْبُ الْمَثَلِ بِالْقُرْيَةِ الْأَمْنَةِ الْمُظْمَنَةِ:

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.  
(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢٠٩. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ١٦٠.  
(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٣٠. وينظر: مواهب الرحمن تفسير القرآن: ٧ / ٣٠٥.  
(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٢٢، ٣٢٤.  
(٥) الكشاف: ٤ / ٥٠٦.

يمكن أن يعدّ هذا المثل القرآني كسابقه كناية تعريضية، وهو قول - تعالى -:  
﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ  
اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١)

والمثل القرآني يجسد العذاب في صورة سُبح مفرغ مخيف مذاق، إذ تحول الجوع والخوف وهما معنويان إلى صورة حسية على شكل لباس يغشى أهل القرية بالاستعارة التصريحية ﴿ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ وللشريف الرضي تحليل لهذه الاستعارة منه قوله: " وإنما قال - سبحانه -: ﴿ لِيَاسَ الْجُوعِ ﴾ ولم يقل: طعام الجوع والخوف، لأن المراد بذلك - والله أعلم - وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم، كاشتمال السلايس على الجلود، لأن ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف، من سوء الأحوال، وسُحوب الألوان، وضوولة الأجسام، كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم " (٢)

وقد أكد الزمخشري هذا بقوله: " " وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: كما غشى الإنسان والتمس به من بعض الحوادث، وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف، فإنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكانه قيل: فاذاقه ما غشيه من الجوع والخوف " (٣) ففي المثل " تتداخل استجابات الحواس فتضاعف حس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس " (٤) واستجابات الحواس تتمثل في استعارة (الذوق) إذ تعمق درجة الاحساس ووطأة العذاب الذي عانته هذه القرية " لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كذلك الشدة في المذاقة " (٥)

وهذا العذاب الأليم الذي يغشى أهل القرية ويلابسهم كما جسده التصوير الاستعاري في المثل القرآني يمكن أن يُفهم على أنه كناية تعريضية تستهدف في معناها التعريضية البعيد أهل مكة وما يصيبهم من العذاب الأليم، إذا هي كفرت بالله وأنعمه شأنها شأن الأمم السابقة، فضرب الله مثلاً على سبيل التعريض بمكة إنذاراً من مثل عاقبتها (٦) بل يمكن أن

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٩٧.

(٣) الكشف: ٢ / ٤٩٨.

(٤) في ظلال القرآن: ٥ / ٢٨٨.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٠.

(٦) ينظر: الكشف: ٣ / ٤٩٧. وينظر: تفسير الجلالين، ص ٣٦٧. وينظر: الصورة الفنية في المثل

القرآني، ص ٢٦٣.

يُفهم المثل القرآني على أنه كناية تعريضية شاملة في معناها تشمل مكة وأهلها، فضلاً عن كل قرية أنعم الله عليها فكفرت بالله وأبترتها النعمة في كل زمان ومكان. وبذلك يبقى المثل القرآني يشع بمعناه التعريضي منذاراً بالنقمة والعذاب لكل قرية تكفر بالله وأنعمه. ومن خلال ما استعرضنا من الكنايات التعريضية يتبين أن لها سمات فنية فهي تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقّق معناها أولاً، ثم تصل إلى الغرض أو المعنى البعيد الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرض به، لذا تُعدّ من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني بما تحتمه لغته المهدّبة تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الانسانية من العبث والغبط والإثارة المؤنّية، ولذلك - أيضاً - يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على أحداث الاستجابة النفسية المناسبة التي يُقصد القرآن إلى أحداثها في النفس الانسانية المتلقية.

## الفصل الثامن

### كنايات عن يوم القيامة

تتعدد الكنايات في القرآن الكريم عن يوم القيامة، ويوم القيامة - كما يصفه القرآن - هو ذلك اليوم الذي يحدث فيه الانقلاب الكوني العظيم (١) ، ومما يجلي شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِيكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَدِيدٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ (١)

ويستخدم القرآن في التعبير عن ذلك اليوم العظيم اللفظاً كنايية متعددة، كل لفظ يجلي صفة من صفاته وأهواله، وكلها تشير إلى: انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس " (٢) الذي يضيئها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والإنسان فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس (٤) وهي: توحيد الله ﷻ في ألوهيته وربوبيته للكون والخلق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضله على كذير من خلقه تفصيلاً (٥)؛ لذلك كان من صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤدبها (٦).

(١) ينظر مثلاً: سورة التكويد، الآية: ١١، وسورة الانقطار، الآيات: ١-٤، وسورة الانشقاق، الآيات: ١-٥، وسورة المرسلات، الآيات: ٨-١١.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٢-١.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٣.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٣ / ٤١٤، وينظر: التفسير البياني القرآن الكريم، د. علاشة عبد الرحمن: ٧٩ / ١.

(٥) ينظر: سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٦) ينظر: التعبير الفني في القرآن، بكرى شيخ أمين، ص ٢٥٢. وينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ٢ / ٧٩.

منها هذه الكنايات التي ترد - على الأعم الأغلب - في مطالع هذه السور فتلقت الانتباه لفتناً قوياً في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف.

ومما يتصل بهذه الكنايات عن يوم القيامة كنايات أخرى تتعلّق بمشاهد الأناجين والمعذبين في ذلك اليوم المشهود. مشهد الأناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤثون كتبهم باليمين، ومشهد المعذبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤثون كتبهم بالشمال أو من وراء الظهر. وإثناء الكتاب باليمين للأناجين الفائزين، وإثناء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر للمعذبين الخاسرين هي كنايات تشير إلى المعنى المكنى عنه الذي يقصده القرآن الكريم، وسنحاول عرضها بعد عرض الكنايات عن يوم القيامة كلّ على حدة بالتحليل الذي يكشف عن المعنى الذي ينطوي وراءها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

### الواقعة:

نأتي الواقعة كناية عن يوم القيامة في موطنين من القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ ﴿ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ ﴿ وَسُيِّتَ الْجِبَالُ ﴾ ﴿ بَسًا ﴾ ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ <sup>(١)</sup> وجاءت في قوله - تعالى - أيضاً: ﴿ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ﴿ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ <sup>(٢)</sup>. ﴿ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ المراد: القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة لأي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله <sup>(٣)</sup>.

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿ الْيَوْمَ ﴾ إلى الكناية عنه بلفظ ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ لا لانتباه معناها للقيامة حسب، وإنما لأدبك الشاهد والدليل، وهو أنها ستقع لا محالة، وحتمية وقوعها يشهد بها العقل الإنساني في دراساته العلمية والفلكية التي تؤكد سير العالم إلى نهاية محنومة. وسيرتب على هذا الوقوع مشاهد محسوسة للأناجين بالجنة والخاسرين الذين يساقون إلى جهنم إن لتعبير عن القيامة بالكناية ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ تنقل فكرة البعث والنشور من

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١ - ٧.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ١٣ - ١٥.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٦٢.

دائرة الجدل إلى المسلمات<sup>(١)</sup>، وفيه سنقع وقعة صادقة ليس لها رجعة ولا ارتداد<sup>(٢)</sup> في صورة كلاها تهويل وتفخيم لسانها، والتهويل يتجلى من المطلع، فهو يبدأ بإذا الشرطية المحذوف جوابها، وحذف جواب (إذا) يحقق دلالة التهويل والتفخيم لمعناها إذ يترك لخيال المثالي ونفسه أن يذهب في تخيله وتصوره كل مذهب وكآته - جواب إذا المحذوف - لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات أو ليس لها طاقة تعبيرية عما سيحدث ويقع<sup>(٣)</sup> فضلاً عن أن لفظ الكناية ﴿الواقعة﴾ في حد ذاته يفيد العموم والشمول والاشدة والمبالغة في إثبات المعنى وصورته، وذلك لأن لفظ الكناية من الأسماء التي خدمت ببناء التأكيد فانتقلت من الوصفية إلى الاسمية، لذا كانت أغلب أسماء الحشر مؤنثة كالقارعة والحاقة والطامة والصاخة لما فيها من العموم والشمول والشدّة والقهر<sup>(٤)</sup>، والتعريف في ﴿الواقعة﴾ تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبير<sup>(٥)</sup>

وتتصاعد دلالة تهويل ﴿الواقعة﴾ وتفخيمها بتكرار ﴿إذا﴾ الشرطية دون ذكر جوابها أيضاً: ﴿إِذَا رَحَّتِ الْأَرْضُ رَجًا \* وَسَبَّتِ الْجِبَالُ بَسًا \* فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا \* وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾

وما ذكر من أحداث وأحوال من رج الأرض، وسب الجبال وجعلها هباءً منبثاً هو بمثابة مقدمة مروعة سيكون فيها، فهو التهويل والتفخيم لسانها، فضلاً عن أن الجرس الموسيقي للافظ الكناني ﴿الواقعة﴾ يتناسب مع سياق التهويل والتفخيم ويدل عليه، فـ ﴿الواقعة﴾ بمعناها وبجرس اللفظ ذاته، بما فيه من مد ثم سكون يتوسطهما حرف القاف من حروف الحلق المعروفة بضخامة صوتها وشدّة وقعها في السمع وفي النفس تُلقى في الحس كأنما هي ثقل صخيم ينقض من عل ثم يستقر، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال<sup>(٥)</sup>

(١) ينظر: سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد عريب، ص ٢٧. ولمزيد من التفصيل في توضيح الأدلة العقلية والأخلاقية والاجتماعية التي تدل على حتمية وقوع الواقعة. انظر الصفحات: ١٧ وما بعدها من المرجع نفسه.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤ / ٣٦٣.

(٣) حذف جواب إذا في القرآن يشكل ظاهرة بلاغية ملحوظة في سياق يوم القيامة وهي تحقق إيجازاً وبلاغة في التعبير، ينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٣٤٨.

(٤) ينظر: معاني الأبدية في العربية: ١٢٢، ١٢٣، والعرب يستعملون التأكيد دلالة على المبالغة في النوع. ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٥) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٩.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٧ / ٦٦٤.

على أن أجلى إحياء لكناية ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ هو حتمية وقوعها، لذلك قال بعدها ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَذِبٌ﴾ لتأكيد ذلك المعنى وترسيخه في الذهن والحس. فهي لا بد واقعة، كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة، فهي ذات إحياء مقصود في صدد الارتياح فيها والتكذيب<sup>(١)</sup>.

### القارعة :

وردت الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿ (٢)

﴿الْقَارِعَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةُ﴾ ، وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْقَارِعَةُ﴾ لا لاثبات ذلك المعنى للقيامة، وإنما لاثبات شاهده ودليله، وهو أنها تفرغ القلوب وترعجها بأهوالها، وذلك تفخيماً لسان القيامة في النفوس " (٣).

ولفظ الكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ في حد ذاته يقيد العموم والمُسْمُولِ والشدة والقهر في اثبات معناها، لأنها من الأسماء التي خُتِمَتْ بئاء التأنيت فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، والكناية ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ليست وصفاً لكل ما يقرع وإنما هو اسم لهذا اليوم المخصص<sup>(٤)</sup> كما أفاد التعريف تمييزاً لها من غيرها، فهو يوم القيامة الذي لا يحيط بوصف أهواله العقل والتصور، لذلك فإن السياق يفخم من شأن يوم القيامة ويؤكده ويعظمه بالاستفهام والتكرار: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ، فهو الأمر العظيم الذي يثير التساؤل، ثم " أجاب بسؤال التجهيل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿ ولم يُجِبْ عن ما هيّة ذلك اليوم وحقيقته، فهو فوق التصور والإدراك أجاب بما يكون فيه ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿ ، وهذا الأسلوب الذي يفخم من شأن يوم القيامة ويعظمه هو الملحوظ في كُنَايَاتِ يوم القيامة المروّع المفزع.

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٣ / ٨.

(٢) سورة القارعة، الآيات: ١، ٥، ٥، ١، وينظر: صورة الحاقة، الآية: ٤.

(٣) علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص ٢٢٣.

(٤) ينظر: معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢.

على أن اجلى إحياء للكناية ﴿الْفَارِعَةُ﴾ أنها تفرغ القلوب والأسماع يفتنون الأهوال والأفراع<sup>(١)</sup> وتفرغ الكون بالدمار والتحطيم، ويعمق هذا الإحياء الجرس الموسيقي المتبعث من حروف لفظ ﴿الْفَارِعَةُ﴾ الذاق والمراء والعين المعروفة بقوتها وشذتها، هذا فضلاً عن المدّ في صوت الألف.

وأصل القرع: " الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتم القرعة وفقرتهم الفارقة، إذا وقع بهم أمر عظيم " (٢) ووردت ﴿فَارِعَةٌ﴾ ﴿... وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣) ﴿فَارِعَةٌ﴾ كناية عن أمر عظيم يقع بهم، وتكبير الكناية ﴿فَارِعَةٌ﴾ يدل على العموم والشمول في المعنى، قال الزمخشري: " ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿فَارِعَةٌ﴾ داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ منهم فيفزعون ويضطربون ويتطايرون إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها " (٤).

فهي ذات معنى شامل وصفاً لكل ما يفرعهم ويزعجهم من صنوف البلايا في حياتهم الدنيا بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وبهذا التكبير للكناية تفترق في دلالتها عن ﴿الْفَارِعَةُ﴾ بهذا التعريف في دلالتها المخصصة ليوم القيامة، فهي ليست وصفاً لكل ما يفرع، وإنما هي اسم ليوم القيامة على وجه التخصيص. وعلى الرغم من اشتراكهما في دلالة العذاب إلا أن

﴿فَارِعَةٌ﴾ خاضعة للوصف والتصوّر، أما ﴿الْفَارِعَةُ﴾ فإنها لا تخضع للوصف والتصوّر لهولها وعظيم شأنها يذهب الخيال في تصوّر شأنها كل مذهب، فهي تفرغ قلوب الناس جميعاً وتفرغ الكون بالدمار والتحطيم، فيتضاءل أزاءها كل هول أو قارعة تفرغ الناس وتزعجهم في حياتهم الدنيا. فمن شأن الكناية ﴿الْفَارِعَةُ﴾ بأهوالها العظيمة التي لا يحيط بها الوصف أن تحدث الاستجابة النفسية المقصودة التي يقصد القرآن إثارتها في المثلثي ليحقق أهدافه الدينية الكبرى.

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ١٩٢/٩.

(٢) صفوة التفسير: ٥٩٥/٣، وينظر: لسان العرب: ٢١٥/٨ (قرع).

(٣) سورة القارعة، من الآية ٣١.

(٤) الكشاف: ٤١٣/٢.

## الحاقة:

جاءت ﴿الْمَائَةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿الْمَائَةُ ﴿۱﴾ مَا الْمَائَةُ ﴿۲﴾ وَمَا أَتْرَبَكَ مَا الْمَائَةُ ﴿۳﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انبَعَثُوا إِفْرَادًا ﴿۴﴾﴾ (١)

وقد عدل عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية بلفظ ﴿الْمَائَةُ﴾ وذلك لاثبات الشاهد والدليل، وهو أنها تحق في وقتها فتنزل بحكمها على الناس بالحق وفي ذلك تفخيم لشأن القيامة في النفوس. ولفظ الكناية ﴿الْمَائَةُ﴾ يفيد العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، إنها تحق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

ويصعد الأسلوب الذي شكّلت فيه الكناية معنى تفخيم الحاقة وتبهيها منذ مطلع سورة الحاقة، وذلك بالاستفهام والتكرار، فالمطلع يبدأ بالكناية ﴿الْمَائَةُ﴾ كلمة مفردة لا خبر لها في ظاهر اللفظ: ﴿الْمَائَةُ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستعظام لما هيته هذا الحدث العظيم: ﴿مَا الْمَائَةُ﴾ ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك: ﴿وَمَا أَتْرَبَكَ مَا الْمَائَةُ﴾ ثم لا يجيب عن هذا السؤال. ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم، الذي لا تدريه، ولا يتأتى لك أن تدريه! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك " (٢)

على أن أجلى إحياء للكناية ﴿الْمَائَةُ﴾ هو أنها تحق في وقتها بالحق والحرس الموسيقي يعمق هذا الإحياء ويجلبه فايقاعها " أشبه شيء يرفع النقل طويلاً، ثم استقراره مكيناً. رفعه في مدة الحاء بالألف، وجدة في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالناء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة " (٣). فيستقر معناها في الذهن والحس والوجدان. وتصبغاً لوصف شدة الحاقة وما تنزل به بالحق من العذاب بالمكذبين قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انبَعَثُوا إِفْرَادًا ﴿۴﴾﴾ التي تقررع النامس بالافزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالذسف، والتجوم بالطمس والالذكار، ووضعت موضع الضمير لنذل على معنى القرع في الحاقة: زيادة في وصف شدتها " (٤)

(١) سورة الحاقة، الآيات: ١ - ٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه: ٨ / ٢٤٦.

(٤) الكشاف: ٤ / ٤٧٩.

كفه قال: يفرّ من أخيه، بل من أبويه، بل من صاحبه وبنيه " (١) على سبيل ذكر الخاص فالأخص.

وأجلى إحياء للكناية ﴿الطَّامَّةُ﴾ العنف في أهولها النافذة الخلقة فتصمّ أذان الناس بدواهيها الشديدة، فتقطع الروابط والشناج بين أقرب الناس صلةً ورحماً فتأتي في الحس والوجدان تبعية ما يتحمّله الإنسان مجرداً من الوشائج والصلوات إلا صلته بالله ﷻ وتقواه.

### الطَّامَّةُ الْكُبْرَى:

تأتي الطامة الكبرى كنايةً عن يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿يَوْمَ يَنْذَرُ الْإِنْسَانَ مَا سَوْى﴾ (٢).

وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى الكناية ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ لاثبات الشاهد لها والدليل، وهو أنها تطمّ بدواهيها على الدواهي فتعمّ وتعلو، فهي ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ ليست وصفاً لكل طامة تأتي بالأمور الهائلة الفظيعة، وإنما هي اسم لذلك اليوم العظيم على وجه التخصيص الذي لا يتمكّن معها العقل والإدراك تصوّر طومومها. قال ابن عباس (رضي الله عنهما): " هي القيامة سميت بذلك لأنها تطمّ على كلّ أمر هائل مفظع " (٣) وقال الزمخشري: " ﴿الطَّامَّةُ﴾ الداهية التي تطمّ على الدواهي، أي تعلو وتغلب، وفي أمثالهم: جرى الوادي فطمّ على القرى وهي القيامة لطمومها على كلّ هذلة " (٤) وبناء الكناية وجرسها الموسيقي يصوّران هذا المعنى ويقربانه. فصيغة الكناية ﴿الطَّامَّةُ﴾ تدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، لأنها من الأسماء التي ختمت بئاء التأنيث فاقبلت من الوصفية إلى الأسمية (٥) فأفادت هذه الدلالة فضلاً عن وصفها بالكبرى ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ لتقوى هذه الدلالة ولتميّزها عن أية طامة أخرى تأتي بالدواهي والأمور العظيمة، كما أن " الطامة لفظة مصورة بجرسها لمعناها، فهي تطمّ وتدعم وتربي ونطغي " (٦) على كل شيء في الكون والوجود، أنها تطمّ على السماء المبنية، والأرض المدحوة، والجبال

(١) الكشاف: ٤ / ٥٥٣، ٥٦٤.

(٢) سورة النازعات: ٣٤، ٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٤٧٠.

(٤) الكشاف: ٤ / ٥٥٧.

(٥) معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢-١٢٣.

(٦) مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٩٣.

المرساة، والليل المغطش، والضحى المخرج، أنها تطم على هذا كله، وليغطي مشهدها على تلك المشاهد جميعاً<sup>(١)</sup>، كما يبرز السياق لنا ذلك قبل مشهد الطامة ﴿عَٰنَتُمْ أَسَدٌ عَلَقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّىٰ بَنَاهَا ﴿١﴾ رَفَعَ سَكَهَا فُسُونَهَا ﴿٢﴾ وَأَفْطَسَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٤﴾ أَخْرَجَ مِنهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٥﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٦﴾ مَتَاعًا لَّكُمُ وَلَا تَمْلِكُونَ ﴿٧﴾ وَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٨﴾﴾<sup>(٢)</sup>، ومن ضمن ما تطمه الطامة الكبرى هو المتاع الموقوت الذي ينتهي إلى أجله، قال صاحب الظلال: "إن الحياة الدنيا متاع، متاع مقدر بدقة وإحكام. وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والانسان. ولكنه متاع ينتهي إلى أجله.. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت كل شيء، وطمت على كل شيء. على المتاع الموقوت، وعلى الكون المتين المقدر المنظم. على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع، فهي أكبر من هذا كله، وهي تطم وتعم على هذا كله! عندئذ يتذكر الانسان ما سعى، يتذكره ويستحضره، إن كانت أحداث الحياة، وشواغل، المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه، يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفقه التذكر والاستحضر إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى!"<sup>(٣)</sup>

فأجلى إحياء للكناية ﴿الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ﴾ الذي يبرز من خلال سياق الآيات ويتجلى فضلاً عن طم كل شيء بما فيها السماوات والأرض وطم كل أمر هائل مقطوع، هو أنها تطم ذلك المتاع الموقوت الذي يغتر به الانسان فيلبيه عما خلق له ويغطيته، فما أحرى بالانسان أن يتذكر في حياته الدنيا قبل مجيء الطامة الكبرى حين لا ينفع التذكر.

(١) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٣.

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٢٧-٣٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٨ / ٤٤٦.

## الغاشية:

وردت ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن يوم ﴿الْقِيَمَةِ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ﴾ (١).

﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةِ﴾ وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةِ﴾ إلى لفظ ﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ لاثبات شاهدها ودليلها، وفي ذلك تعظيم لها في القلوب والنفوس، فالكناية دالة على أنها تغشى الناس بعذابها وتلبسهم أهوالها.

فالكناية اثبات لهذا النوع من عذاب يوم القيامة على سبيل التخصيص، قال الزمخشري: "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدانها وتلبسهم أهوالها، يعني: ﴿الْقِيَمَةِ﴾" (٢)، والسياق يجلي ملابسة العذاب وجوه الكافرين ومخالطته لها على نحو من التهويل الذي يفيد الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَنَشِيَّةِ؟﴾ إذ يلفت الاستفهام الانتباه لفتاً إلى استماع خبرها، والاطلاع على شأنها، وفي ذلك تعظيم لشأنها وتفخيم له، والجواب عن هذا الاستفهام الذي يسأل عن "﴿الْفَنَشِيَّةُ﴾"، يعرضه السياق تفصيلاً، فلنحظ في جانب منه كيف يرسم عذاب ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ على وجوه الكافرين جثثاً ج (٣) فهي وجوه خاضعة ذلاً وإرهاقاً ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنِ أَيْنِقَةٍ﴾ (٤) بالغة الحرارة لا تبرد ولا تروى ﴿تُشَقُّ مِنْ عَيْنِ أَيْنِقَةٍ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٥) فهي تطعم من شوك ترعاه الأبل إذا كان رطباً وتعافه إذا جف، فيجتمع على تلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزي، فضلاً عن عذاب البدن بالنصب والنلر، إلى عذاب الظمأ والطوى، والشراب والطعام، بما هو أشد من الظمأ والطوى. وفي الجانب الآخر نلاحظ ما يقابل هذا على سبيل التضاد نعيم المؤمنين في يوم ﴿الْفَنَشِيَّةِ﴾ وهو يرسم على وجوههم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةً﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ﴿فِيهَا مَرْوٌ مَرْوَةٌ﴾ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ﴿وَمَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَكَرِيٌّ يُبْنُوهُ﴾ (٦) فوجوه المؤمنين ناعمة، راضية عن مسعاها، في

(١) سورة الغاشية، الآية: ١.

(٢) الكشاف: ٤ / ٥٩٢. وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٣) الآية: ٢.

(٤) الأيتان: ٣. عاملة ناصبة: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه وصبقت يوم القيامة ناراً حامية.

ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٠٣.

(٥) الآيات: ٥، ٧.

(٦) الآيات: ٨، ١٦. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٦٠.

جنة عالية هادئة لا تسمع فيها لآغية، فيها عين جارية روية عذبة، ولهم الراحة في السرر المرفوعة، والأكواب المهيأة للشراب، بل الرفاهية في الوسائد المصفوفة، والبسط المفروشة (١). وإبراز نعيم المؤمنين الذي يلبس وجوههم ويخالطها في يوم ﴿الْفَيْصَةِ﴾ العظيمة بافزازها التي تلبس الكافرين بعذابها له قيمته الخاصة (٢)، إذ يتجلى تكريم الله ﷻ لهم، في منجاة بمفازتهم من عذابها الذي يغشى كل شيء.

## الأزفة:

جاءت ﴿الْأَرْفَةُ﴾ كناية عن يوم القيامة في قوله - تعالى - : ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٣).

﴿الْأَرْفَةُ﴾ كناية عن ﴿الْقِيَمَةُ﴾ ، وقد عدل القرآن عن التصريح بلفظ ﴿الْقِيَمَةُ﴾ إلى لفظ الكناية ﴿الْأَرْفَةُ﴾ وذلك تعظيماً لشأنها وتفخيماً من خلال إثبات المعنى الذي تحمله ﴿الْأَرْفَةُ﴾ ليوم القيامة والذي من شأنه إحداث الأثر النفسي المتمثل بتخويف المتلقي وترهيبه من شأنها، إذ الكناية تصور ﴿الْقِيَمَةَ﴾ وكأنها قد ﴿أَرْفَتِ﴾ بالعذاب والهلاك، والتعبير عنها بالماضي ﴿أَرْفَتِ﴾ يدل دلالة بالغة على تحققها وكأنه قد فرغ منها، ومجيء الكناية ﴿الْأَرْفَةُ﴾ فاعلاً من مادة الفعل الماضي ﴿أَرْفَتِ﴾ للتحويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه التي ﴿أَرْفَتِ﴾ ، فضلاً عن التعريف في الكناية، فهو تعريف جنس لتمييزها من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبير (٤).

وقال الزمخشري: " ﴿أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ﴾ قريب، الموصوفة بالقرب في قوله - تعالى - : ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ (٥)" فهي قد " اقتربت كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ " (٦).

(١) مشاهد القيامة في القرآن ، ص ١٦٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ص ١٦٠.

(٣) سورة النجم ، الآيات: ٥٧ ، ٥٨. وينظر: سورة غافر ، الآية: ١٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٥٨-١٥٩.

(٥) سورة القمر ، من الآية: ١.

(٦) الكشاف: ٤ / ٣٣١.

(٧) في ظلال القرآن: ٧ / ٦٣٣.

فأجلى إحياء للكناية ﴿الْأَرْفَقُ﴾ هو قرب أروفاها بكل أهوالها وشداندتها التي صوّرتها الكنايات السابقة، فهي الطامة والفرعة والغاشية والحقاقر لكن السياق هنا يبرز إحياء قريبا وسرعة وقوعها لأنه إنذار وتحذير من العذاب والهلاك الذي حلّ بالأقوام العابرة: قوم نوح وعاد وثمود ولوط، يذكر به وينذر: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ مَا آدَا الْأُولَىٰ ﴿١﴾ وَتَعْمُرُونَ مَآبِنَ ﴿٢﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِن قَبْلُ لِمَن كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٣﴾ وَالْمُرْثَبَةُ أَمْوَىٰ ﴿٤﴾ فَفَسَّخْنَا مَا عَمَّسَ ﴿٥﴾ فَيَأْتِي آلَ الْأَرْفَقِ تَسْمَارَىٰ ﴿٦﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ الْأَنْذَرِ الْأُولَىٰ ﴿٧﴾ أَرْفَقَ الْأَرْفَقُ ﴿٨﴾ (١) فناسب السياق أن يكون الإنذار بعذاب القيامة بلفظ الكناية ﴿الْأَرْفَقُ﴾ الذالة على الإنذار الشديد بقرب وقوعها.

### الراجعة والرافدة:

وردت هاتان الكنيتان اللتان تصوّران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون يوم القيامة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿١﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٢﴾ مَلُوبٌ مُّوَبَّدٌ وَأِجْفَةٌ ﴿٣﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٤﴾ (٢)

﴿الرَّاجِفَةُ وَالرَّادِفَةُ﴾ كنياتان، وقد ورد لهما أكثر من معنى تحتمله الكنيتان في أداء الغرض المقصود منهما، قال الزمخشري: "﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى: وصفت بما يحدث بحوثها ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الراجعة من قوله - تعالى -: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي ﴿الْقِيَمَةُ﴾ التي يستعملها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقتربها. وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الأرض والجبال، من قوله: ﴿الرَّادِفَةُ﴾ (٤) وجرؤج: السماء والكواكب، لأنها تنشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك" (٥).

وفي ضوء ذلك نلاحظ أن المعنى المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ هو: - الواقعة، وهي (النفخة الأولى) للحدث العظيم (يوم القيامة) ووصفت بالراجعة بما يحدث بوقوعها وهو: رجفان الأرض والجبال والأحياء جميعاً. - الأرض والجبال، ويعرّز هذا المعنى، قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾.

(١) سورة النجم، الآيات: ٥٠، ٥١.  
(٢) سورة النازعات، الآيات: ٦، ٧.  
(٣) سورة النمل، من الآية: ٧٢.  
(٤) سورة المزمل، من الآية: ١٤.  
(٥) الكشاف: ٤ / ٥٥٤.

ونلاحظ أن المكنى عنه بلفظ الكناية ﴿الرَّادِفَةُ﴾ هو:

- الواقعة، وهي (النفخة الثانية) التي تردف (النفخة الأولى)، ويعزز هذا المعنى قوله

تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الشُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ﴾ (١)

- سماء، وما فيها أي تردف الأرض وما عليها فتتبعها في الدمار والادشفاق وتناثر  
كواكبها على أثر ذلك.

- قيامة، التي يستعملها الكفرة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم لاقترابها.

وفي ضوء هذا المعنى للرادفة تكون ﴿الرَّجْفَةُ﴾ مقدمة لوقوع الحدث العظيم ﴿الْقِيَامَةِ﴾

ويمكن أن نفهم ﴿الرَّجْفَةَ﴾ على أنها كناية عن يوم القيامة، ووصفت بالرجفة بما يحدث بوقوعها من رجفان الأرض والجبال وزلزلة لها واضطراب نظام الكون والأحياء جميعاً، وكل هذه مظاهر تنبئ عن شدة ذلك اليوم العظيم الذي نياغت فيه الناس بالرجفة، كما دلّ الإسناد المجازي للكناية ﴿الرَّجْفَةُ﴾: إذ أسند الرجف إلى الأرض نفسها، - والأصل أنه مرجوف

لا رجفة، فيتحقق بهذا الإسناد مباحة لا يدري معها الإنسان يوم ﴿الْقِيَامَةِ﴾ من أين جاء الرجف، وفيه تركيز للانتباه في أخذة الرجفة (٢).

وأما ﴿الرَّادِفَةُ﴾ فيمكن أن نفهم على أنها كناية عن كل ما يتبع الرجفة من بعثرة ما في القبور (٣) للحشر والحساب، ويقوي هذا المعنى أنه يتصل بما بعده: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾

ومن شأن هذه الأحداث التي ستقع يوم ﴿الْقِيَامَةِ﴾ أن يحس القلب البشري معها بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب، وأن يهتز هزة الخوف والوجل والرعب الذي لا ثبات معه ولا قرار، ويدرك ويحس حقيقة قول الله ﷻ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) ينظر: التفسير البياني للقرآن: ١ / ١٣٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١ / ١٣٢.

﴿ فهي شديدة الاضطراب، يرتسم الخشوع في أبطارها فيشير إلى الذل والخوف والانكسار والانهيار (١) ﴾

ويتجلى التناسب الفني في التعبير الكناني ﴿الرَّجْفَةُ﴾ مع القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة، فواجفة أي: " شديدة الاضطراب " (٢) و ﴿خَشَعَةٌ﴾ أي " ذليلة " (٣) بما علونت من أهوال ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي يرجف عندها كل شيء ويضطرب، ويمأكه الخوف والرعب فيرتسم على الأبصار استسلاماً وذلّة وانكساراً.

ومن خلال ما سبق من كنايات عن يوم ﴿الْقِيَامَةِ﴾ تتجمع معانٍ وإيحاءات تصف هذا اليوم العظيم الذي يحدث فيه ذلك الانقلاب الكوني الرهيب بأهواله العظيمة، ويفضل

هـ  
(الكنايات) بصفاتها المتعددة بقرب ذلك اليوم إلى العقول والقلوب، وإلا فإن حقيقته وماهيته لا يحيط بها العقل والإدراك البشري.

على أن القرآن الكريم يقدم تعابير كنائية أخرى تصور شدة ذلك اليوم وكرهه على الكافرين في مشاهد يوم ﴿الْقِيَامَةِ﴾ من ذلك:

### الكشف عن الساق:

يرد هذا التعبير الكناني في قوله - تعالى - في مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٤﴾ خَشَعَةً آمَنَرَهُمْ رَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَآئِرُونَ﴾ (٤)

﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ كناية عن الشدة وصعوبة الخطب، إذ يشتد الكرب والضيق على هؤلاء المتكبرين الذين يدعون إلى السجود - هناك - فلا يستطيعون.

فكناية الكشف عن الساق: مدلٌ في شدة الأمر وصعوبة الخطب (٥) الذي يلقاه الكافرون يوم القيامة، وليس هناك ساق ولا كشف عن الساق كما نقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يده ولا غل، وإتما هو كناية عن البخل، وأراد الله ﷻ بهذا التعبير السيلغة في

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٤٤٦ / ٨.

(٢) الكشف: ٥٥٤ / ٤.

(٣) نفسه: ٤ / ٥٥٤، وصفوة التفسير: ٣ / ٥١٤.

(٤) سورة القلم، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

(٥) الكشف: ٤ / ٤٧٥.

حسابهم، وإهانتهم وعقوبتهم، فالكناية تدل على أمرٍ مبهم في الأشدة مذكر خارج عن المألوف، كقوله قيل: يوم يقع أمرٌ فظيعٌ هائلٌ (١). والأصل في الكناية " أي من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجدِّ سُمِّرَ عن ساقه (٢) فجعل لكل أمر فظيع (٣) وكان من عادة العرب أن يقولوا لكل من يجِدَ في أمرٍ ويبالغ فيه (كشَفَ عن ساقه) وأصل هذا التعبير، أن من يجِدَ في عملٍ من الأعمال سواء أكان حربياً أم غير حرب، فإنه يَسْمُرُ عن ساقه حتى لا يعوقه عن الجد وسرعة الحركة، كما نقول اليوم، فلان سُمِّرَ عن ساعد الجدِّ، وإن كان لا يرتدي قميصاً بأكمام، فعَبَّرَ في الكناية باللازم وهو الكشَفَ عن الساق، وأراد ملزومه الجد والاهتمام بالأمر (٤).

فالكناية تجسّد المعنى النفسي وهو شدة الكرب والضيق الذي فيه الكافرون المنكفرون في صورة حسبية مؤثرة، وفوق كربهم وضيقهم فإنهم يلقون التوبيخ والتكذيب ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. فدعوتهم إلى السجود في يوم القيامة الذي يشمر فيه عن المساعدة ويكشف فيه عن الساق يشير إلى تكبيتهم وتوبيخهم، فقد فات أوان السجود، وهم لا يملكون السجود ولا يستطيعون إما لفوات الوقت المناسب، وإما للبهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك، وهم خاشعون ذلّة، وقد كانوا يأبون خشوع العبادة ﴿خَشَعَةَ أَمْزَلِهِمْ رَمَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَاقِلُونَ﴾. فالتعبير الكناهي فضلاً عن الأيتان اللتين تشكل فيهما يشير إلى الكرب والضيق والعجز والتوبيخ والتحدي المخيف (٥).

### جعل الولدان شيباً:

تصور هذه الكناية أهوال يوم ﴿الْيَوْمَةِ﴾ وشدائده، أهوال تشيب منها الولدان، وتنفطر منها السماء، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿فَكَيْفَ تَقُولُونَ إِن كُفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ (١).

- (١) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٧٤-٤٧٥. وينظر: القرآن إعجازة وبلاغته، ص ٢٢١-٢٢٢.  
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ٢٤٩.  
(٣) المفردات: ٣٦٣، ٦٥٠-٦٥١.  
(٤) القرآن إعجازة وبلاغته، ص ٢٢٢.  
(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٣٨٨. وينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص ٥.  
(٦) سورة المزمل، الأيتان: ١٧-١٨.

﴿يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْبًا﴾ كناية ترسم في معناها الحقيقي الشيب في نواصي الأطفال في ذلك اليوم، وهي صورة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة ذلك اليوم بأهواله، قال الزمخشري: " فكيف تَقُونُ أَنفُسَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ لَهُ، إِنْ بَقَيْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ تُؤْمِنُوا وَتَعْمَلُوا ﴿يَجْمَلُ الْوَالِدَانَ شَيْبًا﴾ مَثَلٌ فِي الشَّدَةِ يُقَالُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ: يَوْمٌ يَشِيبُ نَوَاصِي الْأَطْفَالِ. الْأَصْلُ فِيهِ: أَنَّ الْهَمُومَ وَالْأَحْزَانَ إِذَا تَفَاقَمَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَسْرَعَ فِيهِ الشَّيْبُ " (١). وهي شدائد وأهوال عظيمة بأحزائها وهمومها كما يشير تشكيل الكناية شيب الولدان دون غيرهم، فالولدان كما هو معلوم أقلّ تحسّساً بالهموم والأحزان والشدائد، فارتسام الشيب في رؤوسهم يشكّل صورة غريبة مثيرة، تشير إلى غرابة ذلك اليوم في شدائده وأهواله، فهي لا تشبه أهوال الدنيا وشدائدها، هي شدائد وأهوال عظيمة يشيب لها الولدان فكيف بالرجال؟ وتتفطر منها السماء على عظمها وإحساسها ﴿السَّمَاءُ مُتَفَطِّرَةٌ بِهِ﴾ وعلى الخيال أن يتملّى هذه الصورة المروعة فإنها تحذير شديد من ذلك اليوم المخيف الذي لا ريب فيه ولا مفرّ منه ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾.

ومما يتصل بيوم ﴿الْيَمِّمَةِ﴾ من مشاهد، مشهد أصحاب اليمين، وهم المؤمنون الناجون الذين يؤثّون كتبهم بأيمانهم، فهم أهل الثواب يصفهم القرآن بالتعبير الكناهي ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢)، ومشهد ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٣)، فهم الكافرون المعذبون الذين يلقون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، وهم أهل العذاب يصفهم القرآن بالتعبير الكناهي ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾. ويأتي المشهدان على سبيل التقابل، وذلك حتى يبرز مشهد كلا الفريقين، وتتعمق - على سبيل التضاد - دلالتهما في الحس والوجدان بين مصير هؤلاء وهؤلاء.

ونحن إذ نعرض هذه الكنايات فإننا لا ندرى حقيقة الكتاب ولا كيفية أتيانه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر. وإنما يجليّ القرآن الكريم حقيقة (النجاة) من وراء أتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) من وراء أتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن تستيقظهما كما أخبر بهما القرآن الكريم (٤).

## أصحاب اليمين :

- (١) الكشاف: ٤ / ٥١٣.  
(٢) سورة المنثر، من الآية ٣٩.  
(٣) سورة الواقعة، من الآية: ٤١.  
(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥١٩.



مياسره (١). واليمين: البركة (٢). ويقال: فلان ميمون النقيبة، إذا كان ميمون الأمر، ينجح فيما حاول ويظفر به (٣). ومن المجاز: هو عنده باليمين، أي: بمنزلة حسنة (٤).

واليمين أيضاً: القوة، قال الشماخ:

إذا ما راية رُفِعَتْ لمَجْدٍ نَلَقَّاهَا عَرَابِيَّةً بِالْيَمِينِ (٥)

قال المبرد: "قوله: نلقاها عرابية باليمين، قال أصحاب المعاني: معناه بالقوة، وقالوا

مثل ذلك في قول الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَكُوتَ مَطْوِيَةً يَمِينًا﴾ (٦) (٧).

والمسوخ لاستعمال (اليمين) للدلالة على القوة على سبيل المجاز المرسل هو علاقة السببية، فاليمين سبب القوة، أو الآلية عند عدد من اللغويين على اعتبار أن اليمين آلة القوة.

وذكر عبد القاهر الجرجاني أن "الناس يقولون للرجل إذا أرادوا حذّه على الأمر وأن يأخذ فيه بالجد: أخرج يدك اليمنى. وذلك أنها أشرف اليدين وأقواهما التي لا غناء

للأخرى دونها، فلا عُدِي إنسان بشيء إلا بدأ بيمينه فهبأها لنيله، ومدى ما قصدوا جعل الشيء في جهة العناية جعلوه في اليد اليمنى" (٨). وعلى هذا فاليمين ارتبطت دلالاتها

بالخير والبركة والسعادة والقوة والعناية (٩). وهي المعاني والظلال التي تشير إليها كناية ﴿أَحْسَبَ الْيَمِينِ﴾

وكناية ﴿أَحْسَبَ الْيَمِينِ﴾ في سياق الآيات التي أوردناها تدل، فضلاً عما أوجت به من معانٍ على أن هؤلاء المؤمنين هم المطلقون من الرهن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ (١٠)، أي:

"كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إِلَّا أَحْسَبَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فكّوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم، كما يدخلص الرهن رهنه بإداء الحق" (١١). ومن ذلك يتجلى تكريمهم

(١) لسان العرب: ٢ / ٤٩٠ (سج).

(٢) المصدر نفسه: ١٤ / ٤٥٨ (يمن).

(٣) إصلاح المنطق، ابن السكيت، ص ٣٥٥.

(٤) أساس البلاغة، ص ٥١٤ (يمن).

(٥) أسرار البلاغة، ص ٣٠٦. وينظر: لسان العرب: ١٣ / ٤٦١ (يمن).

(٦) سورة الزمر، من الآية: ٦٧.

(٧) الكامل: ١ / ٧٦. وينظر: أسرار البلاغة، ص ٣٧٠.

(٨) أسرار البلاغة، ص ٣١٢.

(٩) الفاظ الثواب في القرآن الكريم، ص ٣٠٤.

(١٠) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(١١) الكشاف: ٤ / ٥٢٣.

وفضلُ الله عليهم في ذلك الموقف الذي يُرتهن فيه المكذَّبون الكافرون بأعمالهم التي تقدّمهم فلا يفتقروا منها. وتتصاعد دلالة تَكْرِيم المؤمنين ﴿ أَحْسَبَ الَّذِينَ ﴾ بأن الله ﷻ قد خولهم حقّ سؤال المجرمين عن مصيرهم الذي انتهوا إليه ﴿ مَا سَأَلَكَ رَبِّي بِسَفَرِي ﴾<sup>(١)</sup> وهو استقحام يُوحى بإهانة المجرمين، وتعمّق دلال إهانتهم من خلال السياق الذي يعرض إجابتهم واعترافهم على نحو من الاطناب: ﴿ قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ تَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ ﴿ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ ﴿ وَكَانَ كَذِبًا يَوْمَ الَّذِينَ ﴾ ﴿ حَتَّىٰ آتَيْنَا آلِيكَ ﴾<sup>(٢)</sup> فهي إطالة في الجواب مقصودة، بيّن سبب ارتهائهم في موقفهم هذا، وتجلّى إهانتهم على نحو عميق، ويبين السياق بالأسلوب الكنائي سبب مصيرهم هذا ﴿ قَالُوا لَرَبِّكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وهذه الآية كناية لأنها تفهم على الحقيقة والمعنى: أن هؤلاء المجرمين لم يكونوا من المصلّين في حياتهم الدنيا. وأما المعنى البعيد المُكنى عنه الذي تلمح به الصلاة هو الإيمان كله، فهم لم يكونوا مؤمنين، وبذلك تشير الكناية إلى أهمية الصلاة في الإسلام، فالصلاة رمز الإيمان ودليله، ويدل انكارها على الكفر<sup>(٣)</sup>.

ويعزز هذا المعنى المُكنى عنه للصلاة ما ذكر بعد ذلك، فإذا ما فقدت النفس الإيمان بالله - سبحانه - فإنها تفقد الدافع إلى فعل الخير ومنه: إطعام المسكين، وتفقد توازنها في النياطل مع الخائضين، وتكذب بيوم الدين، يوم الحساب والجزاء الذي فيه ترتهن بأعمالها كما ترى المجرمين الآن.

وإزاء صورة هؤلاء المجرمين نقف صورة المؤمنين ﴿ أَحْسَبَ الَّذِينَ ﴾ على التقابل لينجلى مصير الفريقين على التضاد ويتعمّق المعنى في حس المتلقي ووجدانه.

### أصحاب الشمال:

يستعمل القرآن هذا التعبير كناية عن موصوف هو الكافرون المعتبون في نار جهنّم، فهم أهل الشؤم والعذاب، ذقنا ذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَأَحْسَبُ الشِّمَالُ مَا أَحْسَبُ الشِّمَالُ ﴾ في سُورَةِ وَجْهِ ﴿ وَظَلَمَ مِنْ يَمِينِهِ ﴾ ﴿ لَا بَأْسَ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِينِ الْعَظِيمِ ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة المنتثر ، الآية: ٤٢ .

(٢) سورة المنتثر ، الآيات: ٤٣ - ٤٧ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٧٠ . وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ١٦٤ .

(٤) سورة الواقعة ، الآيات: ٤٦ - ٤٧ .

﴿ أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾ هم أهل النار والشقاوة، وقال الزمخشري في ﴿ أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾ عدة

أقوال:

- الذين يؤتون صحابفهم بشمالهم.

- أصحاب المنزلة الدنيا، من قولك: فلان مني بالشمال إذا وصفته بالضعة.

- أصحاب الشمال أشقياء، لأن الأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعصيتهم.

- أصحاب الشمال هم الموجهون في النار ذات الشمال<sup>(١)</sup>.

ومن خلال هذه الأقوال في ﴿ أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾ يتبين أن الكافرين يأخذون نتيجة الحساب

كتاباً يشمالهم، فيجنون العذاب والعقاب، فتكون منزلتهم دنياً، فهم الأشقياء المشائيم على

أنفسهم، كما قال فيهم - تعالى - في موضوع آخر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ أَنفُسَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿<sup>(٢)</sup>

﴿ أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾ هم: أصحاب الشمال والشوم أي المشائيم على أنفسهم<sup>(٣)</sup> و هم:

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ من وصفت الباب وأصدته: إذا أطبقته وأغلقته<sup>(٤)</sup> أي: مغلقة عليهم فهم

فيها محبوسون، هذا هو المعنى الظاهر، أما المعنى المكنى عنه البعيد هو خلودهم في النار

لا يخرجون منها بحكم إغلاقها عليهم، وكلا المعنيين ملازمان مقصود.

إتيان الكتاب من وراء الظهر:

تأتي هذه الكناية (إتيان الكتاب من وراء الظهر) في موطن واحد مقابل إتيان الكتاب

باليمين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَذِبًا فَمَقْبِهٍ ﴿٢٧﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوَفَّ

كَيْدَهُ بِسَمِيئِهِ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا سَعِيرًا ﴿٢٩﴾ وَنَقَلَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّي كَيْدَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿٣١﴾

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٣٢﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿٣٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿٣٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿٣٥﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿٣٦﴾

﴿<sup>(٥)</sup>

تعد الكناية ﴿ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ صورة جديدة في التعبير عن المعذبين المشؤمين وذلك

بالقياس إلى التعبيرين الكنائيين السالوفين في القرآن الكريم وهما: ﴿ أَصْحَابُ الَّتِيْنِ ﴾ الذين

يأخذون كتبهم بأيمانهم، و ﴿ أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾ الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، فهما الصورتان

(١) الكشاف: ٤ / ٣٦٣.

(٢) سورة البلاء، الأيتان: ١٩ - ٢٠.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٦٠٤. وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧ / ٢٨٥.

(٤) الكشاف: ٤ / ٦١٤. وينظر: أساس البلاغة، ص ٥٠١ (وصد).

(٥) سورة الاسشقى، الآيات: ٦ - ١٥.

المالوفتان في استعمال القرآن. أما الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ فهي صورة جديدة لا تأتي إلا في هذا الموضع من القرآن.

قال الزمخشري في هذه الكناية: ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تَغَلَّ يَمْنَاهُ إِلَى عِزْقِهِ، وَتَجْعَلُ شِمَالَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَيُؤْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ. وَقِيلَ: تَخْلَعُ يَدُهُ الْيَسْرَى مِنْ وَرَاءِ

ظَهْرِهِ " (١). لذلك لا يمتنع أن يكون الذي يُعطى كتابه بِشِمَالِهِ يُعطاه من وراء ظَهْرِهِ، فهي هيئة الكاره المُكره الخزيان من المواجهة (٢).

والبيادي أن الكناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ صورة حسية أعمق وأغلظ وأعنف في تصويرها للمعنى وفي إيحائها عن الخزي والمهانة والنسيان، على الرغم من أن الكنايتين (الاشمال ووراء الظهر) تشيران إلى حقيقة الهلاك والثبور.

ولعل في كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ إشارة إلى حياتهم الدنيا التي اتخنوا فيها آيات الله ورسله هزواً بالنسيان والإهمال كما تعبّر الكناية الواردة في قوله -تعالى- على لسان رسوله سيدنا شعيب عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِيَّ كُنُوزًا أَنزَلَ عَلَيَّ مِنَ السَّمَاءِ مِن لَدُنِّي وَرَاءَ ظَهْرِي أَنزَلَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾ (٣).

﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا﴾ كناية عن النسيان والإهمال، قال الزمخشري: "﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ ظَهْرِتًا﴾ ونسيتموه وحعلتموه كالشيء المنبذ وراء الظهر لا يعياً به" (٤)، وتقول العرب: "جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض" (٥). فالكناية تجسد صفة هؤلاء في صورة حسية مؤشرة موحية بحماقتهم وغلظتهم وسوء تصرفهم إذ يعرضون عن آيات الله ويهملونها كالشيء الذي لا يعبا به، فهو الجحود للنعمة في أشجع صورها.

وفي ضوء ذلك فإن كناية ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ تشير إلى ما فعلوه في حياتهم الدنيا، وفيها إحياء بنسيانهم وإهمالهم فيكون الجزاء من جنس العمل.

(١) الكشاف: ٤ / ٥٨٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥١٩.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٢. وينظر: سورة البقرة، الآية: ١٠١، وسورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) الكشاف: ٤ / ٣٣١. وينظر: الفروق اللغوية، ص ٢٤٥.

(٥) صفوة التفسير: ١ / ٨٤.



## الفصل التاسع

# كنايات في موضوعات متفرقة



## الفصل التاسع

### كنايات في موضوعات متفرقة

يضم هذا الفصل مجاميع من الكنايات، تشكل كل مجموعة منها موضوعاً معيناً قداماً بذاته، لذلك أسميناها كنايات متفرقة، فهو يدل على معناه، أي موضوعات متفرقة، إذ تشترك مجموعة من الصور الكنازية في معالجة موضوعات يجمعها خيط فكري واحد، فمثلاً المجموعة الأولى التي تحمل عنواناً هو (كنايات عن الشدة والكرب) تصوّر الشدائد والأهوال التي يمرّ بها الإنسان في حياته وفي أثناء موته وبعثه إلى الحياة الأخرى وغير ذلك. يجمعها خيط فكري وإن اختلف الموقف والأحوال.. وتأتي المجموعة الثانية تصوّر نماذج من مصارع الغابرين التي أهلكها الله بذنوبها، فجعل مصارعهم ذكرى لمن كان له قلب فيعتبر بها.. وتصور المجموعة الثالثة والرابعة طائفة من صور عذاب الله، وطائفة من صور الرحمة الألهية الواسعة، ومجموعة من الآيات الكريمة منها تتعلق بخلق الكون، كل ذلك يعرضه القرآن بالتصوير الكناني الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

وفيما يأتي استعراض كنايات كل مجموعة على حدة، نحاول فيه بيان القيمة البلاغية للفن الكناني في التعبير عن الأفكار والمعاني بالطريقة التصويرية المؤثرة.

#### (١) كنايات عن الشدة والكرب:

يضم هذا العنوان ثلاث صور تشترك بإيحاء الشدة والكرب التي تدتاب الإنسان في حياته.. الشدة والكرب التي يواجهها في أثناء حياته وموته وبعثه، وشدة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة ذبي من الأنبياء (عليهم السلام) قوة الظالمين المنحرفين عن الفطرة السوية.

## التفاف الساق بالساق:

ترد هذه الكناية في مشهد الاحتضار عند الموت في قوله - تعالى - ﴿كَلِمَاتًا بَلَغَتِ التَّرَاقِي ﴿١﴾ وَيَقِيلُ مِّن رَّاقٍ ﴿٢﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٣﴾ وَالْقَتْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ ﴿٤﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٥﴾﴾ (١).

فالمثنية التي يتجرعها كل إنسان، يصور القرآن مشهدها بهذا التصوير الموحى. إنه مشهد يكاد يتحرك، فكل آية منه ترسم حركة وتخرج لمحة من حالة الاحتضار التي يرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة التي لا دافع لها ولا راد، إنها الحقيقة التي لا مقر منها (٢) ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٥﴾﴾.

إنه مشهد الموت الذي ينتهي إليه كل حي في أجله المرسوم. وهذا المشهد يعرضه القرآن في سياق إثارة المشركين العاجلة (الحياة الدنيا) وانغماسهم في لذاتها وشهواتها، فهم غافلون عما بين أيديهم من الأهوال والشدائد التي تنتظرهم ومنها الموت في مشهده المعروف. والشدة في المشهد تلمحها بالردع والزجر ابتداء ﴿كَلِمَاتًا بَلَغَتِ التَّرَاقِي ﴿١﴾﴾: "كَلَا" ردع عن إثارة على الآخرة، كأنه قيل: ارددوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلوا إلى الأجله التي تبقون فيها مخلدين " (٣) والضمير في ﴿بَلَغَتِ التَّرَاقِي ﴿١﴾﴾ عائد إلى الروح والترافي: أعالي الصدر (٤). أي شارف الإنسان على الموت ﴿وَيَقِيلُ مِّن رَّاقٍ ﴿٢﴾﴾ أي: فقال أهله: من يرقي ويطب ويشفي هذا المريض (٥) ﴿وَيَقِيلُ مِّن رَّاقٍ ﴿٢﴾﴾ أي: وأيقن المحتضر أنه سيفارق الدنيا والأهل والأسال، لمعاذته ملاذكة الموت (٦) وكلوي المحتضر من السكرات والنزوع ﴿وَالْقَتْبُ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ ﴿٤﴾﴾ وهي كناية تنكث فيها معاني المشهد المعروف في شدته وكربه، قال الزمخشري: "﴿وَالْقَتْبُ﴾ ساقه يساقه والتوت عليها عند الموت، وعن فتادة مانت رجلاه فلا تحملانه، وقد كان عليهما جوالاً، وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن المساق مثل في الشدة" (٧). وما ذكره الزمخشري بجلي المعنى المادي الظاهري والمعنى النفسي الشعوري الذي تطوي عليه

(١) سورة القيامة، الآيات: ٢٦ - ٣٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٨٤ - ٣٨٦.

(٣) الكشاف: ٤ / ٥٣٠.

(٤) ينظر: التفسير الكبير: ٣٠ / ٢٣٠.

(٥) ينظر: البحر المحيط: ٨ / ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٦) صفوة التفسير: ٣ / ٤٨٧.

(٧) الكشاف: ٤ / ٥٣٠. وينظر: المفردات، ص ٣٦٣.

الكنائية، فالمعنى الظاهري للكنائية هو التفاف الساق بالساق، أي التواء ساق على أخرى عند الموت، وهي حركة تشير إلى المعنى المكنى عنه وهو شدة الموت وكرهه سواء أكان هو ألم الموت ووجعه أم شدة فراق الدنيا وانقطاع أي وسيلة لاستنفاذ الروح من الأقبال على الآخرة في أول منزل من منازلها (القبر)، قال ابن عليس: " المراد اجتمعت عليه شدة مفارقة الدنيا، مع شدة الموت وكرهه، فيكون ذلك من باب التمثيل للأمر الهائل العظيم، حيث يلتقي عليه شدة كرب الدنيا، مع شدة كرب الآخرة، كما يقال: شمرت الحرب عن ساق " (١) دلالة على شدتها وضراوتها. فالكنائية تجسد بالتصوير الحسي المعاني الشعورية التي تتناب المحتضر من شدة وكرب وهو يقبل على الآخرة.

لتركيباً طباقاً عن طبق:

تأتي هذه الكناية في مشهد من مشاهد الطبيعة التي يقسم بها الله ﷻ في قوله - تعالى -: ﴿ فَلَا أَسْئِمُ بِالشَّفَقِ ۗ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ ۗ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۗ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۗ ﴾ (٢)

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ كناية تخرج المعنى في صورة حسية، والتعبير بالركوب ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ يوحي بالشدّة والمعاناة وهو المعنى الظاهري لهذا التركيب الكنائي، أما المعنى المكنى عنه الذي تشير إليه الصورة الكنائية فهو الشدائد والأحوال والكروب التي يجتازها الإنسان في حياته الدنيا وما بعدها من موت ثم بعث وما يعاقبه من أهوال القيامة وكروبها وشدائدنا، قال الطبري: " أنهم يأتون من شدائد يوم القيامة وأهوالها أحوالاً " (٣) وقال الزمخشري: " لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها " (٤).

والبادي أن المعنى المكنى عنه لا ينحصر بشدائد الموت وشدائد يوم القيامة وأهوالها حسب، وإنما هو ذو مدلول عام يشمل حياة الإنسان قبل موته وفي أثناء موته وما بعد ذلك من منازل حتى يستقر في إحدى الدارين الجنة أو النار، وهو المعنى الذي ذهب إليه الراغب بقوله: " يترقى منزلاً عن منزل، وذلك إشارة إلى أحوال شتى في الدنيا. وأحوال شتى في الآخرة. إلى حين المستقر في إحدى الدارين " (٥) فالشدة والمعاناة التي يركبها

(١) صفة التفسير: ٣ / ٤٨٧.

(٢) سورة الأنشاق، الآيات: ١٦-١٩.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٠ / ٨٠.

(٤) الكشاف: ٤ / ٥٨٦، وينظر: روح المعاني: ٩ / ٣٣١.

(٥) المفردات، ص ٤٥٠.

الانسان ذات مدلول عام، وهو المعنى الذي يؤكد قوله - تعالى - في موضع آخر: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١)، ففيه دلالة كل تعب ومشقة (٢)، أي شدائد ومشقات يمرّ بها في أحوال متعاقبة مقدّرة مرسومة، كذلك الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق تمضي وفق مشيئة الله تنتهي عند غايتها، وفي ذلك يتجلى التناسق بين الكناية وما تشير إليه من أحوال متعاقبة مع الأحوال المتعاقبة ممّا ذكر من مشاهد كونية طبيعية، إذ يمثل انتقالاً لطيفاً من معنى إلى معنى، وهذا التناسق هو من سمات القرآن البديع (٣).

ومما يؤكد شدة هذه الأحوال وكروبها ومعاناتها توظيف الاستعارة المكذبة في بنية الكناية ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ فالركوب استعارة مكذبة فيها تشبيه هذه الأحوال بمطابا يركبها الناس واحدة بعد واحدة، ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى شيئاً من لوازمه وهو الركوب على سبيل الاستعارة المكذبة. وبذلك تتواشج الاستعارة مع الكناية في إخراج المعنى بحيوية وقوة تأثير.

#### ضاق بهم ذرعاً:

ورنت هذه الكناية في موطنين من القرآن الكريم في سياق قصة سيدنا لوط عليه السلام وهي تجلّي بالتصوير الشدة التي عاناها مع قومه المنحرفين عن الفطرة السوية، نقرأ ذلك في قوله - تعالى -: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (٤).

﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كناية عن صفة سيدنا لوط عليه السلام ومعناها: "ضاق بشأنهم ويتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع كذاء، إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال مالا يناله القصير الذراع، فحُضِرَ ذلك مثلاً في العجز والقدرة" (٥). فالكناية تخرج المعنى النفسي بالتمثيل تصويراً له وتجسيداً، وهو المعنى المكنى عنه ويتمثل في الشدة والكرب التي تجاوزت طاقته فعجز عن مقاومة قومه ومدافعتهم عن ضيوفه الذين حسب أنهم إنس فخاف عليهم من خبث قومه، وممّا يصعد معنى الكناية المقصود المجاز العقلي الذي انتهت به

(١) سورة البلد، الآية: ٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤ / ٦٠٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٥٢١ - ٥٢٢.

(٤) سورة هود، الآية: ٧٧. وينظر: سورة العنكبوت / الآية: ٣٣.

(٥) الكشاف: ٣ / ٣٥٧ - ٣٥٨.

الآية ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال زمن ﴿ يَوْمٌ ﴾ لا يكون عصيباً شديداً، وإنما هي نفسه ﴿ يَوْمٌ ﴾ في ذلك اليوم عصيبة مكروبة، ولكن وصف اليوم بأنه عصيب بهذا الاسناد المجازي باعتبار العلاقة الزمانية بصور عمق الشدة والكرب الذي ملأ عليه أقطار نفسه وفاض فشمّل الزمن، فهي لا ترى مخرجاً أو ركناً تلوى إليه (١) تحلّصاً من هذا الكرب.

## (٢) كنايات عن مصارع الغابرين:

يعرض القرآن الكريم مصارع الغابرين للعبرة والموعظة، فهي تحذّر الناس الوقوع فيما وقعوا فيه من الذنوب والخطايا التي أهلكتهم (٢)، فسنة الله ﷻ جارية لا تبدل ولا تحابي أحداً ولا تحيد (٣)، فما نزل بالأقوام الكافرة الغابرة من عذاب قد ينزل في الأقوام اللاحقة - إن هي كفرت - وإن اختلفت صور العذاب التي تحلّ بهم، لذلك يقدم القرآن مصارع الغابرين في ساحة واسعة من آياته تحكي قصص اهلاكهم وفي طياتها التحذير والتخويف... وفيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (٤)، فالنفس الانسانية شديدة الحساسية والتأثر بمصارع الغابرين التي تحث على الذكرى والاعتبار.

وقد كانت مصارع الغابرين كما يعرضها القرآن بألوان من العذاب والعقاب فكلاً أخذ الله بذنبيه، كما قال - تعالى -: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٥)

وذنن إذ تعرض مصارع الغابرين فإبما نعرضها في سياقات نصوص وصور كناية نحاول تحليلها وبيان قيمتها البلاغية في التعبير والتصوير والتأثير.

فغشيتهم من اليم ما غشيتهم:

- (١) ينظر: سورة هود، الآية: ٨٠.
- (٢) ينظر: السور الآتية: آل عمران، الآية ١١، ويونس، الآيات: ١٣، ١٤، وغافر، الآيات: ٤١، ٨١، ومحمد، الآية ١٠ مثلاً.
- (٣) ينظر السور الآتية: هود، الآيات: ٨٣، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١١٥، ١١٧، والحجر، الآيات: ٥٤، والإسراء، الآية: ٥٨، والفتح، الآية: ٢٣ مثلاً.
- (٤) ينظر: سورة ق، الآية: ٣٧.
- (٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

يأتي هذا التعبير الكنائي مصوراً عذاب قرعون وجنوده، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ قَابِئَهُمْ فَزَعُونَ يَحْنُودَهُ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (١)

﴿ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ كناية كُتِفَت معاني كثيرة وقامت في بنيتها على التهويل، تهويل المعنى المُكنى عنه وهو: شدة عذابهم وفضاعته الذي غشاهم لا يعلم كنهه إلا الله، جاء في التفسير: " ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله " (٢). وفضلاً عن هذا التجهيل لشدة العذاب وفضاعته الذي حل بهم، فإن الفعل (غشِيَ) يعمق من شدة هذا العذاب الموصوف الذي غمرهم وغطاهم، فالتعشية: التغطية (٣). أي: غطاهم العذاب ولا يسهم بأهواله، وغمرهم بألوان منه لا يعلم وصفها على حقيقتها إلا الله.

وهذا العذاب الذي صورته الكناية على سبيل التجهيل والتعظيم يتناسب مع قرعون وجنوده في طبيعتهم وفسادهم الذي ملأ الأرض (٤). وقرعون الطاغية هو مدعي الألوهية قولاً وفعلاً (٥). فناسب هذا العذاب جنس العمل، فعشيهم البحر وما فيه وغمرهم بالعذاب بهذا التعظيم له والتفضيع الذي يترأى من خلاله بأهواله العظيمة.

ويتكرر الفعل (عَشِيَ) في صورة كنادية أخرى في تصوير العذاب الذي حلّ بقوم لوط، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَفَجَشَّهَا مَا غَشَّى ﴾ (٦) والموتفة هي القرى التي انتذكت بأهلها، أي: انقلبت، وهم قوم لوط ﴿ أَهْوَىٰ ﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل، ثم أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها " (٧).

والكناية في قوله - تعالى - : ﴿ فَفَجَشَّهَا مَا غَشَّى ﴾ تصور عذابهم على سبيل الإيجاز، فالمعنى المُكنى عنه، وهو العذاب الفظيع المروع لا يحدده التصوير الكنائي، وإنما هو مطلق على سبيل التجهيل والتعظيم تذهب النفس كل مذهب في تصويره وتخيُّله.

(١) سورة طه، الآية: ٧٨.

(٢) الكشاف: ٣ / ٦١.

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٥ / ١٢٦ (عشأ).

(٤) ينظر: سورة القصص، الآية: ٤.

(٥) ينظر: سورة القصص، الآية: ٣٨، وسورة النازعات، الآية: ٤٤.

(٦) سورة النجم، الآيتان: ٥٣ - ٥٤.

(٧) الكشاف: ٤ / ٣٤٢، وينظر: البحر المحيط: ٨ / ١٧٠.

قال الزمخشري: " **﴿ مَا عَشْنُ ﴾** تهويل وتعظيم لما صبَّ عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود " (١)، فالكناية موحية بالمعنى المكنى عنه لا تحدده ولا تحصره وإنما يتراءى من سجعها صورة النمار والخسف التي تدمر كل شيء فقد لا يستهم بأهوالها وغطتهم، فهي صورة غريبة مروعة من العذاب، ولكنها تناسب فعلتهم الغريبة التي حكاها عنهم القرآن الكريم (٢)، فكان عقابهم جزاءً وفاقاً.

فالكنائتان تعرض صورتين من العذاب مروعتين، وقد عملت الكناية متصافرة مع الأسلوب الموجز في كل منهما - والإيجاز من خصائص الكناية القرآنية - على تصوير العذاب المناسب للسياق إذ أعدت الكناية في بنيتها على التجهيل والتعميم في إخراج المعنى المكنى عنه لتهويله وتقطيعه، ولتوحي بلسع العذاب الذي غشاهم بأهواله، وتلقي من ثم في نفس السامع أو القارئ الرعب من هذا المصير المشؤوم، فيعمل على تجذبه، ويمثّل لأمر الله، وبعم الصلاح والخير في حياة الفرد والمجتمع، وبذلك يتحقق الهدف المنشود.

### قَطْعُ الدَابِرِ:

يعتبر القرآن عن إهلاك الكافرين الظالمين بالتصوير الكنائي الموحى (قطع الدابر) في قوله - تعالى -: **﴿ قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** (٣)، **﴿ قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ ﴾** كناية تواسجت معها في التعبير والتصوير استعارة (القطع)، والقطع إنما يكون للأشياء المتماسكة الصلبة كالخشب مثلاً وما شابه ذلك، قال عبد القاهر الجرجاني: " أن القطع إذا أطلق فهو لازالة الاتصال من الأجسام التي تلتصق أجزاءها، وإذا جاء في تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعضهم كشيء الاستعارة، وإن كان المعنى في الموضوعين على إزالة الاحتماص ونفيه " (٤)، وهذه الاستعارة القريبة أو شبه الاستعارة كما يقول عبد القاهر تصوّر العذاب النازل بالظالمين على نحو مخصوص لأن القطع يشير إلى " معنى نفسي دقيق هو هذه الوشائج التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان

(١) الكشاف: ٤ / ٣٤١، وينظر: تفسير التحرير والتوير: ٢٧ / ١٥٥، وينظر: سورة هود، الآية: ٨٢، وسورة الحجر، الآية: ٧٤، وصفا لعذابهم بالمطر.  
(٢) ينظر: سورة الأعراف، الآيتان: ٨٠-٨١، وسورة العنكبوت، الآيتان: ٢٨-٢٩.  
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٥، وينظر: السور الآتية: الأعراف، الآية: ٧٢، والأنفال، الآية: ٧، والحجر، الآية: ٦٦.  
(٤) أسرار البلاغة، ص ٤٤.

واحد، والمجموعة في أرض واحدة، والتي هي أشبه باللحمة في الثوب" (١)، فالاستعارة تشير إلى تقطيع هذه الصلوات المتلاحمة بالعذاب النازل بهم، فهو عذاب شديد وكفه تقطيع وتمزيق للأجسام والأوصال لا يغادر منهم أحداً كما تصور الكناية ﴿دَائِرُ الْقَوْمِ﴾ فالداير هو آخر القوم، قال الزمخشري: "آخرهم لم يترك منهم أحد، قد استوصلت شأفتهم" (٢)، فالكناية تشير إلى معناها المكنى عنه والمتمثل في عذاب الاستئصال الذي يروو عنهم ويفزعهم، وهذا الترويع والفرع توحى به الكناية، بما فيها من حركة، لأن الداير: فاعل من دبر إذ أدبر (٣)، وفي ذلك تصوير لحالهم مندبرين من الفرع حين نزول العذاب، لعل في الإذبار نجاة أو أمان! ولكنه العذاب الشديد الذي يستأصلهم يأخذ آخرهم، فكيف بأولهم؟ فهو العذاب الذي يعم بالهلاك فلا يترك أحداً من الظالمين على قيد الحياة ﴿وَالْمَعْدِلُورِينَ﴾

### المشي في المساكن:

مما يدل على مصارع الغابرين آثارهم، ومن هذه الآثار ما هي قادمة، ومنها مندثرة كالزرع المحصود، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (٤) فآثارهم معروضة للمتأملين والمعذبين فهي تزحم النفس والخيال ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ لا تزال آثاره شاخصة باقية تروي قصة الكفر والبطر، ومنها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ علفي الأثر كالزرع المحصود، وكل منهما دالٌّ على موت أهلها وهلاكهم وزوالهم بعد الحركة والحياة.

والقرآن يتخذ من آثارهم ومساكنهم هذه معرضاً للإذاز والعبارة، كما نقرأ مثلاً في قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبُّوهُمُ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ (٥)

- (١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٢٠٢ - ٢٠٣. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم، ص ٨٥.  
(٢) الكشاف: ١٨ / ٤، وينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٩ / ٢٧٢، الكتاب الثاني.  
(٣) الكشاف: ١٥٦ / ٢.  
(٤) سورة هود، الآية: ١٠٠. وينظر: سورة يونس، الآية: ٣٤، وسورة الأنبياء، الآية: ١٥.  
(٥) سورة طه، الآية: ١٢٨. وينظر السور الآتية: النمل، الآية: ٥٢، والقصاص، الآية: ٥٨، والعنكبوت، الآية: ٣٨، والسجدة، الآية: ٢٦، والصفات، الآيتان: ١٣٧ - ١٣٨، والأحقاف، الآية: ٢٥.

﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾<sup>(١)</sup> كناية، والمعنى الظاهر الذي تدلّ عليه هو: أي وهؤلاء المكذّبين يمشون في مساكن أولئك المكذّبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها " (١) فهم يتقلّبون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم الشاخصة الموحدة لا ديار فيها ولا نافع نار. أما المعنى المُكنى عنه المقصود فهو ملزوم المشي في هذه المساكن ويتمثل في العبرة والاتعاط مما تحكيه تلك الآثار والمساكن الخاوية عن مصارع الغابرين الظالمين، عبرة تجنب الذين يمشون في تلك المساكن سنة الله الجارية في إهلاك الظالمين، والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن الخاوية الموحدة في الحسن والوجدان تكفي للإنذار والموعظة، فما لهم لا يعتبرون، ولا يتعظون كما يدل الاستفهام التعجّبي بالهمزة: ﴿ أَقَلَّمْتُمْ يَدَهُمْ... ﴾ تعجيب من حال الكافرين الذين لا يعون معنى الإنذار، والعبرة أمامهم معروضة للأنظار، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعْتَانِ ﴾ فهي عبرة للمؤمنين أصحاب العقول، وفي ذلك تعريض بالكافرين المكذّبين الذين لا يعتبرون بالآيات المعروضة، وإنما هي آيات للمؤمنين العقلاء المتوسمين.

ولا شك في أن القلب المؤمن حين يجول في مصارع القرون، وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملّى تلك المساكن وقد خلت من أهلها الظالمين، ويتصوّر شخصهم الزاهية، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآسألهم.. حين يتأمل هذا الحشد من الصور المزدهمة، ثم لا يرى إلا الخواء الموحش.. حينئذ يستيقظ للعبرة، ويدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى لظلمها وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها، ويعي معنى الإنذار والعبرة التي تبتعثها تلك المساكن (٢) الخاوية.

إِرم ذات العماد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذو الأوتاد:

ترد هذه الكنايات الثلاث في قوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَل رَبُّكَ بِمَادٍ ﴿١﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْاِمْسَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ سِوَاهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْاَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿٦﴾ فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفِسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿٩﴾ (٣)

في هذه الآيات الكريمة تتشكل ثلاث كنايات: ﴿ إِرْمَ ذَاتِ الْاِمْسَادِ ﴾ و﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ و﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْاَوْتَادِ ﴾ ثلاث أمم غابرة ذوات حضارة بلغت مبلغاً يذكر، قوم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٤٤٦، وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٥٠٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٥٠٤.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٦-١٤.



الموت<sup>(١)</sup>، وهم بدلاً من أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم كفروا ووجدوا نعمه وركنوا إلى قوتهم فدمرهم الله وعذبهم عذاباً شديداً بالريح الصرصر العاقية التي سخرها عليهم في أيام نجسات<sup>(٢)</sup>.

**والكناية الثانية:** في شأن ذمود الذين ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي تقطع الصخر، يقال "جاء الثوب واجتأبه: قطعه". وجاء الصخرة: حرقها"<sup>(٣)</sup>، وتقطيع الصخر وخرقه الذي يدل عليه ظاهر الكناية يراد منه ملزومه وهو المعنى المكنى عنه الذي تُوحي به ويتمثل في رقيهم الحضاري الذي بلغوه من قوة مادية وسيادة، فذمود قد قطعت الصخر لتشييده بيوتاً وقصوراً، وقد أشار القرآن في مواضع أخرى إلى هذا المعنى في قوله - تعالى - على لسان نبيه صالح **﴿مَنْ هَاهُنَا مُبْدِيَةٌ مِمَّنْ سَاءَ بِهَا مَا لِبَدُنِمْ أَتَدْرِكُونَ﴾** (٤) فالكناية تشير إلى رقيهم الحضاري الذي بلغوه بما أنعم الله عليهم.. ولكنهم كفروا وعدوا عن أمر ربهم ورسوله فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كفوا يكسبون<sup>(٥)</sup>.

وأما الكناية الثالثة: في شأن فرعون ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ فقد قيل فيها عدة معان:

- أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ويتركه حتى يموت.

- المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة.

- المراد الدلالة على ثبات ملكه.

- المراد بأنه صاحب الأهرامات والمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض

كالأوتاد<sup>(٦)</sup>.

ورجح بعض المفسرين المحدثين بأنها الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في

الأرض المثبته البنيان<sup>(٧)</sup>.

(١) في ظلال القرآن: ٥٧١ / ٨.

(٢) ينظر: سورة الحاقة، الأيتان: ٦ - ٧، وسورة فصلت، الآية: ١٥، وسورة الذاريات، الأيتان: ٤١ - ٤٢، وسورة القمر، الأيتان: ١٩ - ٢٠.

(٣) أساس البلاغة، ص ٦٨ (جوب). وينظر: لسان العرب: ١ / ٢٨٥ (جوب).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٤. وينظر: سورة الشعراء، الآية: ١٤٩.

(٥) ينظر: سورة فصلت، الآية: ١٧، وسورة الذاريات، الآية: ٤٤.

(٦) ينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٥٦، وينظر: الكشاف: ٤ / ٥٩٧.

(٧) ينظر: في ظلال القرآن: ٥٧١ / ٨، وينظر: ٩٠ / ٧.

والبيادي أن الكناية تشير إلى كل هذه المعاني، فهي كناية موحية، إلا أن أقرب معنى ظاهري تدل عليه هو أنه كان يوتد من يريد تعذيبه بأوتاد حتى يموت، والمعنى الأول الذي أوردناه، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في القرآن في مواضع أخرى من تهديد فرعون للسحرة الذي آمنوا بموسى عليه السلام، تهديدهم بعذاب التصليب في جذوع النخل ونقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف<sup>(١)</sup>، وفي جذوع النخل إشارة صريحة إلى هذه الأوتاد بوصفها وسيلة تعذيب معروفة لدى فرعون.. ومما يؤيد هذا المعنى الظاهر القريب السياق الذي جاءت فيه الكناية، فهو سياق عذاب، العذاب الطاعي الغامر الذي صبه الله عليهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُرْصِدٌ ﴿١﴾ وكان جزاءهم الذي لقوه هو من جنس عملهم.

أما المعنى المكنى عنه البعيد الذي تشير إليه الكناية والذي نرجحه هو ثبات ملاكته المرتكز على القوة، ومما يقوي هذا المعنى ويجلبه ما ورد في القرآن عن جعل الجبال في الأرض أوتاداً لها لتثبيتها واستقرارها ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٢﴾، فالثبات والاستقرار هو المعنى الذي تشير إليه الكناية وهو معنى ينطوي على المعاني الأخرى وهو من مظاهر ثبات الملك الدال عليه كالمباني العظيمة الثابتة التي تقوم في الأرض كالأوتاد أو تلك الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المثبته البديان، وكلها تشير إلى رقي حضاري، وقوة مادية، ولكنها قوة مادية طاغية، فقد أشار القرآن إلى قوة فرعون وجبروته، وأشار إلى البنيان العظيمة والأنهار التي تجري من تحته<sup>(٣)</sup>، وطغيانه في الأرض وتعذيبه لبني إسرائيل بألوان العذاب<sup>(٤)</sup>، بل أدعى الألوهية قولاً وفعلاً<sup>(٥)</sup> إنه كان عالياً في الأرض من المسرفين<sup>(٦)</sup> فأخذه الله وجنوده أخذ عزيز مقتدر، فلم تصمد قوته الغاشمة أمام قوة الله وجبروته وهذه هي سنة الله في الأقوام الكافرة الطاغية التي تبلغ مبلغاً من الحضارة المادية بكل ألوانها لأنها منقطعة عن الله كافرة به، فأخذها بألوان من العذاب الأليم.

### نقص الأرض من أطرافها:

- (١) ينظر: السور الإتيية: الأعراف، الآية: ١٢٤، وطه، الآية: ٧١، والشعراء، الآية: ٤٩.
- (٢) سورة النبا، الآيتان: ٦-٧، ينظر: سورة النحل، الآية: ١٥.
- (٣) سورة الزخرف، الآية: ٥١.
- (٤) سورة طه، الآية: ٤٧.
- (٥) سورة القصص، الآية: ٣٨، وسورة النازعات، الآية: ٢٤.
- (٦) سورة يونس، الآية: ٨٣، وسورة القصص، الآية: ٤.

وردت هذه الكناية في قوله - تعالى - : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا أَنَا فِي الْأَرْضِ نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ بَحْكَمٍ لَمْ يُعْجَبْ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴾ (١)

تتصل هذه الكناية: ﴿ أَنَا أَنَا فِي الْأَرْضِ نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالكنائيات الثلاث السابقة في شأن عاد وثمود وفرعون، إذ تصور لنا عاقبة الأمم الكافرة بالله ﷻ مهما بلغت حضارتها المادية في الرقي والتطور. وجاء في تفسيرها: " ﴿ أَنَا أَنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الكفر ﴿ نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام، وذلك من آيات النصر والغلبة" (٢) فالكناية تصور هذا المعنى على سبيل التمثيل بالصورة الحسية والمتمثلة بنقصان الأرض من أطرافها، وهذا يمثل المعنى الظاهر القريب لها، أما المعنى المكنى عنه البعيد فهو يلتقي مع هذا المعنى من حيث النصر والغلبة للمسلمين، والدمار والهلاك للكافرين، إلا أنه يتجسد على نحو مخصوص ويقرر حقيقة، وسنة من سنن الله في الأرض، وتتمثل هذه الحقيقة (المعنى المكنى عنه) في أن يد الله ﷻ القوية تفعل فعلها في الأمم القوية الغنية - حين تبطر وتكفر وتفسد - فننقص من قوتها ومن ثرائها، وننقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وسيادة، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معتب لحكمها ﴿ وَاللَّهُ بِحُكْمٍ لَمْ يُعْجَبْ لِحُكْمِهِ ﴾ ولا بد له من النفاذ (٣)

وبذلك فإن الكناية تشير إلى هذا اللون من العذاب البطيء وبه تطوى رقعة النول المتغلبة وتندسر وتزول أو تكون دويلات صغيرة لا قوة لها ولا سيادة، وكانت من قبل أميراتوريات، فإذا هي مغلوبة على أمرها بعد أن كانت غالبة، وإذا هي فقيرة قليلة العدد بعد أن كانت غنية كثيرة العدد. وهذه هي سنة الله كما تجليها الكناية.

### (٣) كُنَايَاتُ عَنِ الْعَذَابِ :

والعذاب الذي تصوّره هذه الكنايات متنوع منه عذاب أصحاب جهنم الذين يغشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنه عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان تخرجه الكناية بالتصوير الحسي المؤثر، وفيما يأتي عرض لها:

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١. وينظر: سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.

(٢) الكشاف: ٢ / ٤١٦. وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٨٧.

(٣) ينظر: في ظل القرآن: ٥ / ١٠٢.

من فوقهم ومن تحت أرجلهم:

تأتي هذه الكناية في قوله - تعالى - ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ كناية ومعناها الظاهر القريب هو أن العذاب يغشاهم من الجهتين: من فوقهم ومن تحتهم، أما المعنى المكنى عنه المقصود فهو أن العذاب يحيط بهم إحاطة شاملة، فهو عذاب شديد يطبق عليهم فيغشاهم ويلابسهم من كل مكان، ولكن الكناية تصوّره من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، لأن ذلك أبلغ في تصوير العذاب، إذ الكناية تخرج العذاب وكله جمم تغفهم به من فوق، أو يراكين تنفجر عنه من تحت أقدامهم (٢). وفي ذلك يتجلى هول العذاب وشدته، فضلاً عن إيحاء التخويف والمروع الذي تثيره الصورة في نفس المتلقي.

وثمة نلاحظ الكناية في سياق آخر في قوله - تعالى - ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُلَاقِيَنَّكُمْ بِأَسْ بَعْضِ أَعْظَمَ كَيْفَ تُصْرِفُونَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَعَهُمْ ﴾ (٣)

﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كناية عن العذاب الشديد الغامر الذي يحيط بهم، وخص بالذكر: من فوق ومن تحت لأنهما أبلغ في تصوير العذاب الذي يقهرهم به الله ﷻ إن شاء، وأشدّ وقعاً في النفس من تصوّره آتياً من يمين أو شمال، فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال، أما العذاب الذي يصبّ عليه من فوق، أو يأخذه به من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه. والكناية موحية بهذا الإيحاء القوي في حس الإنسان ووجدانه، كما أنها تقرّر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء (٤).

والكناية فضلاً عن ذلك لمّاحة إلى ألوان من العذاب التي أخذ الله بها قسماً من الأقسام الكفيرة العاغية، تشير إليها الكناية تخويفاً وتحذيراً. قال الزمخشري: ﴿ عَذَابَاتٍ مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥، وينظر: سورة الزمر، الآية: ١٦.

(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني، ص ٤٧.

(٣) سور الأنعام، الآية: ٦٥.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٣ / ٢٦٩.

فَوَقَّعَكُمْ ﴿١﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجازة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقلرون " (١).

فإنه قادر على أن يأخذهم بهذه الألوان من العذاب كما أخذ الأقوام السابقة، وهو المعنى نفسه الذي حذر الله منه المشركين وهددهم به في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٢) وسعى الكناية ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: " وإذا قيل للمشركين احذروا سخط الله وغضبه، واعتبروا بما حل بالأمم السابقين قبلكم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل، واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة لكي تُرحموا عرضوا واستكبروا وذلَّ عليه قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٣) فهي كناية عن عذاب الدنيا بالتعبير ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ وعن عذاب الآخرة بالتعبير ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وفي ذلك إحياء يقرب العذاب الذي يحيط بهم فهو أمامهم ووراء ظهورهم يأخذهم في أي لحظة فهي صورة كناية تثير في النفس الترهيب والتخويف من هذا العذاب القريب منهم والمحيط بهم وهم عنه غافلون.

من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم:

يصور القرآن الكريم بهذا التعبير الكنائي محاولة إبليس - لعنه الله - الدائبة لاغواء آدم ﴿وَدَرَيْتَهُ، فِي قَوْلِهِ - تعالى - على لسان إبليس: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْدُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿مِنْ أَيْدِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٤) ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ كناية، والمعنى الحسي القريب لها أن إبليس سيأتي البشر من كل الجهات لاغوائهم وإضلالهم عن طريق الله، عن طريق الحق والهدى، فهو العدو يأتي من الجهات الأربع للإطباق على عدوه.

أما المعنى المكنى عنه فهو تجسيد لوسوسته وتحويله للبشر ما أمكنه وقدر عليه (٥) من الإغواء والتضليل، والكناية تخرج هذا المعنى وتقربه إلى الأذهان في صورة متحركة، نرى فيها إبليس - لعنه الله - في إصراره العنيد على إغواء بني آدم، فهو يتربص بهم قاعداً لهم صراط الله المستقيم، والقعود كناية عن الملازمة، ووجه الكناية هو أن ملازمة المكان

(١) الكشاف: ٢ / ٢٥.

(٢) سورة يس، الأيتان: ٤٥ - ٤٦.

(٣) صفوة التفسير: ٣ / ١٧. وينظر: الكشاف: ٤ / ١٤، والجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الأيتان: ١٦ - ١٧.

(٥) ينظر: الكشاف: ٢ / ٧٣.

تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلباً الراحة، ومن ثم أطلق على المستجير اسم القعيد، ومن إطلاق القعيد على الملازم قوله - تعالى -: ﴿إِذْ يَتْلَى الْقُرْآنُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمِنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ الْمُنْتَبِهِينَ وَنَحْوَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمِنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ الْمُنْتَبِهِينَ﴾ (١) أي ملازم إذ لا يُوصف بعود ولا قيام (٢).

والصراط استعارة تصريحية تصور الاسلام من ايمان بالله وطاعات في صورة حسية، وابليس سيقعد على هذا الصراط المستقيم يصد عنه كل من يحاول اجتيازه إلى الله ﷻ ويرجعهم عنه ويضلّهم في شتى محاولاته كما صوّرت الكناية، فينقلبوا كافرين لا يعرفون الله ولا يشكرونها ولا يفلت منه إلا القليل ﴿وَلَا تَحِدُوا كَمَا كَفَرْتُمْ﴾ وفي الشكر كناية عن الكفر كما قال - تعالى -: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (٣) ووجه الكناية أن إبليس أراد الأدب مع الله - تعالى - فلم يصرح بين يديه بكفر أتباعه المقتضي أنه يأمرهم بالكفر (٤) ولا يخفي ما في التصوير الكنائي من تحذير من هذا العدو والمترصد الذي لا يني في إضلال البشر للحيلولة بينهم وبين الايمان والطاعة، تحذير شديد يثير النفس المؤمنة بالله الطائعة له أن تنبسط لهذا العدو وتندأ خطره بتقوى الله وطاعته فتنجو من عذاب الله.

#### (٤) كُنَايَاتُ عَنِ الرَّحْمَةِ:

وهي كُنَايَاتٌ مَعْدُدَةٌ تُصَوِّرُ رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ بِعِبَادِهِ، وَفِيمَا يَأْتِي عَرْضَ لِنَمَازِجِ مِنْهَا:

##### فتح البركات من السماء والأرض:

وردت هذه الكناية التصويرية في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥)

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ كناية قاسمة في بنيتها على الاستعارة المكنية حيث شبه البركات وكذاها محصورة خلف الأبواب المسغلة، ثم حذف الأبواب وأبقى شيئاً من لوازمها وهي (فتحنا) على سبيل الاستعارة المكنية، وفيها تتعمق دلالة تيسير البركات عليهم، قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ تيسيرها عليهم

(١) سورة ق . الآية: ١٧ . وينظر: سورة الأعراف ، الآية: ٨٦ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٤٧ - الكتاب الثاني .

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ١٥٢ .

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٨ / ٥٠ - الكتاب الثاني .

(٥) سورة الأعراف ، الآية: ٩٦ .

كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنه قولهم: فتحت على القارىء، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليهم بالتلقين " (١) والاستعارة ليست غاية بحد ذاتها وإنما هي وسيلة نقودنا إلى معنى مُكنى عنه يتوارى خلفها، وبذلك تكون كناية تشير إلى معناها المُكنى عنه، ويتمثل في ذلك الفيض من الرزق المُبارك من السماء والأرض، وهو رزق لا ينحصر بالماء النازل من السماء والنبات في الأرض، وإنما هو طرق يأتي من كل وجه بلا تحديد وتقييد، هو رزق مبارك ذو دلالة شاملة لكل أنواع البركات في كل صورها وأشكالها المادية والمعنوية، وذلك بشرط الإيمان والتقوى كما دلّ سياق الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ مَأْمُونًا وَأَنْقَرُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم مَّا وَوَدَّعُوا رَبَّهُمْ غَيْرَ مِحْنَةٍ أَلَمْ يَكُونُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) فالعنى المُكنى عنه غير محدد برزق مبارك معين، وإنما يشير إلى دلالة السعة والفيض والخصب والرضا والسعادة. وهي صورة جليلة من صور الرحمة والالهية بعباده لو آمنوا به وأنقوه.

#### الأكل من فوق ومن تحت الأرجل:

وتلتقي هذه الكناية مع الكناية السابقة في تصوير رحمة الله بعباده بالصورة الحسية في تقريب المعنى المُكنى عنه إلى الأذهان، وذلك في قوله - تعالى - عن اليهود والنصارى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ لَمَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ لَنَجِّنَّهُمْ أُمَّةً مُّقْتَصِدَةً وَكَيْفَ نُنزِّلُ سَاءَ مَا يَمْكُرُونَ﴾ (٣)

فالكناية ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ تصوير حسي، والمعنى القريب كما جاء في التفسير: " لأكلوا الأرزاق النازلة عليهم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ من السماء بإنزال مبادئها، والأرزاق النابتة ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي مما تحتها من الأراضي الخصبة المنتجة المثمرة " (٣)، وأورد الزمخشري ثلاثة أوجه من المعاني:

- أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض.
- أن يكثر الأشجار المثمرة والزرع المغلة.
- أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتثون ما تهطل منها من رؤوس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم (٤).

(١) الكشاف: ١٠٥ / ٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٣ / ١٧٩.

(٤) الكشاف: ٦٣٠ / ١.

أما المعنى المُكنى عنه بهذا التعبير الكنايني فهو السُّعة في الرزق على المؤمنين المتقين، رزق مبروك لا يتحدد بالجهتين المذكورتين (فوق وتحت) حسب، وإنما فيه دلالة الوفرة نعم البلاد بالخيرات والثمار والأرزاق ينالها العباد بشرط الإيمان والتقوى. وبذلك تجلي هذه الكناية، فضلاً عن الكناية السابقة المعنى المُكنى عنه مصوراً بالصورة الحسية المؤثرة يقرآن سنة من سنن الله تتمثل في أن الإيمان والتقوى يكفل للمؤمنين المتقين وفرة في الرزق المبارك في حياتهم الدنيا، فضلاً عن جزاء الدار الآخرة بتنعيمها الدائم الباقي.

## وحملناه على ذات ألواح ودسر:

ترد هذه الكناية في سياق الطوفان، وهي تجلي صورة من صور الرحمة الإلهية بالعباد المؤمنين: نوح عليه السلام ومن آمن معه، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ **وُدُوسٍ** ۝ (١) 》

﴿ **عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُوسٍ** ﴾ كناية عن السفينة التي حملت نوحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين، قال الزمخشري: " أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتتوب منابها وتؤدي مؤداها " (٢)، أي فدكّني عن الموصوف (السفينة) بلفظين هما: الألواح والدسر اللذان يثيران إلى أنها كانت سفينة محكمة بهما، وهو المعنى الذي يلائم سياق الطوفان الصعب الذي أحاط خطره وأحرق بكل حي ﴿ **فَفَنَحْنَا أَوْتَابَ السَّمَاءِ بِمَا كُفَرْتُمْ ۖ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عَيْونًا فَالْتَمَعْنَا عَلَىٰ أَمْرٍ قَدِيرٍ ۖ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُوسٍ** ﴾ (٣)، فهي سفينة محكمة قد صنعها سيدنا نوح بعين الله ورعايته كما قال - تعالى -: ﴿ **أَن اصْبَحُ الْمَلَكُ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا ۖ (٤)** 》， والتكثير في ﴿ **الْأَوْجِ** ﴾ يفيد التعظيم والنوعية معاً، فهي من نوع من الألواح غريب وعظيم، وكذلك يُقال في (الدسر) (٥).

وقد لاحظ الدكتور محمد أبو موسى معنى آخر مضاداً لهذا المعنى بقوله: " الكناية عن السفينة بذات الألواح والدسر ليس بياناً لمكانتها وقوتها وأنها يأمن من فيها، وإنما هو تهوين لها، وأنها لا تحفظ أحداً، وإنما كان الحفظ بعناية الله وحدها، وكأنهم في وسط هذا الموج الهادر الذي ابتلع الحياة والأحياء آمنون وهم على ألواح لا تُغني عنهم من الأمر شيئاً، لأن عناية الله كانت هي التي تحفظ، وفي هذا تكريم لهؤلاء الذين آمنوا، وأنهم لم ينجوا بسفينة ناجية، وإنما نجوا على سطوح ألواح هينة " (٦).

وفي هذا يتجلى بيان الكرامة التي كانت من الله لنوح والذين معه ورحمته بهم في ذلك الموقف وهوله العظيم الذي أحاط بالأحياء والحياة.

(١) سورة القمر، الآية: ١٣، وينظر: السور الأدبية: الشوري، الآية: ٣٢، والذاريات: ٣، والرحمن، الآية ٢٤، والحاقة، الآية: ١١ وفيها كنايات عن السفينة بوصفها آية من آيات الله وتجلي صورة من صور رحمة الله بالناس.

(٢) الكشاف: ٣٤٥ / ٤.

(٣) سورة القمر، الآيات: ١١ - ١٣.

(٤) سورة المؤمنون، من الآية: ٢٧.

(٥) ينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٧ - ٤١٨.

(٦) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٨.

## (٥) كُنَايَاتٍ أُخْرَى:

بضم هذا المبحث عدة كُنَايَاتٍ، كل كُنَايَة تنفرد بموضوع معين، وفيما يأتي عرض لها:

### التَّنَشِيَةُ فِي الْحَلِيَّةِ وَفِي الْخِصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ:

وردت هذه الكُنَايَة عَنِ الْإِنَاثِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿أَوْمِنُ يُنَشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ﴾<sup>(١)</sup>، كُنَايَة عَنْ مَوْصُوفٍ وَهِيَ (المرأة)، وَقَدْ أُبْرِزَتِ هَذِهِ الْكُنَايَة فِي الْمَرْأَةِ صِفَاتٌ مَعْيَنَةٌ، وَهِيَ صِفَاتٌ ذَوَاتُ دَلَالَةٍ مَهْمَةٌ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ الَّتِي تَشَكَّلَتْ فِيهَا الْكُنَايَة، وَيَحْسُنُ بِنَا أَيْرَادَهَا لِيَتَجَلَى مَعْنَى الْكُنَايَة بِوَضُوحٍ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا لَئِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفْرٌ مَبِينٌ﴾<sup>(٢)</sup> أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَفْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَانَكُمْ بِالْحَنِينِ ﴿وَإِنَّا بِبَشَرِهِمْ لَأَعْدَاهُمْ يَمَّا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup> أَوْمِنُ يُنَشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مَبِينٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

فَالْكُنَايَة تُشِيرُ إِلَى أَنَّ النُّعُومَةَ وَالرَّخَاوَةَ مِنْ صِفَاتِ النِّسَاءِ، وَفِي ذَلِكَ رَمَزٌ إِلَى أَنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لَيْسَتَا مِنْ أَوْصَافِ الرِّجَالِ الَّذِينَ أَحْبَبُوا لِلْمَجَالِدَةِ وَتَعْمِيرِ الْأَرْضِ، فَالنَّشَأُ فِي الزِينَةِ وَالتُّعُومَةُ مِنَ الْمَعَايِبِ وَالْمَذَامِ لِلرِّجْلِ، وَأَنَّهَا مِنْ صِفَةِ الْمَرْأَةِ، فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَتَجَنَّبَ ذَلِكَ وَيَأْتَفَ مِنْهُ<sup>(٥)</sup>، وَكُونَ (المرأة) تَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ فَهِيَ مَشْغُولَةٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَزِينَتِهَا. وَفِي الْكُنَايَةِ بَيَانٌ لَتَجَاوِزَهُمْ وَغَيْبُهُمْ حِينَ جَعَلُوا الْإِنَاثَ جُزْءًا مِنَ الرَّحْمَنِ وَبِضَعَةَ مِنْهُ - تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَهَذَا يَتَنَلَفَى مَعَ الْجَبْرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَسَيْطَرَةِ الرَّبُوبِيَّةِ، وَالْعَرَبُ أَعْرَفَ أَقْوَامِ الْأَرْضِ بِمَا تَتَطَوَّى عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْحِبَاظَةِ وَالْحِمَايَةِ، وَحَيَاةِ الْحَرْبِ وَالْغَارَةِ الَّتِي كَانَتْ قِطْعَةً مِنْ جُودِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْأَةِ فِيهَا بِلَاءٌ، ثُمَّ يَجْعَلُونَهَا مَثَلًا لِلرَّحْمَنِ وَهُمْ ﴿وَإِنَّا بِبَشَرِهِمْ لَأَعْدَاهُمْ يَمَّا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٢) سورة الزخرف، الآيات: ١٥ - ١٨.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ١٩٢، وينظر: التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٨ - ٤١٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ٥٨.

(٥) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، ص ٤١٩.

﴿ وَهُوَ فِي الْإِصْرَارِ عَزِيمٌ ﴾ تجلّي صفة أخرى للموصوف الذي يتربّى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجازاة الخصوم ومجازاة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يتألّى ببرهان يحتج به من يخاصمه (١). وذلك لضعف فطرة عن الرجال. وبذلك يبرز عجز الموصوف وضعفه في التعبير الكناهي بالذبات شاهده ودليله من الواقع الذي يعايشونه، ومنطقهم الذي يؤمنون به، فيتجلى ظلمهم وغبثهم، فضلاً عن شركهم بالله ﷻ حين يجعلون له مما خلق جزءاً من المخلوقين.

### تطهير الثياب:

جاءت هذه الكناية خطاباً للرسول ﷺ في قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ كَذِبٌ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا الْقَلْبُ ﴿٤﴾ ﴾ (٢).

﴿ وَيَا أَيُّهَا الْقَلْبُ ﴾ كناية، والمعنى القريب لها هو: أن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات، لأن طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها (٣)، والمؤمن طيب طاهر، لا يليق منه أن يحمل الخبث. وقد كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه (٤).

أما المعنى البعيد المكنى عنه، فهو (القلب) كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما): كنى بالثياب عن القلب والمعنى وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي بقول غيلان: **وَأَبَى بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَوْبَ فَاجِرٍ لِيَسْتَلَّ وَلَا مِنْ عُدْرَةٍ اتَّقَعَ** (٥) وتقول العرب: " فلان طاهر الثياب و طاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق، وفلان دنس الثياب للغادر، وذلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويشتمل عليه، فكنى به عنه. ألا ترى إلى قولهم: أعجبتني زيد ثوبه، كما يقولون: أعجبتني زيد عقله وخلقته، ويقولون المجد في ثوبه، والكرم تحت حلته، يكونون عن نسبة المجد والكرم إليه. ولأن الغالب أن من طهر باطنه ونقاها عني بتطهير الظاهر وتفتيته، وأبى

(١) الكشاف: ٤ / ١٩١.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١ - ٤.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤ / ٥١٦.

(٤) صفوة التفسير: ٣ / ٤٧٤.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ٩١، وينظر: التفسير الكبير: ٣١ / ١٩٣.

الآ اجتناب الذبث وإيثار الطهر في كل شيء " (١)؛ فلما كان الثوب كالشيء الملازم للإنسان، جعلوه كنايةً على سبيل المجورة، وكناية المجورة هي - كما عرفها البلاغيون - أن نريد ذكر الشيء فنتركه إلى ما جوره (٢) وجعل الرازي مرتد حسن هذه الكناية إلى هذه المجورة بين لفظ الكناية والمعنى المكنى عنه (٣). كما يتجلى حسن الكناية من حديث المعنى في ملاءمتها لسياق الإنذار الذي جاءت فيه، فطهارة الموصوف (القلب) هي الحالة المناسبة للتلقى من الملاءم الأعلى، فالطهارة هي الصق شيء بطبيعة الرسالة، وهي ضرورية لملازمة الإنذار والتبليغ (٤).

#### البهتان المفترى بين اليدين والرجلين:

وربت هذه الكناية في قوله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمَهْتَبٍ بِفَتْرَيْنَهُ. بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ مَّبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَنَّ لَنْ أَلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥)

﴿ بِيَمِينِنَّ بِفَتْرَيْنَهُ. بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ ﴾ كناية عن موصوف، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): " لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن " (٦) وقال الزمخشري: " كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين " (٧). فالموصوف هو الولد اللقيط، وليس المراد الزنا وذلك لتقدمه في السياق بالنهي صريحة ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ولعل هذا التحفظ - بعد المبايعة على عدم الزنا - كان للحالات الواقعة وقتئذٍ من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال، فإذا جاءت بولد، نظرت أيهم أقرب به شيئاً فالحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم فألحقت به ابنها وهي تعلم من هو أبوه!

(١) الكشاف: ٤ / ٥١٦. وينظر: صفوة التفسير: ٣ / ٤٧٤، والمنتخب من كليات الأبياء وإشارات اليلغاء، ص ٨.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٨.

(٣) التفسير الكبير: ٣٠ / ١٩٢.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٨ / ٣٦٠.

(٥) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٦) الاتقان في علوم القرآن: ٢ / ٤٧.

(٧) الكشاف: ٤ / ٤١٥، وينظر: روح المعاني: ٩ / ٥٧.

والكناية تشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور يدعى، ولعل ابن عباس (رضي الله عنهما) خصصه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك (١).  
ومن ثم نلحظ من الكناية والسياق مدى اهتمام القرآن بالمرأة إذ يرتفع بها إلى حيث تحقّق إنسانيتها إذا ما تحققت في واقعها باجتئاب ما ينهي عنه القرآن.

(١) في ظلال القرآن: ٨ / ٢٠.

### الخاتمة

بعد أن شارفت - بحمد الله تعالى - نهاية المطاف في كتابة هذا؛ وقد كان تجربة عظيمة ممتعة في رحاب القرآن العظيم، وجدنتني أقف على نتائج تمخض عنها؛ أجمالها بما هو آتٍ:

١ - دَبَّيْن لَنَا - خلال المهاد - أن الكناية في اللغة هي عدول عن لفظ إلى آخر دال عليه، وهذا العدول لا يعني إخفاء المعنى المقصود للايهام والتضليل كما هو في (التورية)، ولا يعني - أيضاً - توخي الجمال والتفنن والتوسع في التعبير اللغوي، أو ارادة غرض مما يرمي إليه سياق العبارة حسب، وهو بالضرورة يجانب إبراز المعنى وإظهاره وكشفه فينقلب التعبير إلى تعبير مباشر يقرّر معناه بطريقة مباشرة، وإنما يعني أن المعنى المُكْنَى عنه ليس بالواضح وضوح المذكور صراحةً، ولا هو بالخفي المضلل الذي لا تكاد تَنبِيئْتَه بالتأمل وإمعان النظر، وإنما هو أشبه ما يكون مكسوّاً بثوب رقيق شفاف يُوحى بالمعنى ولا يباشر به يلمح إليه ولا يقرّره.

أما الكناية في الاصطلاح فقد أسهم جمع غفير من العلماء وبخاصة أصحاب البلاغة في تطوير دلالتها الاصطلاحية حين استقرت مصطلحاً عند المتأخرين منهم.

ولاحظنا في المهاد أن المفهوم اللغوي للكناية هو الطابع الأساس لها إلى عصر قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هـ) حيث أريد بها غالباً (الستر والإخفاء) وإن لم تخل من العمق والنضج ومن بعض الملاحظات التي حددت التعريف الاصطلاحية وجدنا أنها قد تطورت من المفهوم اللغوي إلى المفهوم الاصطلاحية عند قدامة، فهو أول من عرفها باسم (الإرداف) ولم يسمها كنايةً، كما فعل أبو هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني من بعده، والشواهد التي ساقها له هي من شواهد الكناية.

وذهب المهاد إلى أن الكناية تعبير مجازي وهو ما ذهب إليه أكثر علماء البيان، وذلك لأن الكناية من أساليب التعبير غير المباشرة، وما يُراد منها غير ما

يدل عليه ظاهر اللفظ وهو المعنى الحقيقي، وإذا المقصود معنى آخر يخفي وراء ظاهر اللفظ الكنائي ويرتبط به، وما دام المراد ليس الحقيقة الموداة بظاهر اللفظ فالأولى أن تكون الكناية من المجاز، فضلاً عن أن هناك ألواناً من الكناية يتعدّر فهم معناها الحقيقي أو إيراده، ويُنضح ذلك بخاصة مع الكناية بالتمثيل. وتبين أن التعريض هو لون من ألوان الكناية، أو طريقة متميّزة من طرقها له خاصية فنية في التعبير عن المعنى إذا جاء في سياق المعين النابع من الموقف الخاص الذي يُقال فيه الكلام، وأن دلالة التعريض هي أخفى من دلالة الألوان الأخرى من الكناية كالإرداف والتمثيل والتلويح والإيماء والإشارة، لأن دلالاته تتحقّق من جهة المفهوم، ودلالاتها لفظية وضعية من جهة المجاز، وأن التعريض يختصّ باللفظ المركب وأن صور الكناية الأخرى تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً.

وفي ضوء الوسائط بين المُكنى به والمُكنى عنه قريباً أو بُعداً أو خفاءً أو جلاءً كان تقويم البلاغيين لأسلوب الكناية، إذ جعلوا معيار جودة الكناية راجعاً إلى هذه الوسائط في بيانها ووضوحها في الدلالة على المعنى المقصود، وعدوا ذلك شرطاً من شروط البلاغة. وقد أسس البلاغيون المتأخرون مصطلحات في ضوء هذه الوسائط التي توصلنا إلى المُكنى عنه، فبنوا على ذلك خمسة أنواع هي: التعريض والتلميح والإيماء والإشارة والرمز.

كما نظر البلاغيون في طبيعة (المُكنى عنه) الذي يتوارى خلف سجع الكناية فجعلوه ثلاثة أصرب، وتبعاً لذلك فإن الكناية أنواع ثلاثة: الكناية عن الصفة، والكناية عن الموصوف، والكناية عن النسبة.

وكل ما ذكره من هذه الأصرب هو صور بديلة لازمة للمعنى الحقيقي المقصود يتميز الواحد من الآخر بسمة لغوية وفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بحيوية وقوة وتأثير، لأن الكناية من الأساليب البيانية التي تتسم بالإيجاز وغير المباشرة في التعبير عن المعنى، وهي تؤدي المعنى بذكر لوازم حسية تكون دليلاً وبرهاناً في أدبنا المعنى، ومن ثم كانت الكناية أبغ من

التصريح وأوقع في النفس منه وأكد في إثبات المعنى في الذهن والنفس وهذا سرّاً بلاغتها.

ولاحظ المهاد أن المفسرين واللغويين والنحاة والأدباء والبلاغيين قد عُنوا جميعاً بالكناية القرآنية في الاستشهاد بها، وبيان المعاني التي تنطوي عليها، إلا أن ما ذكره من الكنايات القرآنية كان محدوداً، إذ يكرر - على الأغلب - اللاحق منهم ما ذكره السابق، لذلك ظلت الكناية القرآنية بحاجة إلى استقصاء شامل في القرآن كله، استقصاء يجمعها على صعيد واحد لدراستها دراسة موضوعية شاملة تبيّن خصائصها التعبيرية والتصويرية بوصفها أسلوباً من أساليب القرآن البليغة المعجزة.

٢ - وفي الفصل الأول (الكناية الجنسية) لاحظ: دقّة القرآن الكريم في استخدامه الكناية، إذ إن كل الكنايات الجنسية تشترك في المعنى المكنى عنه الرئيس (الجماع)، وتفترق كل كناية بإيحاء خاص ينسجم مع السياق الذي تكون فيه، فهي موضوعة في موضعها اللانق بها، وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن، ويتجلى في الكناية الجنسية البعد التهذيبي، فالقرآن بالكناية يتسامى ويرفع عن التصريح بالألفاظ البيذنة المفحشة التي تخذش الشعور وتحطّ من الذوق الإنساني وهو يرتفع بالعلاقة الزوجية إلى أفق كريم ينأى بها عن الصورة الحيوانية الغليظة، ومن مجموع إيحاءات الكناية الجنسية نلحظ إيحاءاً للإنسان بالصورة الإنسانية في المباشرة والالتقاء.

ولاحظنا أنّ ما ورد من الكنايات الجنسية ينطوي على دلالة موحدة خاصة - إذا ما قورنت بما ورد في القرآن من ألفاظ صريحة دالة على الفاحشة كـ (الزنا والواط) التي تقلّ قلّة ملحوظة إزاء الكنايات الجنسية المشروعة بين الزوجين - وتتمثّل هذه الدلالة في الحث على تضييق النطق بالفاحش من القول والتداول به في المجتمع، لأن تداوله يعمل على إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، فتشيع في النفوس ثم تشيع بعد ذلك في المجتمع، فهو بُعد اجتماعي مرتبط بالبعد التهذيبي، وهما هدف من أهداف القرآن الذي يحارب شيوع الفاحشة في الواقع، لأنها لا تليّ الفطرة السليمة، وتعمل على فساد المجتمع.

٣ - وعلى صعيد الفصل الثاني (الكناية اللونية) أظهر: أن الكناية باللون نوعان: الأول: ذكر اللفظ الدال على اللون مباشرة في التعبير عن المعاني والمشاهد والمواقف النفسية المتنوعة، كالكناية باللون الأبيض، والأسود، والأزرق، والأخضر، والأصفر.

والثاني: التعبير عن اللون بصورة غير مباشرة، يدرك فيها اللون من خلال الصورة الكنائية التي يتغلغل فيها اللون فينداعي للمتلقى بطريقة ذهنية، فيشير بذلك إلى المعاني والإيحاءات المتنوعة، وتبين من عرض أمثلة الكناية باللون بدلالة مباشرة وغير مباشرة أنها كانت غدية بإيحاءاتها، فهي ذات قيمة فنية في تصويرها للمعاني والمشاهد فيما ترسمه من ظلال حول المعنى فتوحي بأكثر من دلالتها الظاهرة، وهي أكثر ما ترد في مشاهد يوم القيامة بوصفها أسلوباً ذا قوة تعبيرية في تجسيد المعاني النفسية في حيوية وقوة تأثير وامتاع.

٤ - وبين الفصل الثالث (الكناية النفسية) على نحو جلي الإشارات الوجدانية والمشاعر النفسية التي جسدتها الكناية بالتصوير الفني المؤثر، والكناية القرآنية لا تدف في معانيها ودلالاتها عند التصوير الحسي، وإنما يوحي التصوير فيها بتضاعف دلالي معنوي ونفسي مؤثر يقرب الأفكار والمعاني إلى الحس والوجدان فتتفعل له النفس انفعلاً من شأنه أن يحدث استجابة نفسية معينة في المتلقى. والكناية النفسية تظهر بالتصوير الحسي دخائل النفوس، والمشاعر الباطنة، والانفعالات النفسية في حركات حسية نابضة بالحياة، سواء أكانت هذه الحركة باليد أم بالراس أم بالعين أم غير ذلك من أعضاء جسم الإنسان، فإنها تشير إلى المعاني النفسية المقصودة من ندم وحسرة وغيظ وحقد وجحود وإعراض، وهزيمة وخوف وقلق وفرح، واحترق واستهانة، وفرح ومسرة وطمأنينة تعرض كل هذه المعاني النفسية في سياقات مختلفة وأحوال متباينة في الحياة الدنيا في مواقف متنوعة، وفي الآخرة في مشاهد يوم القيامة المروعة.

٥ - وحلى الفصل الرابع (الكناية الخلقية) موضوعات تتعلق بقيم خلقية إيجابية كانت أم سلبية مثل: الغيبة والنميمة، والبخل والتبذير، والشجاعة والجبن، والتكبر

والتواضع، والعفة والصبر على مغريات الحياة الدنيا، وما إلى ذلك من موضوعات تتعلّق بأخلاق الإنسان وسلوكه وهو يتحرك ضمن المجتمع الذي يعيش فيه.

والقرآن حين يعرض هذه الموضوعات الخلقية - على الأغلب - لا يعرضها بتعابير ذهنية مجردة وبتقريرية مباشرة، وإنما يعرضها بالأسلوب الكنايي الذي ينهض بنصيبه الفني الكامل في أداء المعاني وتصويرها بطريقة من شأنها أن تحث الاستجابة الوجدانية المناسبة في السامع أو القارئ وهو يتلقى هذه الموضوعات التي يقصد القرآن إلى تثبيتها في نفسه وقلبه أو تنفيره منها.

٦ - وبين الفصل الخامس (الكناية الساخرة) أن السخرية أسلوب عدائي مصوغ بروح الفكاهة عمد إليه القرآن الكريم لتحقيق أغراض قصد إليها، والسخرية في القرآن الكريم قد ينظر إليها بعضهم على أنها لا تتفق وجمالة القرآن من حيث إنه كلام الله، لذلك لا يسوّغون نسبة السخرية بمعناها المعروف إلى الله ﷻ، لكن القرآن يصفنه ناطقاً بلسان المسلمين يجعل الصور الساخرة التي ساقها، ومنها (الكنايات الساخرة) يجعلها كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم، وذلك لأن القرآن في كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم إلى النصر، وفي الوقت نفسه يحطم مركز أعداء الإسلام ويدفع بهم إلى الهزيمة أو الشعور بها أو توقّعها.

لذلك فإن الكنايات الساخرة التي تُمدّل جانباً ملحوظاً من أسلوب السخرية في القرآن هي ليست أسلوباً تعبيرياً وتصويرياً يبعث على الضحك، وليست هي تهجماً أو هجاءً أو تهوين شأن الخصم حسب، وإنما هي - أيضاً - وسيلة حيوية لتحقيق أهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية النفسية أم من الناحية الاجتماعية.

والكناية الساخرة في طبيعتها سلاح يستخدمه القرآن ضد أعداء المسلمين، وهي في - الأعم الأغلب - تستهدف أئمة الكفر والشرك الذين يسدون ضرباتهم العدائية للإسلام والمسلمين بكل ما أو تواروا من قوة.. لذلك سيزهّم القرآن بتعابير كنادية ساخرة تنال منهم نبلاً مولماً، إذ نهضت الكناية بوظيفتها الفنية في أداء المعاني

والأفكار التي قصد القرآن إليها، ولو جاءت تعابير حقيقية غير الكناية لما استطاعت أن تنهض بما نهضت به الكناية تعبيراً وتصويراً في مواضعها التي اختارها القرآن.

٧ - أما الفصل السادس (الكناية المعرفية) فقد تناول ذلك الكنايات التي تتعلّق بالحواس من سمع وبصر وفواد والتي يتم بها تحصيل العلم والمعرفة التي هي أداة هادية إلى الإيمان بالله ﷻ، فيمتاز الإنسان بها من المخلوقات الأخرى، ويبيّن هذا الفصل من خلال كناياته عالمين مّضادين: عالم الإيمان والهدى وأصحابه المؤمنين، وعالم الكفر والضلال وأصحابه الكافرين الضالين، على التقابل في دلالاتهما الفكرية والنفسية، وقد حقّقت الكنايات المعرفية دلالات عميقة في الحس والشعور، ويقدر بساطة التراكيب الكنادية ووضوحها تكون قوة عطائها وعمق إحادها في المعاني والأفكار، إذ يتقابل أمام الفكر والنفس عالمان متناقضان في دلالاتهما في صورة بياضية كاشفة تفصل كل عالم من هذين العالمين بصفات حسية تشخص ر موزاً لا ينقطع إيحائها بما أخرجت المعاني والأفكار بحيوية ليس لتقريرها حسب، وإنما لتتوغل دلالاتها في كيان الإنسان ليتلمّى معانيها وأفكارها، ولتترسّخ معطياتها في الفكر والنفس.

٨ - وأيقن: أن (الكناية التعريفية) في الفصل السابع هي لون من ألوان الكناية لا تقع إلا في التركيب على خلاف ألوان الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب، وهي تفيد القول بلاغة في سياقها، وذلك لأنها تشير بخفاء ومن دون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد فتبعث على إثارة الذهن للتعرف على المعنى المراد، من طريق سياق القول ومقتضياته، ولأنها تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقّق معناها الذي ترمي إليه من طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير ذكر ما يتعلّق بالطرف المقابل المعرّض به حفاظاً على مشاعره من الأمهتان، لذلك تعدّ من الأساليب البياضية التي تفيض بالأدب القرآني الذي تتطبع به لغته المهذبة تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الإنسانية من العبث والغبط والإثارة المؤذية، ولذلك يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على الاستجابة النفسية المناسبة التي يقصد القرآن إلى إحداثها في النفس الإنسانية المتلقية.

٩. وبين الفصل الثامن (كنايات عن يوم القيامة) أن القرآن يستخدم اللفاظ كناية مَعَدَّة في التعبير عن يوم القيامة، وكلها تشير إلى انقراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضاوبته التي تُمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس الذي يضبطها بقدرة الله وإرادته.

وكشف: عن أن كل لفظ من هذه الألفاظ الكنازية عن يوم القيامة يحوي صفة من صفات ذلك اليوم العظيم وأهواله بلفظه وإيقاعه الموسيقي، إذ إن الألفاظ الكنازية عن يوم القيامة من الأسماء التي خُتمت بناء التأنيث فانتقلت من الوصفية إلى الأسمية، لذا فهي تقيد العموم والثبوت والشدة والقهر، كما أن التعريف في هذه الألفاظ هو تعريف الجنس لتمييزها من بين الأجناس على وجه التخصيص، فيوم القيامة هو يوم عظيم لا تحيط الألفاظ والعبارات بوصف أهواله وأحداثه. إلا أن تعدد هذه الكنايات وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد أهوال ذلك اليوم وشدته على الكون والحياة والادسان، فتحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، إذ الملاحظ أن هذه الكنايات قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها تأسيس أصول الدين الكبرى في القلوب والنفوس، وهي توحيد الله ﷻ في ألوهيته وربوبيته للكون والخلق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضلته على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وبين الفصل أن هناك كنايات أخرى تتصل بكنايات يوم القيامة تصور شدة ذلك اليوم وكرهه على الكافرين في مشاهد يوم القيامة، وكنايات أخرى تتعلق بمشاهد الناجين والمعذبين في ذلك اليوم المشهود، مشهد الناجين وهم أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، ومشهد المعذبين وهم أصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم بالشمال أو وراء الظهر. فالقرآن يجلي حقيقة (النجاة) من وراء إتيان الكتاب باليمين، وحقيقة (الهلاك) والثبور من وراء إتيان الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر، وهما حقيقتان المقصود أن نستقيهما كما أخبر بهما القرآن الكريم.

١٠. ثم ينتهي: بالفصل التاسع (كنايات في موضوعات متفرقة)، وقد ضمَّ مجاميع من الكنايات، تشكّل كل مجموعة منها موضوعاً قائماً بذاته، وتشترك كل مجموعة من الصور الكنازية في معالجة موضوعات يجمعها حيط فكري واحد.

المجموعة الأولى: بعنوان (كنايات عن الشدة والكرب) اشتركت فيها ثلاث كنايات بإيحاء الشدة والكرب الذي يفتاب الإنسان في حياته، والشدة والكرب الذي يواجهه في موته وبعثه، وشدة وكرب وهو يواجه الحياة، يعرضها القرآن من خلال مواجهة نبي من الأنبياء (عليهم السلام) قومه الظالمين المنحرفين عن الفطرة السوية. والمجموعة الثانية: (كنايات عن مصارع الغابرين) كعباد ودمود وفرعون التي أهلكها الله بذنوبها، فجعل مصارعهم ذكرى لمن كان له قلب فيعتبر بها..

والمجموعة الثالثة: (كنايات عن العذاب) التي تصوّر صوراً متنوعة من عذاب الله، منها عذاب أصحاب جهنم الذين يعشاهم عذابها من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومنها عذاب في الحياة الدنيا لأولياء الشيطان... والمجموعة الرابعة: (كنايات عن الرحمة) وتصور صوراً من رحمة الله الواسعة لعباده..

والمجموعة الخامسة: (كنايات أخرى) تنفرد فيه كل كناية بموضوع معين وإذ يعرض القرآن هذه الموضوعات في مجاميعها، فإنه يعرضها بالتصوير الكناني الذي يحتضن الأفكار والمعاني فيؤديها بحيوية وقوة تأثير في المتلقي تعمل على إحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن.

هذه أبرز النتائج وأميزها، عسى أن تكون قد وفقنا في بيانها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



## المصادر والمراجع

- ابن القيم وحسنه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط ١، بيروت ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
- الاتقان في علوم القرآن، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة (د.ت).
- الأدب الرمزي، هنري بير، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، ط ١، بيروت ١٩٨١.
- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري: عبد الرحيم محمود، مطبعة أولاد اورفاند، ط ١، ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م.
- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صححه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.
- الأسمن النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
- الاسلام والتربية الجنسية، د. وجيه زين العابدين، مكتبة المنار الاسلامية، الكويت (د.ت).
- أسلوب السخرية في القرآن الكريم، د. عبد الحلیم حفتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.
- الأسلوب الكتاني نشأته تطوره بلاغته ، د. محمود السيد شيخون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١، القاهرة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.
- إصلاح المنطق، لابن السكيت، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٠.

- أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة ، د. محمد حسين علي الصغير، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٦ (سلسلة كتب شعرية).
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧١.
- الإعجاز الطبّي في القرآن، د. السيد الجميلي، مطبعة آسييلية، بغداد، (د. ت).
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، مطابع الأهرام التجارية، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.
- الأمثال في القرآن الكريم، د. محمد جابر الفيّاض، دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد ١٩٨٨.
- أنوار الربيع في أنواع البدیع، ابن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرا نغ: شاکر هادي
- شکر، مطبعة النعمان، ط ١، النجف ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٩.
- إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي (مهرجان المرشد الشـ
- التاسع)، ضمن (الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين)، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- البحر المحيط، الأندلسي: أمير الدين محمد بن يوسف بن حيان، الناشر: مكتبة ومطـ
- النصر الحديثة، بيروت (د. ت).
- البديع، عبد الله بن المعتز، نشر وتعليق: اغناطيوس كرانسوفسكي (د. ت).
- بديع القرآن، ابن أبي الأصعب المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د. ت).
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد ابن الفضل إبراهيم، عيسى الباني الحلبي وشركاه، ط ٢، (د. ت).

- البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهيب الكاتب
- تحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي، ط ١، بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
- بصائر نوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابي
- تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢، (د. ت).
- البلاغة العربية المعاني والبيان والابديع ، د. أحمد مطلوب، وزارة التعليم العالي و: العلمي، الجمهورية العراقية، ط ١، بغداد ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- البلاغة عند الجاحظ، د. أحمد مطلوب، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية
- العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م (مسلسلة دراسات ٣٤٢).
- البلاغة فنونها وأفانيتها علم المعاني ، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط ١، عمان ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- البلاغة والتطبيق، د. أحمد مطلوب، د. كامل حسن البصير، مطبعة دار الكتب، ط ١، جامعة الموصل ١٩٨٢ م.
- البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف بمصر، ط ٧، (د. ت).
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق ، د. كامل حسن البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هـ
- مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٨ م.
- تأويل مشكل القرآن، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط ٣، المدينة المنورة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- التبيان في البيان، الطيبي: شرف الدين الحسين بن محمد بن عبد الله، تحقيق: د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط ١، الكويت ١٤٧٦ هـ ١٩٨٦.
- التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن، صححه ورتبه: أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، (د. ت).
- تحرير التخيير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصـري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، القاهرة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م.
- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨، (سلسلة دراسات ١٤٣).
- التصوير البياني، حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، المطبعة العثمانية، ط ٢، ١٩٧٣.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمد أبو موسى، دار التضامن للطباعة، ط ٢، القاهرة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠.
- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (د. ت)، (د. ط).
- التعبير القرآني رؤية بلاغية نقدية، د. شمع السيد، دار غريب للطباعة، القاهرة ١٩٧٧.
- التعبير الفني في القرآن، د. بكرى شيخ أمين، دار الشروق، ط ٤، القاهرة، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
- التعبيرات القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة، ابتسام مرهون الأصفر، مطبعة الآداب، ط ١، النجف ١٣٧٨ هـ ١٩٦٧ م.
- التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، مطبعة أوفسيت الميناء، ط ٢، بغداد ١٩٧٨.
- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).

- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط ٦، القاهرة ١٩٨٢.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٣ م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد السحلي وجمال الدين عبد الرحمن السبكي، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د.ت)، بهامش (القرآن الكريم).
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الجيل، ط ١، بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، ط ٢، (د.ت).
- تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، ط ١، ١٣٤٦ هـ.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط ١، القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.
- التلخيص في علوم البلاغة، القزويني: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن اليرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- تهذيب الأخلاق، يحيى بن عدي التكريتي، تحقيق وترجمة: د. ناجي التكريتي، وزارة التعليم العالي و: العلمي، بغداد ١٩٩٢.
- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م.

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمذكور، ابن الأثير: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الناشر: دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.
- جرس الألفاظ ودلالاتها في: البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ (سلسلة دراسات رقم ١٩٥).
- جواهر البلاغة في المعاني والديان والابديع، أحمد الهاشمي، منشورات دار إحياء التراث العربي، ط ١٢، بيروت، (د. ت.).
- جواهر الكنز تلخيص كنز البراعة في أدوات نوي البراعة ، نجم الدين أحمد بن اسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، (د. ت.).
- حذية المحاضرة في صناعة الشعر، محمد بن الحسن الحاتمي، تحقيق: د. جعفر الكتيبي، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩، (سلسلة كتب التراث ٨٢).
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٣، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م.
- خزائن الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دار القاسوس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت.).

- الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي، د. علي جواد الطاهر، منشورات دار الجاحظ للنشر، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣، (الموسوعة الصغيرة ١٢١).
- دراسات في علم النفس الاسلامي، د. محمود البستاني، دار البلاغة، ط ١، بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة الفجالة الجديدة، ط ١، القاهرة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د. محمد أبو موسى، دار المعلم للطباعة، ط ١، القاهرة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيت، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٤٥.
- رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، (د. ت.).
- الرمزية في الأدب العربي، د. درويش الجندي، داتر نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.
- الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، دجار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٩٤٩.
- الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، أمية حمدان، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر ١٩٨٩، (سلسلة دراسات ٢٦٧).
- الرؤية البيانية عند الجاحظ، ادريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٤٠٤ هـ ١٢٩٨٤ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المطبعة الكبرى الميرية، ط ١، مصر، ١٣١٠ هـ.
- المروض المريع في صناعة البديع، ابن البداء المراكشي العددي، تحقيق: رضوان بنشقرن، نشر وطبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٥.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م.

- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد، محمود محمد غريب، دار العربية للطباعة، بغداد ١٩٧٧.
- سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة، (د. ت).
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٤، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- صحيح البخاري، البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، (د. ت).
- صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، ط ٣، (د. ت).
- صفوة التفاسير، محمد علي الصلابي، دار القرآن الكريم، ط ٢، بيروت، المجلد الأول طبع في ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م. والثاني والثالث في ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م.
- الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية، د. محمد حسين علي الصغير، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، (سلسلة دراسات رقم ٢٨٨).
- الطب النبوي، ابن قيم الجوزية، صححه: عبد الغني عبد الخالق، مطبعة مثير، ط ٢، ١٩٨٥.
- الطبعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزبيدي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٠، (سلسلة دراسات رقم ٢٣٦).
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي: يحيى بن حمزة بن علي العلوي اليمني، مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م.
- عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ط ١، بيروت، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، مطبعة عيسى الياباني الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).

- العقد الفريد، ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه وصححه: أحمد أمين وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، بيروت ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م.
- العلاقات الجنسية غير الشرعية وعقوباتها في الشريعة والقانون، د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي، دار الأنبار للطباعة والنشر، ط ٣، ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- علم البي ان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).
- علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، المطبعة الفنية الحديثة، ط ٤، ١٩٧٧.
- علم البيان في الدراسات البلاغية، علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
- علم عناصر الفن، فرج عيوى، دار دلفين للنشر، إيطاليا، ميلانو ١٩٨٢.
- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق،
- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٤، بيروت ١٩٧٢.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزبيدي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل
- ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، د. توفيق الطويل، الناشر: دار المعارف بالأسكندرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، القاهرة ١٣٢٧ هـ.
- في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، د. سعد أبو الرضا، الناشر:
- منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٨٧.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ط ٥، بيروت، ١٣٨٦ هـ ١٩٦٧ م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
- القرآن إعجازه وبلاغته، د. عبد القادر حسين، مطبعة الأمانة، مصر ١٩٧٥ م.
- القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسن، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- القزويني وشروح التلخيص، د. أحمد مطلوب، مطابع دار التضامن، ط ١، بغداد، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.
- الكامل، الميرزا: أبو العباس محمد بن يزيد، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د. ت).
- كتاب البرصان والعرجان والعميان والحوالان، الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٢، (سلسلة كتب التراث).
- كتاب سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار غريب للطباعة، ط ٣، القاهرة ١٤٠٨ هـ ١٢٩٨٨ م.
- كتاب الصناعتين، العسكري: أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق: علي محمد الجبالي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، ط ١، القاهرة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
- كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٦.

- كتاب المُلَمَّع، صنعة أبي عبد الله الحسين بن علي النعماني، تحقيق: وجيهة أحمد الله، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأهلويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المجلد الأول، دار الفكر، بيروت. والمجلدات الثاني والثالث والرابع، ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، ط ٢، القاهرة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م.
- الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن علي الأمين أحمد، بيروت ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- الكناية والتعريض ضمن رسائل الثعالبي أو نثر النظم وحل العقد، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي، قدم له: علي الخاقاني، دار صعب، بيروت، (د.ت).
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بهامش تفسير الجلالين، مطبوعات مكتبة محمد نهاد هاشم الكتبي، (د.ت).
- لسان العرب، ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، (د.ت).
- لغة المنافقين في القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الرائد العربي، ط ١، بيروت ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- اللغة واللون، د. أحمد مختار العمري، دار البحوث العلمية، ط ١، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
- اللون، محمد يوسف همام، مطبعة الاعتماد، ط ١، مصر ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م.
- السئل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير: ضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

- مجاز القرآن، صنعة أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، عرضه بأصوله وعلق عليه: د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط ٢، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.
- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين علي الصغير، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، ط ١، بغداد ١٩٩٤.
- المختصر على تلخيص المفتاح، سعد الدين النفلزاني، ضمن شروح التلخيص، مطبعة
- عيسى النابلي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).
- مدخل الى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط ٣، الموصل ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
- المذاهب الأخلاقية الكبرى، افرانسوا غريغور، ترجمة: فتية المعروف، منشورات عويدات، ط ١، بيروت ١٩٧٠ م.
- المذاهب الأدبية من الكلاسيكية الى العنصرية، د. نبيل راغب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، (المكتبة الثقافية ٣٤٣).
- المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قنبي، مكتبة المنار، ط ١، الأردن ١٩٨٤.
- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعارف بمصر، (د. ت).
- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ط ١، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
- المعاني الثابتة في الأسلوب القرآني، فتحى أحمد عامر، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٦.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، المكتبة الأموية، ط ٤، ١٩٨٣.
- مع القرآن في عالمه الرحيب، د. عماد الدين خلي ل، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت).
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م.

- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
  - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
  - المعرفة الصوفية (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة)، ناجي حسين جودة، دار عمّار، ط ١، عمان ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
  - مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد علي السكاكي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١، ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م.
  - المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، أعده للنشر وأشرف على الطبع: د. محمد أحمد خلف الله، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٠.
  - من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، د. محمد أبو موسى، الناشر: دار الفكر العربي، مطبعة السعادة، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
  - من بلاغة القرآن، أحمد بنوي، دار نهضة مصر للطبع والتشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م.
  - من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.
  - المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلاغاء، أبو العباس أحمد بن محمد الجرجاني الثقفى، عني بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مطبعة السعادة، ط ١، مصر ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م.
  - مواهب الرحمن في تفسير القرآن، محمد عبد الكريم المدرس، عني بنشره: محمد علي القره داغي، دار الحرية للطباعة، ط ١، بغداد ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م. وطبع المجلد السابع في ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
  - مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، ضمن شروح التلخ
- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، (د. ت).

- نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، د. عز الدين اسماعيل، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، أفاق عربية، ط ٢، بغداد ١٩٨٦.
- نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعتها استعمالها القرآني بلاغياً، د. هادي عطية مط
- الهلال، مكتبة النهضة العربية، ط ١، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- النكت في إعجاز القرآن، الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط ٣، ١٩٧٦.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، (د. ت).
- نهاية الإيجاز في دارية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق: د. ابراهيم السامرائي و د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٥.
- ثانياً الرسائل والأطاريح الجامعية:
- أساليب المجاز في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، د. أحمد حمد محسن الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩.
- الاستعارة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير)، أحمد فححي رمضان، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٨.
- ألفاظ الثواب في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٧.
- الألفاظ النفسية في القرآن الكريم دراسة دلالية (رسالة ماجستير)، أيمن توفيق الوتاري، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٩٤.
- البنى والدلالات في لغة القصص القرآني دراسة فنية (أطروحة دكتوراه)، د. عماد عبد يحيى، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

- منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، د. كاصد ياسر الزبيدي، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.
  - نشاط الصفدي في النقد والبلاغة (أطروحة دكتوراه)، د. مناهل فخر الدين قليج، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م.
  - ثالثاً المجالات والدوريات:
  - ألفاظ التصريح والتكمين في القرآن الكريم دراسة دلالية، د. عبد الوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٣) ١٩٩٢.
  - التعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف د. تريش فيشر، مجلة التريبة والعل، العدد (٨) ١٩٨٩.
  - جدل اللون في شعر خليل حاوي، د. بشرى حمدي البستاني، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٥) ١٩٩٣.
  - الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، د. كاصد ياسر حسين، مجلة كلية آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٩) ١٩٧٨.
  - شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، مجلة فصول، العدد (٢) ١٩٨٥.
  - الكناية، محمد جابر الفياض، مجلة المجمع العلمي العراقي، (ج ١ - ٣٧)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
  - مقومات النص في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزبيدي، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد (٢٣) ١٩٩٢.
  - اللون في الأندلس العربي القديم وملاحظات أخرى، علي الشوك، الأديب العراقي، العدد (٢)، بغداد ١٩٦١.
- رابعاً المخطوطات:
- حدائق الزهر والريحان في البيان عن بلاغات التبيان، محمد أمين الخطيب بن خير الله العمري، رقم المخطوط ٣ / ١١ رضواني، مكتبة الأوقاف / الموصل.